نهر الدماء في العراق

حقيقة مجزرة العائلة المالكة

في 14 تموز 1958

د. عبد الكريم العلوجي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : نهر الدماء في العراق

المـؤلف : د. عبد الكريم العلوجي

رقم الإيداع :

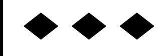
الطبعة الأولى 2010



Tokoboko_5@yahoo.com

الفصل الأول

من عهد الانتداب للاستقلال للثورة



المقدمة

كان مقتل الأسرة المالكة في العراق صباح يوم 14 تموز عام 1958 عند قيام ثورة قام بها الضباط العراقيين للقضاء على الملكية وإعلان الجمهورية.

ولكن للأسف فإن الأمور سارت بما لا ترضاه الضمائر العراقية بعدما كانت المجزرة المؤلمة للأسرة الهاشمية المالكة في العراق والمصير الشنيع الذي حدث لجثة الأمير عبد الإله الذي كان وصياً على العرش وخال الملك فيصل الثاني سحلا في شوارع بغداد.

وهذه هي فاتحة ظهور الجثث وتدفق الدماء في العراق منذ مقتل الأسرة المالكة ولليوم الذي نشاهد فيه احتلال العراق من قبل القوات الأمريكية ومجئ عناصر التتار الذين استلموا السلطة وعاثوا في البلاد تمزيقا وقتلا وتهجيرا وأنهارًا من الدماء.

كانت طاحونة القتل في العراق صبيحة 14 تموز 1958 على الشكل الذي حدثت فيه الجريمة حيث التهمت هذه الطاحونة الموت والقتل لكل الذين شاركوا فيها، حيث حدثت في العراق مجازر رهيبة لم يشهدها في تاريخه بكل ما يتمثل هذا التاريخ من مآسي القتل والفوضى التي نشهدها اليوم في العراق.

إن التاريخ سوف يسجل على هؤلاء الذين أقدموا على مقتل الأسرة المالكة التي خرجت مستسلمة رافعة الراية البيضاء والمصحف وهي مطمئنة للوعود التي قدمت لها من قبل ضباط الثورة بالحفاظ على حياتهم والخروج من العراق سالمين. ولكن ما حصل هو أن قام أحدهم وهو النقيب عبد الستار العبوسي والذي كان متواجدًا داخل القصر في اللحظة التي خرج بها الملك فيصل الثاني. حيث رفع يده يؤدي التحية العسكرية للضباط الموجودين أمامه. واغتصب ابتسامة تراقص على شفتيه وظهرت خلفه جدته وهي تحاول أن تجعل الجمع أن يشاهدون القرآن بيدها. فكان النقيب عبد الستار العبوسي داخل قصر الرحاب فترك القصر ونزل هابطًا درجات الباب الأمامية ورشاشته بيده واستدار إلى اليمين فشاهد الأسرة المالكة كلها تسير فى صف تاركة باب المطبخ. وبعد أقل من نصف دقيقة كان النقيب العبوسي يقف خلف العائلة المالكة تمامًا ويفصله خط شجيرات صغيرة على الأرض.

وبلمح البصر.. فتح نيران رشاشته من الخلف مستديرًا من اليمين إلى اليسار. فأصابت رشاشته الثمانية والعشرين طلقة ظهر الأمير عبد الإله ورأس ورقبة الملك فيصل الثاني. وظهر الملكة والأميرة عابدية ثم لم يلبث أن فتح مصطفى عبد الله نيرانه من الأمام على الموجودين أمامه.

وفتح بقية الضباط المشكلين نصف حلقة نيران رشاشاتهم وجاءت النيران من الأمام ومن الخلف ومن كل من يحمل سلاحا في تلك اللحظة.

أصيب الملك بعدة طلقات فتحت جمجمته وسقط في أحضان الأميرة هيام التي تهاوت أرضًا وقد أصيبت برصاصة في فخذها وسقط الأمير عبد الإله قتيلاً على الأرض.

ونالت الأميرة عابدية والملكة نفيسة حظهما من رصاص المهاجمين فتمرغتا أرضًا وهما تلفظان أنفاسهما الأخيرة.

وأثار منظر الدماء وأصوات الطلقات النارية جنون ضابط المدرعة ففتح نيران رشاشته الثقيلة على الأجسام الملقاة أرضًا فحرثها حرثًا.

هكذا كان مصير العائلة المالكة في العراق في هذه الدراما المأساوية والتي لن تنسى في تاريخ العراق.

لقد عانى الشعب العراقي أشد المعاناة في كل عصوره حيث كان هو البوابة التي تتحطم مع كل غزوات الأعداء والطامعين في الأمة العربية ومنذ الحكم العثماني للعراق الذي دام أكثر من أربعة قرون إلى سقوط الخلافة العثمانية واحتلال العراق على أيدي القوات البريطانية.

كان العراق هو البوابة التي تحمي الأمة العربية والإسلامية واليوم يدفع العراق ثمنًا باهظًا. هل هو الثمن الذي ندفعه على ما ارتكبناه من جريمة وظلم بحق هذه الأسرة المالكة؟

إن ما رواه الملازم فالح حنظل الذي كان يعمل في الحرس الملكي والذي شـاهد هذه المأسـاة هي وثيقة هامة يجب إعادة النظر فيها لما احتوته من تفصـيل دقيق لحياة هذه الأسرة المالكة البسـيطة.. وهي مشـابهة تقريباً لكل الروايات التي تحدثت عن ذلك اليوم ولكن هو أقرب للحقيقة لأنه شاهد عيان عليها لذلك لابد أن يكون هو المصـدر في كتابنا هذا مع محاور أخرى قريبة، وإن اختلفت الرواية وقد أخذت مصدرين كشاهدين على هذه المأساة وهناك روايات أخرى وإن اختلفت في التفصيل ولكنها جميعاً تتحدث عنها وهي غاضبة من طريقة قتل هذه الأسرة المسالمة والتاريخ هو الذي حكم عليها وأعادها للحقيقة وما انتحار النقيب عبد السـتار العبوسي الذي ارتكب هذه المجزرة إلا عقاب الله وعقاب التاريخ عليه.

وقد نشرـت هذه الرواية عن أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق في 14 تموز 1958 مطابقة ودقيقة عن الروايات الأخرى التي نشرت ولكن الملازم فالح حنظل كان شـاهد عيان وضـابطًا في الحرس الملكي وكان قريبًا من الأسرة المالكة وخاصـة الأمير عبد الإله والملك فيصل والعائلة.

وحاول بكل جهده أن ينقذهما ولكن القدر كان أقوى منه. وكان إصرار الأمير عبد الإله على عدم طلب المساعدة من الحماية العسكرية للقصر- حرصًا على دماء العراقيين ساهم في هذا المشهد المأسوي. وكان استسلام الأمير عبد الإله وانهياره بالرغم من أن هناك فرصة له للخروج مع أسرته إلى خارج العراق وتم مفاتحته في ذلك.

وكان موافقة الأسرة والملك فيصل على الخروج ولكن عدم رغبته في الهروب والإحباط واليأس والحرص على عدم إراقة الدماء قد عجل مقتل الأسرة.

لقد اعتمدت كلياً على ما كتبه الملازم فالح حنظل في روايته عن هذه المأساة الدموية لأنها هي الأقرب للحقيقة.

لكن لابد لنا أن نتحدث أولاً عن الحديث والأحداث التي جرت في مياه دجلة والفرات وتغليب السياسة على مصالح الوطن حتى أوصلتنا اليوم إلى ما نحن فيه. لذا أملنا أن نعطي صورة كاملة عن تاريخ العراق والأحداث السياسية التي مرت على العراق منذ عهد الانتداب إلى عهد الاستقلال والثورة في 14 تموز ولابد أن نستكمل التاريخ بكل أبعاده السياسية والدموية التي مرت بالعراق ولكن استمرار نهر الدماء في العراق هل هي اللعنة من مقتل الحسين إلى مقتل الملك فيصل الثاني والاثنان قتلاً في العراق بطريقة مأساوية؟!!

د.عبد الكريم العلوجي

من هو فيصل الثاني

الملك فيصل الثاني ابن الملك غازي ابن الملك فيصل الأول بن الشريف حسين (ولد في 2 مايو 1935 ، وقتل والأسرة في14 يوليو 1958)، ملك العراق هو ثالث وآخر ملوكها من الأسرة الهاشمية. حكم من عام 1939 وحتى وفاته، وهو الابن الوحيد للملك غازي. وأصبح ملكا فعليا للعراق عندما بلغ 18 سنة حيث استقال خاله الوصي على العرش عبد الإله في 2 مايو 1953.

حياته

هو فيصل بن غازي بن فيصل بن حسين بن الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله شريف مكة. و يرتفع نسب فيصل إلى الحسن المثنى ابن الإمام الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب.

ولد في بغداد 2 مايو سنة 1935 ، ونشأ فيها ودرس العلوم ومبادئ اللغة العربية والأدب العربي على يد أساتذة خصوصيين أشرف عليهم العلامة مصطفى جواد، وهو الابن الوحيد لوالده الملك غازي، وأشرفت على تربيته والدته الملكة عالية بنت الملك على بن حسين وعاونتها في ذلك المربية الإنكليزية مس ريموس.

درس المرحلة الابتدائية في مدرسة المأمونية التي كانت واقعة في منطقة الميدان عند منطقة باب المعظم كما درس فيما بعد في كلية فيكتوريا البريطانية في مدينة الإسكندرية في مصر مع قريبه الحسين بن طلال ملك الأردن السابق.

أنهى دراسته الابتدائية في سنة 1947 ثم سافر إلى لندن للدراسة حيث التحق بمدرسة «ساندويس» ثم التحق بكلية «هارو» في 7 مايو 1949، وعاد منها إلى بغداد في 30 مارس 1950، وبعدها عاد إلى لندن لإكمال دراسته أيضا، لكنه هذه المرة لم يكن وحده بل رافقته أمه الملكة عالية ، وكانت أمه أثناء مرافقتها له تستكمل علاجها هناك؛ لأنها كانت مريضة وصادفت دراسته هذه المرة مع ابن عمه الملك حسين بن طلال الذي كان مقارِبا لعمره وصديقا حميما له وكانت تربطهما علاقات متينة إلى أن تخرج فيها بتاريخ 23 أكتوبر1952. وعاد إلى بغداد في 30 نوفمبر1952.

تميزت شخصيته بالأدب و الاحترام لمن هو أكبر منه سنا ولاسيما أبناء عائلته الهاشمية، إضافة إلى صمته وهدوئه، كما وُصف بالصراحة و الوضوح أثناء المناقشة أو الجدال.

كان منذ صغره يحب ركوب الخيول ولاسيما تلك الخيول التي تستعمل في السباق وتسمى خيول (السيسي) وكثيرا ما كان يمنع من ركوبها بسبب إ صابته بالربو منذ طفولته وكان شديد التعلق بأمه الملكة عالية بسبب يُتمه المبكر وكونه الوحيد لأبويه.

كان مخطوباً للأميرة فاضلة بنت الأمير محمد علي بن محمد بن وحيد الدين بن إبراهيم بن أحمد بن رفعت بن إبراهيم بن محمد علي الكبير ووالدتها هي: الأميرة خان زاده بنت الأمير عمر فاروق ابن الخليفة العثماني عبد المجيد الثاني ،ولم يتزوجها بسبب مقتله في 14 تموز يوليو 1958.

علاقته بخاله الأمير عبد الإله

بعد و فاة الملك غازي في 4 أبريل 1939 آل العرش إلى و لده الوحيد الملك فيصـــل، من زوجته الملكة عالية والذي كان آنذاك في ســـن الرابعة من عمره، ولهذا أصبح خاله الأمير عبد الإله وصياً على العرش فيما كان نوري السعيد هو الذي يدير الدولة العراقية.

كان خاله الوصي على العرش الأمير عبد الإله من أكثر المقربين للملك فيصـــل الثاني لاســـيما بعد وفاة والدته الملكة عالية ســـنة 1950 حيث بقي وحيدا بلا أم بلا أب ولا أخوة ولا أخوات، كل ذلك جعل الملك فيصل الثاني لا يستغني عن مرافقة خاله الأمير عبد الإله في جولاته خارج العراق فرافقه في زيارته إلى إيران بدعوة من الشاه محمد رضا بهلوي في 18 أكتوبر 1957 وكذلك إلى السعودية في 24 ديسمبر 1957م، والأردن.

بعد فشـل حركة رشـيد عالي الكيلاني في 1941 عاد الوصي عبد الإله إلى العراق بمسـاعدة الإنجليز وقد تغيرت نظرة الشـعب العراقي تجاه العرش بشـخص الأمير عبد الإله، ومع هذا ظل العراقيون ينظرون إلى الملك فيصـــل باعتباره نجل ملكهم المحبوب غازي الأول وكانوا يأملون منه كل خير فرغم ما حدث لم ينقطع الرباط الوثيق الذي أقامه الملك غازي بين العرش والشـــعب العراقي وظل أمله كبيراً في الملك.

كانت الظروف السياسية التي تحيط بالملك فيصل في غاية الحساسية والتأزم، حيث كانت وصاية خاله الأمير عبد الإله عليه وشخصيته القوية والمتنفذة في البلد، إضافة إلى سيطرة نوري السعيد بنفوذه الواسع والمتعدد والمدعوم بشكل مباشر وعلني من الإنجليز، كل ذلك جعل الملك الشاب فيصل في حالة من التردد وعدم القدرة لا يحسد عليها أبدا وهو ذاك الفتى الشاب الهادئ الوديع والذي لا يعرف دروب السياسة الشائكة ولا ألاعيبها المختلفة، ومع كل هذا مارس الملك فيصل الثاني نشاطاً ملحوظاً لمعالجته المشاكل الاقتصادية التي كان العراق يعاني منها، فأولى اهتمامه للجانب الاقتصادي فوضع خطة سُميت بمجلس الإعمار نهضت بإنشاء كثير من المشاريع الكبرى والمهمة والحيوية للبلد.

لقد غرس عبد الإله في نفس الملك فيصل إحساساً بأنه قادر على مسؤوليات الدولة والحكم وتصريف شؤون البلاد لما له من خبرة في معرفة رجال الدولة وقضاياها وبأنه يستطيع إيجاد الحلول المناسبة لكل موقف وظرف فنشأ الملك فيصل وهو يؤمن في قرارة نفسه أن خاله يستطيع أن يتحمل عنه تبعات الملك بما خلق لديه مسبقاً من إحساس الاتكال وترك الأمور ليتصرف بها، لأنه درج على ذلك منذ طفولته حتى وجدها بعد ذلك أمرًا واقعاً هذا إذا أضفنا أن تقاليد الأسرة الهاشمية كانت شديدة التمسك فيما يتعلق باحترام رأي من هو أكبر سناً وهذا ما جبل عليه أفراد هذه الأسرة منذ القدم.

كانت حياته تثير الأســى لدى الكثيرين؛ فوالده مات وهو رضــيع وتوفيت والدته وتلقى العلم في بلد غريب ولم يكن أمامه مناص من اتباع مشــورة خاله الوصي عبد الإله الذي حرص على أن يبقى المســيطر الحقيقي على الأمور بعد أن نجح الوصي في خلق مشــاعر الود المتبادلة بينه وبين ابن أخته الملك بما أبداه من عاطفة ورعاية تجاهه ولكنه استغل تلك المشاعر ليمارس دور الملك في سياسة الدولة العراقية.

انتهاء فترة الوصاية وتتويجه ملكاً

في 2 مايو 1953 أكمل الملك فيصل الثامنة عشرة من عمره فانتهت وصاية خاله عبد الإله على عرش العراق بتتويجه ملكا دســتورياً على العراق. وأعلن ذلك اليوم عيداً رســمياً لتولي الملك ســلطاته الدســتورية. وقد تزامن تتويجه مع تتويج ابن عمه الملك الحسين بن طلال ملكاً على الأردن في عمان.

ظن الناس أن الأمير عبد الإله سيتخلى عن واجبات الوصاية ويترك أمور البلاد إلى الملك فيصل لكن عبد الإله عمل على تقويم الملك فيصل الثاني فأبقاه تحت تأثير الطاعة العمياء له واستمر يقحم نفسه في كل صغيرة وكبيرة كما لو أن وصايته عليه ظلت مستمرة والى ما لانهاية.

لقد بقي عبد الإله خلف الملك يسيره ويأمره بعد أن تمكن من زرع بذور الطاعة له في نفسه ولم يتمكن الإفلات من هذا الطوق والاقتراب من الشعب أو الاتصال به وتحسس رغباته ومطاليبه وأخذ عبد الإله يصاحب الملك أينما اتجه وأينما سافر للتفاوض ويبدو أن الحكام العرب كأنوا يدركون موقف الملك فيصل الثاني تجاه القضايا السياسية والمهمة ويعرفون انه دون المهمات المناطة به لقلة تجربته وأن الحل والعقد بيد خاله ولي العهد.

الاتحاد العربي الهاشمي

دعا الملك الحسين بن طلال ملك الأردن في فبراير 1958 إلى إقامة اتحاد عربي هاشمي بين المملكتين الهاشميتين في العراق والأردن لحفظ توازن القوى في المنطقة أعقاب تشكيل الجمهورية العربية المتحدة بين مصر و سوريا وأطلقوا عليه تسمية دولة الاتحاد الهاشمي العربي ،وعضويته مفتوحة لكل دولة عربية ترغب في الانضمام إليه بالاتفاق مع حكومة الاتحاد« وعلى احتفاظ »كل دولة من أعضاء الاتحاد بشخصيتها الدولية المستقلة وبنظام الحكام القائم فيها». ينص الد ستور كذلك على أن ملك العراق هو رئيس الاتحاد وأن مقر حكومة الاتحاد يكون بصفة دورية ستة أشهر في بغداد و ستة أشهر في عمان، أصبح الملك فيصل الثاني ملكا للإتحاد الذي دام لستة أشهر فقط حيث أطيح بالنظام الملكي في العراق في 14 يوليو1958.

وفاته

كان الملك فيصل الثاني قد أعد نفسه للسفر إلى تركيا صباح يوم 14 يوليو 1958 برفقة خاله عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد لحضور اجتماعات حلف بغداد على أن يغادر تركيا بعد ذلك إلى لندن للقاء خطيبته الأميرة (فاضلة) وكان الملك قد حدد يوم 8 يوليو 1958 موعداً لسفره وكان أكثر اهتماماً بلقاء خطيبته من صراع الخطب السياسية في اجتماعات الميثاق. ولكن في يوم 7 يوليو رجاه وزير المالية بأن يؤجل سفره إلى يوم 9 يوليو، للتوقيع على قانون الخدمة الإلزامية، وقانون توحيد النقد والبنك المركزي لدول حلف بغداد، وافق الملك بعد إلحاح. وفي يوم موعد سفره في 8 يوليو أرسل شاه إيران برقية يقول فيها أن لديه معلومات يريد أن يبلغها لمجلس دول حلف بغداد، واقترح لقاء رؤساء دول الحلف ورؤساء وزرائهم في اسطنبول يوم 14 يوليو 1958 واضطر الملك إلى تأجيل سفره للمرة الثانية من 9 يوليو إلى 14 يوليو.

قيام الثورة

في صباح يوم 14 يوليو 1958 استيقظ الملك على أصوات طلقات نارية. هب الجميع فزعين: الملك والوصي والأميرات والخدم. وخرج أفراد الحرس الملكي إلى حدائق القصر يستقصون مصدر النيران. وازداد رشق الرصاص والإطلاق نحو جهة القصر. ولم يهتد الحرس إلى مصدر النيران في البداية.

وإذا بأحد الخدم يسرع إليهم راكضاً ليخبرهم بأنه سمع الراديو يعلن عن قيام ثورة. ومن شرفة قريبة طلب عبدالإله من الحراس بأن يذهبوا إلى خارج القصر ـ ليروا ماذا حصل. وعاد الحراس ليخبروهم بأنهم شاهدوا عددا من الجنود يطوقون القصر ـ. وبعد استفسار الملك عن الموضوع اخبره آمر الحرس الملكي بأن أوامر صدرت لهم بتطويق القصر والمرابطة أمامه.

سارع عبد الاله لفتح المذياع لسماع البيان الأول للحركة وصوت عبد السلام عارف كالرعد يشق مسامعه ومع مرور الوقت سريعاً بدأت تتوالى بيانات الثورة وتردد أسماء الضباط المساهمين بالحركة. أخبر آمر الحرس الملكي الملك بأن قطعات الجيش المتمردة سيطرت على النقاط الرئيسية في بغداد وأعلنوا الجمهورية وأنهم يطلبون من العائلة الملكية تسليم نفسها.

أعلن الملك ا ستسلامه وطلب منه الخروج مع من معه، وخرج مع الملك كلاً من الأمير عبد الإله وأمه الملكة نفيسة جدة الملك والأميرة عابدية أخت عبد الإله، ثم الأميرة هيام زوجة عبد الإله والوصيفة رازقية وطباخ تركي وأحد المرافقين واثنين من عناصر الحرس الملكي.

وبعد تجمع الأسرة في باحة صغيرة في الحديقة فتح النار عبد الستار سبع العبوسي من دون أي أوامر وقد أصاب الملك برصاصتين في رأسه ورقبته وأصيب الأمير عبد الإله في ظهره ثم لقي حتفه هو الآخر وتوفيت على الفور الملكة نفيسة والأميرة عابدية وجرحت الأميرة هيام في فخذها. وتذكر بعض المصادر بأن حادث إطلاق النار جاء بطريق الخطأ من الحرس الملكي الذي رد عليه المهاجمين وكانت العائلة المالكة في منتصف خط الرمي. وتذكر مصادر أخرى بأن حالة الحماس والارتباك حملت بعض الضباط من صغار الرتب من غير المنضبطين ومن ذوى الانتماءات الماركسية بالشروع في إطلاق النار.

ويروي البعض ممن كان حاضراً في تلك الفاجعة المؤلمة أن الملك فيصل الثاني حمل المصحف الكريم فوق رأسه والراية البيضاء بيده وخرج ليسلم نفسه بطريقة سلمية حفاظاً على عائلته من الفناء ولكن حدث ما حدث حيث وقتل في ذلك الصباح ودفن فيما بعد في المقبرة الملكية في الأعظمية مع أمه وأبيه وجده وجدته

نقلت جثة الملك إلى مستشفى الرشيد العسكري في إحدى غرف العمليات، للتحقق من وفاة الملك. وفي مساء اليوم نفسه حفرت حفرة قريبة من المستشفى في معسكر الرشيد، وأنزلت فيها الجثة وأهيل عليها التراب، ووضعت بعض العلامات الفارقة معها لتدل على مكانها فيما بعد. ثم تم نقل الجثة ودفنها في المقبرة الملكية في منطقة الأعظمية في بغداد. بناءً على طلب من الملك الحسين بن طلال ملك الأردن في إحدى زياراته للعراق.

وأحيلت باقي الجثث إلى مستشفى الرشيد العسكري عدا جثة الأمير عبد الإله التي تم سحلها ثم تعليقها على باب وزارة الدفاع في المكان نفسه الذي أصدر أوامره بإعدام ضباط ثورة رشيد عالي باشا الكيلاني عام 1941.

وهكذا أنهت أحداث صباح يوم 14 تموز 1958 العهد الملكي في العراق والذي راح ضحيته الملك فيصل الثاني الذي وصف بأنه مسكين لا ذنب له رحل دون جريرة أو سبب كان طيباً بريئاً ساعد المحتاجين واليتامى سبب قتله أسفا كبيراً في نفوس عدد كبير من ضباط الثورة.

العراق من عهد الانتداب البريطاني الاحتلال البريطاني للعراق

1914 – 1918

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى تقدمت قوة بريطانية واحتلت البصرة في 4 تشرين الثاني 1914 لتبدأ عملياتها الحربية ضد الدولة العثمانية، حيث تكبدت بريطانيا في سبيل احتلال العراق خسارة في الأنفس تقدر بمائة ألف إصابة وخسارة في الأموال تقدر بمائتي مليون باون استرليني.

وقد توالى احتلال المدن العراقية بعد البصرة حين زحفت قوات بريطانية نحو العمارة في 3 حزيران 1915 فاحتلتها، والناصرية 25 تموز من السنة نفسها بعد معارك دامية وهكذا سيطر البريطانيون على المثلث الواقع بين البصرة والعمارة والناصرية وبذلك أمنوا تطويق الخليج العربي ودفع العثمانيين عنه كما أصبحت منطقة النفط في عبادان مأمونة.

ولكن كان هناك فريق من الساسة والعسكريين البريطانيين رجح إكمال احتلال العراق، فتم التقدم نحو الكوت حيث حلت بالقوات البريطانية هزيمة كبيرة واضطروا إلى التسليم للعثمانيين في 29 نيسان بعد حصار شديد دام خمسة أشهر، وقد خسر البريطانيون قوتهم البالغة (13309) عسكريين ولم يستطيعوا التقدم مرة أخرى لاسترجاع الكوت إلا في نهاية عام 1916 حين استطاع الجيش البريطاني إخراج العثمانيين منها، واستمر زحفهم حتى دخلوا بغداد في 11 آذار 1917.

وقد أذاع الغزاة غداة احتلال بغداد بيانا للعراقيين نشره قائدهم «مود» جاء فيه: « إننا لم ندخل بلادكم أعداء فاتحين وإنما دخلناها محررين» .. ولم تكتف بريطانيا بهذا الاحتلال بل إن قواتها تقدمت نحو الموصل فاحتلتها في 7 تشرين الثاني 1918. ثم أكملت احتلال الأقسام المتبقية من العراق.

وكان السير برسي كوكس السياسي البريطاني المقيم في الخليج العربي رئيسا لإدارة الاحتلال في المراحل كافة. وعليه فقد أصبح بعدئذ (المندوب المدني) بوصفه المسئول الأعلى عن الإدارة المدنية.

وقد حشد عددا كبيرا من الضباط السياسيين والإداريين لإدارة شؤون العراق بعيدا عن أماني الشعب العراقي. وقام هؤلاء بوضع أسس الأنظمة الإدارية والقضائية. ولم يحاولوا الاستعانة بأبناء الوطن في الإدارة المدنية. واستندوا إلى مجموعة القوانين الهندية ووضعوا قانونا لدعاوى العشائر على غرار إجراءاتهم الاستعمارية في الهند.. مما قوى النظام الإقطاعي والعشائري في العراق.

كما أن المحتلين فرضوا الضرائب على الشعب العراقي وأثقلوا كاهله بالمصادرات والغرامات بهدف تغطية الجزء الأكبر من نفقات الجيش البريطاني في العراق.

ولكن الشـعب العراقي قاوم تلك الإجراءات القسرـية. و كان يطمح لنيل الاستقلال وأن تحقق بريطانيا له الوعود التي قطعتها للعرب أثناء الحرب. فحدثت انتفاضة في النجف في أواخر عام 1917 وأوائل عام 1918 ضد الإدارة العسكرية البريطانية، حيث أقلقت الحاكم العسكري وجعلته يفرض حصارا على المدينة استمر أكثر من أربعين يوما(*) ولم تلبث الحكومة البريطانية أن شعرت بأن استمرار سيطرتها على العراق بهذه الطريقة بات أمرا صعبًا، ولاسيما أن الحركة الوطنية العراقية أخذت تتبلور، وأصبح لها قوة لا يمكن الاستهانة بها من قبل سلطات الاحتلال. وقد تشكلت في ذلك الوقت جمعية سياسية أطلق عليها اسم (جمعية العهد العراقي)، تضمن منهاجها الصادر في عام 1919 استقلال العراق داخل حدوده الطبيعية وضمن الوحدة العربية، وطلب المساعدة الفنية والاقتصادية من بريطانيا على أن لا تمس استقلال العراق التام، وإنهاض الشعب العراقي ليأخذ مكانته بين الأمم والسعي لخير الأمة العربية، وأن يكون نظام الحكم في العراق دستوريا ملكيا. وقد تأسس للجمعية فروع في بعض المحافظات العراقية. ومن الأعمال التي قامت بها إرسال قوة عسكرية من سوريا إلى تلعفر بقيادة جميل المدفعي (أحد رجالاتها) نجحت في دخول المدينة وإبعاد الإنجليز منها.

(*) قامت سلطات الاحتلال البريطاني بعد ذلك بإعدام أحد عشر مواطنًا ونفى مائة وسبعين مواطنا من تلك المنطقة.

وفي أواخر عام 1919 تأسست جمعية أخرى باسم (حرس الاستقلال) قامت بنشاط وطني كبير في بغداد ومنطقة الفرات الأوسط، وقد رفعت شعار الاستقلال التام للعراق معلنة تصميمها على النضال الحازم من أجل تحقيقه.

عينت الحكومة البريطانية السير أرنولد ولسن وكيلا للمندوب المدني في العراق كإجراء لمجابهة تصاعد المعارضة الوطنية، فحاول اتخاذ بعض الإجراءات التي تخدم أهدافه، وأجرى استفتاء صوريا حول مستقبل العراق فجاءت نتائجه حسبما خطط له مؤيدو الوجود البريطاني بهدف إضفاء الشرعية على استمرار الاحتلال والإدارة البريطانية.

وعليه فرض مجلس حلفاء الانتداب على العراق- في مؤتمر سان ريمو - ولكن العراقيين عندما وصلهم خبر الانتداب في أوائل مايس 1920 تفاقم استياؤهم وشعروا بخيبة أمل بعد ما ظلوا ينتظرون الحكم الوطني عهدًا طويلا. فتوالت اجتماعاتهم واتصالاتهم حيث قرروا أخذ الاستقلال بالقوة.

ثورة 1920

هبت الجماهير العراقية بمختلف شرائحها الاجتماعية بثورة شملت معظم المدن العراقية لمناهضة النفوذ البريطاني فقام نفر من العراقيين في أوائل حزيران 1920 بقطع سكة حديد شمالي بغداد وجنوبي الحلة مما أنذر البريطانيين بسوء العاقبة. وفي 30 حزيران هاجمت قوات شعبية عراقية حاكم الرميثة البريطاني

وأفرجوا عن أحد زعمائهم المدعو شـعلان أبو الجون بـالقوة. فـاعتبرت هـذه الحادثة بداية للثورة وقد توالت محاصرة الحاميات البريطانية في معظم منطقة الفرات الأوسط، وأنزل بها العراقيون ضربة مؤثرة. وتمت السيطرة على بعض المدن وألحقت الخسـائر بالقوات البريطانية في تلك المناطق. وهكذا انتشـرت الثورة في محافظات بغداد وكربلاء وبابل والنجف والثمنى وذي قار والقادسـية والأنبار وديالي. وقد تعاون الأكراد والتركمان مع العرب في الثورة في مناطق قزلرباط وخانقين وكفري ومندلي واربيل.

دامت الثورة حوالي خمسة أشـهر تكبدت خلالها القوات البريطانية خسـائر كبيرة في الأرواح بلغت حوالي ألفين وخمسمائة شخص بين قتيل وجريح وخسائر بالأموال ناهزت أربعين مليون باون استرليني.

اضـطرت بريطانيا إلى تغيير سياسـتها في العراق بعدئذ. ودعت الأمير فيصـل بن الحسـين إلى إنجلترا بعد فقدانه عرش سـورية لتتداول معه في اسـتلام عرش العراق وذلك في كانون الأول 1920 ورشحته ليكون ملك العراق المقبل.

الحكومة العراقية المؤقتة وتأسيس الملكية

وقد وصل إلى العراق السير برسي كوكس في 11 تشرين الأول 1920 ليكون أول مندوب سامٍ في العراق لتنفيذ هذه المهمة، فعمل على تهدئة الأوضاع وأفلح في تكوين حكومة مؤقتة برئاسة عبد الرحمن الكيلاني نقيب بغداد (*).

وكان قد تقرر مصير العراق بهذا الشكل في مؤتمر عقد في القاهرة في 12 آذار 1921، حضرة كل من ونستن تشرشل وزير المستعمرات البريطاني والسير برسي كوكس وقائد القوات البريطانية في العراق والسكرتيرة الشرقية لدار المندوب السامي مس بيل ووزيرا الدفاع والمالية العراقيان في الحكومة المؤقتة.

وصل الأمير فيصل إلى العراق في 29 حزيران 1921 ونودي به ملكًا وتشكيل الحكومة، وأعلن عن كونها دستورية نيابية ديمقراطية مقيدة بالقانون، وتم إرجاء استفتاء عام جاءت نتيجته تأييد تنصيب فيصل ملكا حيث توج في 23 آب 1921.

وعندئذ تستر النفوذ الأجنبي على يد السير برسي كوكس وراء حكومة وتشكيلات إدارية وطنية ولم تظهر معالمه واضحة إلا عند الضرورة.

* كان تقسيم العراق إلى وحدات إدارية في مقدمة أعمال الحكومة المؤقتة فالأولية (المحافظات) كان عددها في بداية الأمر عشرا وعدد الأقضية في القطر خمسة وثلاثين قضاء وعدد النواحي خمسا وثمانين ناحية.

فلما حدث إقرار قانون الانتخابات المطلوب مثلا طلب المندوب السـامي خلافا لرغبة العراقيين شرطا يتضمن تمثيل العشائر.. وكان من أبرز الأمثلة على مبلغ نفوذ السـلطة الأجنبية إبعادها للسـيد طالب النقيب وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة والمرشح لعرش العراق عن بغداد ونفيه إلى سيلان.

وقد وقع العراق وبريطانيا في 10 تشرين الأول 1922 المعاهدة الأولى بينهما، وقد تضمنت في متنها أسس الانتداب. وفي ملاحقها الأربعة التي صودقت بعدئذ (6 آب 1924) امتيازات واسعة للجانب البريطاني جاء فيها ضمان حقوق الموظفين البريطانيين في العراق، ولزوم عقد اتفاقية عسكرية تضمن وجوب مساعدة بريطانية للعراق واشترط وجود اتفاقية قضائية لغرض حماية مصالح الأجانب. هذا إلى جانب القرار اتفاقية مالية تضمن نقل تلك المنشآت العامة إلى الحكومة العراقية لقاء ثمن باهظ جدًا عينته الاتفاقية في موادها.

وقد اشترطت المعاهدة في مادتها الثالثة لزوم تشريع القانون الأساسي للمملكة العراقية على يد مجلس تأسيسي منتخب.

المجلس التأسيسي العراقي والمعارضة الوطنية

و صدرت الإرادة الملكية في 19 تشرين الأول 1922 بتأليف المجلس التأ سيسي ليقرر: دستور المملكة، وقانون انتخاب مجلس النواب، والمعاهدة العراقية البريطانية. ولكن الشعب العراقي عارض فكرة المجلس ودعت المعارضة الوطنية من خلال الصحف والاجتماعات لمقاطعة الانتخابات، وطالبت بإلغاء الحكم العسكري البريطاني، وإطلاق حرية المطبوعات وسحب المستشارين بتأليف الجمعيات.

ثم تفاقم الأمر خلال صيف 1922 عندما تألفت ثلاثة أحزاب سياسية، هي:

1- الحزب الوطني العراقي:

برئاسة جعفر أبو التمن. ويعد هذا الحزب استمرارا لجمعية حرس الاستقلال. وهو يدعو إلى المحافظة على الاستقلال ومؤازرة حكومة العراق الملكية الدستورية النيابية والدفاع عن وحدة العراق بحدوده الطبيعية والنهوض به إلى مصاف الأمم المتقدمة.

2- حزب النهضة العراقية:

برئاسة أمين الجرجنجي. ويدعو إلى الاستقلال في ظل حكومة ملكية دستورية ديمقراطية تعمل على إقا مة و حدة وطنية عراقية. و قد قرر هذا الحزب توحيد مساعيه مع الحزب الوطني العراقي للمطالبة بحقوق العراقيين

وقدما طلبا للملك طالبين فيه أبعاد التدخل البريطاني في الحكم وتأليف وزارة وطنية، وإجراء انتخابات حرة لتأليف المجلس التأسيسي.

3- الحزب الحر العراقي:

برئاسة محمود النقيب وانحصر نشاط هذا الحزب في تأييد وزارة النقيب باعتبار أن رئيسه هو ابن رئيس الوزراء عبد الرحمن النقيب، وأصدر جريدة باسم «العاصمة» وقد أيد الحزب عقد معاهدة التحالف مع بريطانيا.

أصبح لهذه الأحزاب أثر واضح في الحياة السياسية للعراق، فقد نظم حزبا الوطني والنهضة مظاهرة شعبية في ذكرى تتويج الملك الأولى في 23 آب 1922 نادت بسقوط الانتداب وألقيت فيها الخطب الوطنية مما جعل المندوب السامي البريطاني يحتج على ذلك. وصادف في هذا الوقت أن أجريت عملية الزائدة الدودية فتولي كوكس إدارة البلاد وأمر بإقفال الحزبين وإبعاد قادتها إلى جزيرة هنكام في الخليج العربي، وإجبار بعض الشخصيات العراقية على مغادرة البلاد إلى إيران، وفصل عدد من كبار الموظفين العراقيين.

وعندئذ اشتد الاستياء وكادت بعض جهات العراق تعلن الثورة وخاصة في منطقة الفرات الأوسط وديالي، فلجأ المندوب السامي إلى القصف الجوي لإسكات المعارضة، واستعمال العنف والقسوة ضد مناوئي الانتداب.

غير أن ذلك لم يؤثر على موقف العراقيين، فاضطرت السلطة البريطانية إلى استعمال سياسة الإكراه في سبيل السيطرة على عملية الانتخابات حيث تمت في شباط 1924، وتم افتتاح المجلس التأسيسي في آذار 1924، وانتخب عبد المحسن السعدون رئيسا له، وقد حدد خطاب العرش المهمة الأولى للمجلس بالبتّ في المعاهدة على اعتبار أنها تؤمن استقلال العراق، وتمكن بريطانيا من إدخاله عصبة الأمم وحسم مشكلة الموصل.

ولكن المعاهدة جوبهت بمعارضة شديدة ولجأت الحكومة إلى الإرهاب، ورفض المندوب السامي إجراء بعض التعديلات على المعاهدة قبل إبرامها. وقامت مظاهرة حول بناية المجلس التأسيسي وحدث تصادم بين الوطنيين وقوات الشرطة.

وبلغ الأمر منتهاه عندما طلب المندوب السامي هنري دوبس من الملك فيصل حل المجلس حالا إذا لم يجتمع للمصادقة عليها، فاجتمع المجلس ليلا للنظر في الأمر، وتمت المصادقة على الوجه التالي: 37 موافقاً و24 معارضاً و8 ممتنعاً و31 غائباً.

وكانت الأعمال التي تنظر المجلس بعدئذ هي تشريع القانون الأساسي حيث أقر في 10 تموز 1924، وتشريع قانون انتخابات النواب غير المباشر. وفي اليوم نفسه انحل المجلس التأسيسي.

تم نشر القانون الأساسي ووضعه موضع التنفيذ في 21 آذار 1925 ، ثم عقد أول اجتماع لمجلس النواب حسب هذا القانون في 16 تموز 1925. والذي يبدو جليا أن تلك المعاهدة لم تكن حاسمة، وأن الحركة الوطنية أصبحت على أبواب دور جديد يرمي إلى الاحتفاظ بمنطقة الموصل جزءا من أرض العراق القومية.

مشكلة الموصل

نشأت مشكلة الموصل بعد الحرب العالمية الأولى كنتيجة لاندحار الدولة العثمانية وقيام الدولة العراقية، حيث أخذت تركيا الحديثة تطالب بها. فقد اشترطت معاهدة لوزان (1923) أن يتم تعيين الحدود التركية العراقية بالاتفاق بين بريطانيا وتركيا أولاً، فإذا لم يحصل الاتفاق على ذلك فإن القضية تعود إلى عصبة الأمم، فلما لم يحصل الاتفاق المطلوب وأعيدت القضية إلى العصبة أقر مجلسها بتاريخ 30 أيلول 1924 تعيين لجنة للنظر في الأمر. وقامت اللجنة بزيارة ولاية الموصل وأجرت استطلاعا تفصيليا، واستمعت إلى وجهات نظر الطرفين العراقي والتركي، وقدمت بعدئذ تقريرا مفصلاً في 16 تموز 1925. وكان رأي اللجنة أن تكون جميع المنطقة المتنازع عليها ضمن المملكة العراقية، على شرط أن تبقى تحت الانتداب البريطاني مدة (25) سنة.

ثم اتخذ المجلس بعدئذ قرارا بتأييد التقرير. وعلى أثر ذلك تم عقد معاهدتين الأولى بين العراق وبريطانيا في 13 كانون الثاني 1926 والثانية بين العراق وتركيا وبريطانيا في (5) حزيران 1926 حيث تضمنت علاقات حسن الجوار ونص فيها على اعتبار الحدود نهائية ولازمة.

ونظرًا للشرط المتخذ في المشكلة من لزوم تمديد أجل الانتداب، فقد صادق أول برلمان عراقي اجتمع في ظل القانون الأساسي على معاهدة 1926 بين العراق وبريطانيا على تلك المعاهدة التي كانت بمثابة تعديل للمعاهدة الأولى.

صادق البرلمان العراقي على المعاهدة في 18 كانون الثاني 1926 وكانت مادتها الثالثة تنص على إمكان النظر في دخول العراق عصبة الأمم بعد أربع سنوات.

الدور الوطني للأحزاب السياسية

تألفت في هذه الفترة عدة أحزاب سياسية، الهدف منها تسوية مشكلة الموصل والدعوة إلى استكمال الاستقلال، وهذه الأحزاب هي:

(1) حزب الأمة :

تأسس في 19 آب 1924 وأبرز قادته ناجي السويدي، وطالب بالإسراع في وضع دستور للبلاد وإجراء انتخابات نيابية.

(2) حزب الاستقلال الوطني :

تأسس في الموصل في أيلول 1925 ودعا إلى ضم ولاية الموصل إلى العراق. ولعب دورا مؤثرا عند وصول لجنة التحقيق التي أرسلتها عصبة الأمم لغرض الاطلاع على آراء سكان الموصل. وأصدر الحزب جريدة باسم (فتى العراق).

(3) جمعية الدفاع الوطني عن ولاية الموصل :

تأسست في 16 تشرين الثاني 1925 في الموصل بمساعدة حزب الاستقلال العراقي.

(4) الحزب الوطني العراقي بالموصل:

تأسس في الموصل في أوائل 1925. ودعا إلى الوحدة العراقية واستقلال العراق.

(5) حزب التقدم:

تأسس في تشرين الأول 1925 وكان رئيسه عبد المحسن السعدون، وتتلخص أهدافه في السعي إلى تطبيق المعاهدة العراقي – البريطانية وإجراء التعديلات عليها، والعمل على إدخال العراق عصبة الأمم. وأصدر الحزب جريدة (اللواء) ثم جريدة (التقدم).

(6) حزب الشعب:

تأسس في 20 تشرين الثاني 1925 ورئيسه ياسين الهاشمي. وغاية الحزب تأمين استقلال العراق، وتطوير القوى الوطنية، وإدخال العراق عصبة الأمم. وقد أصدر جريدة له باسم (نداء الشعب).

امتيازات النفط الأجنبية في العراق عام 1925

اتجهت أنظار الشركات الأجنبية للعراق، ففي سنة 1914 حصلت شركة النفط التركية المحدود – وهي شركة بريطانية ألمانية – على وعد شفوي بالتأسيس للتحري والتنقيب عن النفط. وبعد الحرب العالمية الأولى حلت فرنسا

بدلا من ألمانيا في الشركة حيث اعترفت بريطانيا لفرنسا بـ25٪ من النفط وذلك وفقا لما أقرته معاهدة سان ريمو سنة 1920، كما دخلت الحكومة الأمريكية طرفا في الشركة منذ عام 1928.

كان النفط من أهم المواضيع التي استغلت في قضية مستقبل ولاية الموصل والتهديد بضمها إلى تركيا، حيث أرادت بريطانيا أن تجعل من مشكلة الموصل تهديداً متواصلاً للعراق لكي تضطره إلى تسليم النفط إليها. وبعد مفاوضات جرت بين الحكومة العراقية وشركة النفط التركية وقع الطرفان في 14 آذار 1925 امتياز النفط حيث أصبح النفط مؤمناً للمصالح البريطانية والهولندية والفرنسية والأمريكية.

وكان هدف الحكومة العراقية من الإسراع في توقيع الامتياز هو تقرير مصير الموصل على أساس أن منح الامتياز يؤيد موقف العراق أمام الأتراك في المطالبة بهذه الولاية. ولقد واجهت المعارضة العراقية ذلك الامتياز بالرفض، واستقال وزيرا العدلية والمعارف رشيد عالي الكيلاني والشيخ محمد رضا الشبيبي من وزارة ياسين الهاشمي التي قبلت الامتياز، وطالبت الصحف العراقية بوجوب عقد المجلس النيابي لعرض الاتفاق عليه قبل البت فيه. ولكن الأمر انتهى، وجعلت مدة الاتفاقية (75) عاماً، وسمح للشركة القيام بأعمال التحري في معظم أراضي العراق عدا أجزا محدودة منها.

ثم بدأت الشركة أعمالها في الحال. وركزت في التنقيب على ولاية الموصل لا سيما المناطق الجنوبية منها. وفي 13 تشرين الأول سنة 1927 تدفق النفط بغزارة في منطقة بابا كركر قرب مدينة كركوك وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ العراق الاقتصادي. وفي 8 حزيران 1929 بدلت شركة النفط التركية اسمها إلى «شركة نفط العراق المحدودة»، وبدأت بتصدير النفط العراقي من عام 1934 عن طريق موانئ البحر المتوسط. وقد بلغ إنتاجها خلال ذلك العام حوالي ثلثي المليون طن.

النضال ضد الانتداب

اتضح باستمرار، منذ المعاهدة البريطانية الأولى، أن السياسة الوطنية كانت قد وضعت لها هدفا ثابتا ذلك هو نيل الاستقلال ودخول عصبة الأمم، ولم تهدأ المعارضة الوطنية حتى إبان مساومة بريطانيا للعراقيين على حسم قضية الموصل.

وأخذ العراقيون يعملون على إزالة الحكم المزدوج الذي تمتع فيه البريطانيون بمشاركة العراقيين في إدارة البلاد وكانت لهم في ذلك الأرجحية وظلت العناصر الوطنية تنظر إلى معاهدتي سنة 1922 وسنة 1926 على أنهما كبدتا العراق عبئاً ثقيلاً في قيودهما وشروطهما ومسؤولياتهما. لذلك جرت مفاوضات بين الحكومتين البريطانية والعراقية لتعديل الاتفاقيتين المالية والعسكرية. وكان يرأس الجانب العراقي في المفاوضات التي جرت في بغداد ولندن رئيس الوزراء جعفر العسكري،

كما سافر الملك فيصل إلى بريطانيا للإشراف بنفسه على سير تلك المفاوضات. وبعد سلسلة من المناقشات والاجتماعات التي تخللها تصادم الآراء، انتهى الأمر بالتوقيع على معاهدة جديدة تحل محل المعاهدتين السابقتين وذلك في 14 كانون الأول 1927.

جاءت معاهدة 1927 أقل بكثير مما كان يأمله الشعب العراقي؛ إذ أنها لم تأت بشيء جديد يستحق الذكر سوى وعد الحكومة البريطاني – في المادة الثامنة من المعاهد – بتأييد دخول العراق عصبة الأمم سنة 1932 بشرط (الاحتفاظ بمعدل التقدم الحاضر وسير الأمور سيرا حسنا خلال فترة الانتظار).

وعندما عرضت المعاهدة على مجلس الوزراء للتصديق على موادها قرر التحفظ عليها والإشارة إلى أن الحكومة العراقية لا تعترف بالمادة الثانية والعشرين من عمد عصبة الأمم عن الانتداب، ولا بأية صلة بينها وبين الحكومة البريطانية سوى صلة الصداقة المعبر عنها في المعاهدة الجديدة.

وعندما رغبت الحكومة العراقية في نشر بلاغ رسمي بهذا الصدد احتج المندوب السامي هنري دوبس على ذلك. فكان هذا سبباً لاستقالة وزيري المالية والداخلية ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني التي أعقبتها استقالة رئيس الوزراء جعفر العسكري في السابع من كانون الثاني سنة 1928،

وعندئذ قام عبد المحسن السعدون في 14 كانون الثاني 1928 بتأليف الوزارة، مشترطا لذلك حل المجلس النيابي من جهة، ووعد بتعديل الاتفاقيتين المالية والعسكرية على شكل يتآلف والمطالب الوطنية من جهة أخرى.

ولكن الحكومة البريطانية لم توافق على تعديل الاتفاقيتين المشار إليهما مما اضطر الوزارة السعدونية إلى الاستقالة في العشرين من كانون الثاني 1929. وعلى أثر ذلك أحجم ساسة البلد عن القيام بتأليف الوزارة طيلة ثلاثة أشهر، انتهت خلالها خدمة المندوب السامي وغادر العراق في أوائل شباط، ووصل خلفه السير جيلبرت كلايتون إلى بغداد في أوائل آذار. فكان لا بد من إبدال المعاهدة التي ظلت بدون مصادقة بأخرى أقرب منها إلى تمثيل وجهة النظر الوطنية. وعندئذ اجتاز الوضع السياسي في العراق أزمة شديدة من الشعور بالخيبة بلغت ذروتها خلال الفترة من كانون الثاني – نيسان 1929. ويمكن تلخيص الوضع في العراق في هذه المرحلة بكونه متمتعا بسيادة وطنية وكونه خاضعا للانتداب وتكون الوزارة مسئولة بحكم الدستور تجاه البرلمان ولكنها خاضعة لنفوذ المستشارين البريطانيين.

وفي 14 أيلول 1929 استلمت بغداد تصريحا بريطانيا تضمن سياسة بريطانيا الجديدة تجاه العراق حيث ورد فيه استعداد بريطانيا لتأييد ترشيح العراق للقبول في عضوية عصبة الأمم سنة 1932،

وأن الحكومة البريطانية ستبلغ مجلس العصبة بالتخلي عن مشروع معاهدة 1927 ورفع توصية بإدخال العراق في العصبة. وقد أعرب وكيل المندوب السامي السير روبرت بروك بوبهام، الذي خلف كلايتون بعد وفاته، عن رغبة حكومته في عقد معاهدة جديدة، والاستعداد لتنظيم العلاقة بين الطرفين عندما يصبح العراق عضواً في عصبة الأمم.

ثم أكفر الجو السياسي في العراق ما بين أواخر أيلول 1929 وأوائل آذار 1930 مما أدى إلى سقوط وزارتين عراقيتين، وحل المجلس النيابي بعد أن لم يكن قد أمضى دورته الاعتيادية أكثر من بضعة أشهر.

وعندما تشكلت وزارة عبد المحسن السعدون الرابعة في 19 أيلول 1929 أخفقت منذ أوائل عهدها في محاولة التوفيق بين الأماني الوطنية وموقف وكيل المندوب السامي الميجر يونك الذي لم ينفك عن اعتبار القول الفصل في العلاقات بين الطرفين إنما هو قول الجانب البريطاني.

تأزم الوضع بسبب إصرار بريطانيا على وجوب عقد المعاهدة الجديدة في صيغة لا تختلف بمضمونها كثيرا عن المعاهدات السابقة، وأخذت المعارضة الوطنية تتهم حكومة السعدون بالتراجع عن مطالب الشعب وصارت تضغط عليه بالمطالبة بإلغاء الانتداب وإنجاز الاستقلال غير المشروط.

وفي أثناء مناقشــة خطاب العرش في جلســة مجلس النواب في الثالث عشرــ من تشرــين الثاني 1929 شــنت المعارضــة على السـعدون حملة شـعواء واتهمته بعدم الإخلاص للقضية العراقية. وقد دافع عن سيا سته مو ضحا العقبات التي تتعرض ســير المفاوضــات ولكن يبدو أن الوضــع بلغ حدا كبيراً من اليأس، وبقيت تنازعه عوامل شــتى منها إخلاصــه لوطنه وحبه له وشــعوره بضــعفه وقوة المســتعمر الإنكليزي، مما جعله يقدم على الانتحار في مســاء 13 تشرــين الثاني 1929 تاركاً وصيته التي جاء فيها (الأمة تنتظر الخدمة والإنكليز لا يوافقون).

ثم ألف ناجي الســويدي وزارته في 18 تشرــين الثاني 1929 وكانت في إطارها العام مماثلة لســابقتها من حيث الأشــخاص والمنهج الوزاري، وسرعان ما نشــب الخلاف بينها وبين دار الاعتماد البريطاني. ولقد بلغ الخلاف مداه عندما أقرت الوزارة ضــمن ميزانية الدولة إنهاء خدمات خمســة مفتشــين إداريين بريطانيين، مما جعل المندوب الســامي يرفض القرار، فما كان من الوزارة إلا الاســتقالة بعد أن أصدرت بياناً للشعب شرحت فيه أسباب الاستقالة وظروفها.

فزاد ذلك من حدة المعارضة الوطنية، وقام الشعب العراقي بمظاهرات صاخبة محتجاً على تدخل المندوب السامي. وتأزمت العلاقات العراقية البريطانية، ودخلت في صراع لم ينهه إلا تشكيل وزارة جديدة برئاسة نوري السعيد الذي بدأ المفاوضات مع الجانب البريطاني في بغداد،

ولكن الصـحافة العراقية انتقدت سـير المفاوضـات السرـية تلك وتوقعت لها الفشـل. ثم ختمت المفاوضـات في الثلاثين من حزيران 1930 وتم التوقيع على المعاهدة في بغداد ولندن في 18 تموز سـنة 1930 . وقد ألف نوري السـعيد في 14 تشرـين الأول 1930 حزبا باسـم حزب العهد العراقي لتأييد سـياسـته، وأصـدر جريدة باسم «صدى العهد» أخذت تدعو للتفاهم مع الإنكليز.

كما أن ياسين الهاشمي ألف حزبا في 25 تشرين الثاني 1930 باسم حزب الإخاء الوطني وكون مع الحزب الوطني العراقي جبهة لمعارضـة سـياسـة نوري السـعيد والوقوف في وجه المعاهدة الجديدة.

معاهدة الاستقلال ودخول العراق عصبة الأمم

عرضـت المعاهدة بعد إبرامها على المجلس النيابي الذي جرى انتخابه مجدداً بعد أن حل المجلس السـابق للنظر في لائحة المعاهدة. وقد جوبهت المعاهدة من قبل المعارضة بالرفض، ولكن المجلس المنتخب وافق عليها بالتصويت وقبلها بالأغلبية، ثم عرضـت المعاهدة على مجلس الأعيان فوافق عليها أحد عشرـ عضـوا وخالفها خمسة أعضاء.

تألفت المعاهدة من إحدى عشرـة مادة مع ملخص للشـئون العسـكرية وملحق مالي وعدد من الرسائل الموضحة التي تبادلها الطرفان المفاوضان، كما ألحق بالمعاهدة اتفاقية قضائية وقع عليها في آذار سنة 1931

وحلت محل سـابقتها التي كانت ملحقة بمعاهدة سـنة 1922 وضـمنت للبريطانيين بضعة مناصب خطيرة في ميدان القضاء العراقي.

ولما ذاعت محتويات هذه المعاهدة المعقدة تناولها ساسـة العراق وصحافته بالنقد والتجريح، إذ اعتبرتها حكما انتدابياً مقنعاً، وفيها شروط لا تتفق مع الاسـتقلال، لأن العراق أصبح بموجبها مقيداً بالنفوذ والمصالح البريطانية إلى حد بعيد.

أما الملك ورئيس الوزراء فقد رأيا فيها خطوة أولى موفقة خطت بالعراق إلى الاستقلال التام مع حفظ بعض المصالح البريطانية.

وفي 3 تشرين الأول سنة 1932 قرر مجلس عصبة الأمم «أن المعلومات المتوفرة لدى اللجنة تسوغ الاعتقاد أن للعراق اليوم حكومة مستقرة وإدارة قادرة على تسيير شـؤون الحكومة الجوهرية بصـورة منتظمة. وإن في اسـتطاعته المحافظة على الأمن العام في القطر كله. ولديه مصـادر مالية وافية لسـد حاجات الحكومة الاعتيادية بصـورة منظمة وله قوانين ونظام قضـائي مما يضـمن العدل المطرد للجميع على السـواء» وبعد المذاكرة بين أعضـاء المجلس أقر بإجماع الآراء قبول العراق عضـوا في العصـبة. وأصـبح العراق الدولة السـابعة والخمسـين من أعضـاء العصـبة. وانتهت عندئذ مهام المعتمد السامي وحل بدله السفير البريطاني لتمثيل دولته.

من عهد الانتداب للمعهد الوطني الشكلي

وفاة الملك فيصل الأول وتولي ابنه غازي العرش

أيدت الحكومة البريطانية تنصيب فيصل الأول ملكاً على العراق فلما ولي العرش، برهن على أنه رجل دولة مقتدر وسياسي ذكي وماهر، استطاع أن يتحرك بهدوء وحذر لكسب ثقة وتأييد الشعب العراقي وفي نفس الوقت كان عليه أن يماشي السياسة البريطانية ويساير المعتمد السامي البريطاني. وقد اعتمد على مبدأ (خذ وطالب) في تعامله مع الإنكليز، ووطد علاقاته مع مختلف القوى والحركات السياسية والاجتماعية في العراق بما فيها القوى الوطنية المعارضة، فكان يتقرب من فئة سياسية لينال تنازلات من الفئة المناوئة الأخرى. وكانت غايته التقليل من النفوذ البريطاني دون إثارة حفيظتهم عليه والتي قد تؤدي إلى خلعه من العرش (كما خلعه الفرنسيون من عرش سوريا عام 1920).

نجح الملك فيصل بذكائه وكياسته في أن يكون نقطة الالتقاء ومركز الثقل لجميع القوى والمصالح السياسية والاجتماعية، وأن يكون الموجه والموازن لحركتها. وقد استعمل نفوذه من أجل تقليل الاحتكاك والتصادم بين الأطراف المتنازعة والمتنافسة، إلا أن – قبل وفاته بفترة قليلة أي في شهر تموز 1933 – قامت مجموعة من الثوريين المرتبطين بالحكومة البريطانية بتمرد ضد الحكومة في شمالي الوطن عندما كان الملك في لندن.

وقد قام الجيش العراقي بقيادة بكر صدقي بقمع التمرد بعنف و شدة وبتأييد من الأمير غازي (نائب الملك) ورئيس الوزراء رشـيد عالي الكيلاني ووزير الداخلية حكمت سليمان. وقد أرسل الملك فيصل برقيات إلى المسؤولين يطالبهم بها بالتعامل باللين والتحلي بالصبر، إلا أن توصياته لم تلق استجابة لأن الجماهير اعتبرت عمليات الجيش تعزيزا لحرصه على الاستقلال والمنعة و قد حظى الأمير غازي والعقيد بكر صدقي بحب الشعب العراقي وتقديره. وكانت هذه الحادثة مفتاحًا لتدخل الجيش العراقي في أمور السياسة مستقبلاً لما لاقاه من تأييد وإعجاب وتشجيع لدوره في قمع التمرد المدعوم من قبل بريطانيا.

وفي الأول من آب 1933 وبعد القضاء على التمرد عاد الملك فيصل الأول إلى العراق لتصفية الجو المتأزم بين الحكومة العراقية والحكومة البريطانية، ثم سافر إلى سويسرا لغرض المعالجة الطبية وفي السابع من أيلول عام 1933 توفي هناك وبوفاته ترك فراغاً كبيراً كان له أبلغ الأثر على مستقبل العراق عامة ومستقبل العائلة الهاشمية الحاكمة بصورة أخص.

وفي اليوم التالي لوفاة الملك فيصل الأول توج ابنه الوحيد غازي ملكاً على العراق.

لقد كان غازي – عند تتويجه – شابًا يافعاً قليل الخبرة. وفي خلال السنين الأولى من فترة حكمه – بصـورة خاصـة – ترك إدارة شـؤون البلاد إلى مجلس الوزراء ورجال الطبقة الحاكمة والذين كانوا يتنافسـون على السـلطة ويحاولون إرضـاء السفارة البريطانية.

انتهى بوفاة الملك فيصـل دور البلاط الملكي كمركز للثقل السـياسي والمحرك الأساسي لسياسة العراق الخارجية والداخلية ولم يعد بمقدور الملك الشاب الموازنة بين القوى والمصالح الوطنية وبين السفارة البريطانية والقوى السياسية والاجتماعية الموالية لها، لذا شـهدت فترة حكمه بين (1933-1939) اضـطرابات وانتفاضـات عشائرية كثيرة وانقلابات عسكرية متعددة أدت إلى دخول الجيش معترك السياسة وفرض سيطرته على الحياة السياسية في العراق عدة مرات.

الأحزاب والتجمعات السياسية

وفي الثلاثينيات لعبت الأحزاب والتجمعات دورًا كبيراً في تسيير الحياة السياسية في البلاد، وزادت في بلورة الخلافات وزيادة حدة التوتر والتنافس، وكانت سياسـة معظم هذه الأحزاب تتركز على تحديد موقف كل مجموعة من الوجود البريطاني في العراق (خلال فترتي الانتداب والاستقلال) ويمكن تقسيم هذه الأحزاب والقوى السياسية إلى ثلاث مجاميع رئيسية، هي:

1. المجموعة المؤيدة لبريطانيا وكان بعض أعضائها يعتقدون بأن العراق ما يزال بلدًا فتياً وضعيفاً ويحتاج إلى معونة بريطانيا «العظمى» وإشرافها لكي ينمو ويتطور إلى دولة مستقلة حديثة ولم تكن لهذه الفئة من السياسيين عقيدة سياسية ثابتة أو موحدة تربطها سوى اتفاق أفرادها على مبدأ التعاون مع بريطانيا وخدمة مصالحها الاستعمارية، وكانت الأحزاب التي تمثل هذه المجموعة هي حزب العهد، وحزب التقدم وحزب الأمة الاشتراكي وحزب الأمة الدستوري. أما الفئة الثانية فكانت ترى أن بريطانيا تفرض سيطرتها على العراق وتمارس توجيه السياسة العراقية وفقا لمصلحتها ورغبتها لذا فإن الساسة العراقيين مضطرون إلى الاعتراف بالنفوذ البريطاني والتعاون معه وإرضاء الحكومة البريطانية من أجل الحصول على أوسع التنازلات لتحقيق استقلال العراق وإكمال سيادته في المستقبل وكان الملك فيصل الأول مؤمنا بهذه السياسة ويتبعه رجال كثيرون.

2. المجموعة الوطنية المعارضة لنظام الحكم الملكي ورجاله، وقد وقف أعضاؤها موقفاً صلباً ضد النفوذ البريطاني وعملوا جاهدين على إزالته وحصول العراق على الاستقلال التام. وقد ناضلوا لتحقيق أهدافهم رغم المحاولات التي جرت لإسكات أصواتهم بالقوة والعنف مرة أو الاسترضاء مرة أخرى وقد فشلت المساعي للقضاء على هذه المجموعة لصلابة إيمان أعضائها. وبالرغم من قلة عددهم وضعف تنظيمهم وشحة إمكانياتهم، ورغم المحاولات المستمرة لتعطيل صحفهم

وغلق مقرات أحزابهم ونواديهم، فقد نجحوا في خلق رأي عام وطني مناهض للوجود الاستعماري، ومطالب بالاستقلال والحرية والحياة الحرة الكريمة وعبروا عن طموحات الشعب الذي كان يعاني من التخلف السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لذا فقد تمتعت المعارضة الوطنية بتأييد شعبي واسع جدا.

3. مجموعة «المعارضة الشكلية» أو «المؤقتة داخل نظام الحكم» وكانت تقف متوسطة بين المجموعتين الأولى والثانية، وتعارض الوجود البريطاني والمعاهدات العراقية – البريطانية عندما تكون خارج الحكم ولكنها عندما تدعى لتأليف الوزارة أو المشاركة فيها تصبح جزءا من النظام السياسي الذي كان تعارضه.

استغلال العشائر في الصراع على السلطة

في غياب السلطة المركزية بسبب ضعف الملك وفي غياب الممارسات الديمقراطية الحقة وغياب الفرص الحقيقية أمام الأحزاب والتجمعات والشخصيات السياسية من أجل القيام بدورها وتحقيق أهدافها وغاياتها اضطرت معظم الأحزاب والمجموعات السياسية إلى التحالف مع فئات غير سياسية (كالعشائر والجيش) وتملك قوة السلاح والأفراد من أجل مساعدتها للوصول إلى الحكم، وقد شهدت هذه الحقبة العديد من التمردات العشائرية، كما شهدت العديد من الانقلابات العسكرية التي أدت إلى إسقاط الحكومة القائمة وتبديلها بحكومة أخرى تخدم مصالح جماعة الانقلاب.

وفي عامي 1934-1935 تحالفت بعض القوى السياسية من أمثال ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وحكمت سليمان مع البعض من رؤساء عشائر الفرات الأوسط أمثال عبد الواحد الحاج سكر وعلوان الياسري ومحسن أبو طبيخ للقيام بحركة مسلحة ضد حكومتي علي جودت الأيوبي وجميل المدفعي أدى إلى إسقاطهما واضطر الملك إلى تكليف ياسين الهاشمي بتأليف الوزارة وإنهاء الحركة.

وفي مايس عام 1936 قامت بعض العشائر في الفرات الأوسط وجنوبي العراق بحركة أخرى ضد حكومة ياسين الهاشمي وبتشجيع من بعض الساسة المناوئين لحكومة ياسين الهاشمي. فأصدرت الحكومة أوامرها إلى الفريق بكر صدقي بالتحرك والقضاء على تحرك رجال العشائر فتوجه على رأس قوة عسكرية و سحق التحرك بعنف. وقد خلقت هذه القسوة، واستخدام الجيش في القضاء على حركات عشائرية محلية رد فعل قوي بين أوساط الجيش والشعب وكان الاستياء موجهًا إلى ياسين الهاشمي.

ولقد استغلت المعارضة (حكمت سليمان وجماعة الأهالي) هذه الحادثة للتشهير بحكومة الهاشمي وإضعافها كما أنها دفعت حكمت سليمان للاتصال ببكر صدقي للعمل بصورة جدية من أجل إسقاط حكومة ياسين الهاشمي.

الانقلاب العسكري الأول (انقلاب بكر صدقي)

كان يبدو ظاهريًا وكأن حكومة ياسين الهاشمي قد أحكمت سيطرتها على مقاليد الأمور في العراق وأنها في وضع مستقر خاصة وأنها تحالفت مع مجموعة نوري السعيد وجعفر العسكري وكانت لها علاقات جيدة مع قادة الجيش العراقي وضباطه (وكان طه الهاشمي شقيق ياسين رئيسًا لأركان الجيش)، كما أن حكومة الهاشمي عمدت إلى إسكات أصوات المعارضة وحلت الأحزاب السياسية وطاردت عدداً من العناصر المناوئة وأغلقت العديد من الصحف، كما التزمت العشائر الهدوء. وقد كسبت حكومة الهاشمي تأييداً واسعاً على الصعيد العربي حين تبنت سياسة ذات إطار عربي قومي، وساعدت حركات التحرر العربي وخاصة سوريا وفلسطين وأصبح العراق مركزاً نشطاً للمناضلين العرب. وقد مدت حكومة الهاشمي الثوار العرب بالمال والسلاح، وأرسلت ضباطا عراقيين (بصورة سرية) لتدريبهم.

إلا أن حكمت سليمان سئم من بقائه خارج الحكم، وكانت تربطه علاقة صداقة وثيقة بالفريق بكر صدقي فاتفقا على الإطاحة بحكومة ياسين الهاشمي عن طريق انقلاب عسكري تقوده القطاعات العسكرية المعسكرة في جلولاء والتي هي بإمرة الفريق بكر صدقي ووعده حكمت سليمان بإسناد جماعة الأهالي وأن يضمن له التأييد الشعبي.

وقبل أســبوع وا حد من قيام انقلاب 29 تشرــين أول 1936 أعلم حكمت سليمان أعضاء الهيئة المؤسسة لجمعية الإصلاح الشعبي بأن ضباط الجيش بقيادة الفريق بكر صــدقي قد قرروا القيام بانقلاب عســكري للإطاحة بحكومة ياســين الهاشــمي، وأن بكر صــدقي أرســله إليهم طالباً تأييدهم ودعمهم فإن وافقوا فإنهم سيشاركون في الحكم بعد نجاح الانقلاب وإن رفضوا فإن قادة الجيش سيتصلون بجماعة سياسية أخرى لتشاركهم في الانقلاب. فقرر أعضاء الجمعية تأييد الانقلاب ضــمن شروط محددة أهمها أن يرجع الجيش إلى ثكناته بعد نجاح الانقلاب وأن يكون منهاج الحكومة الجديدة مبنيا على مبادئ جمعية الإصلاح الشعبي. وقد وافق بكر صدقي على شروط الجمعية، وأعطاهم حق اختيار أعضاء الوزارة (ما عدا وزير الدفاع الذي ترك اختياره لنفسه).

في الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم 29 تشرين الأول 1936 قامت عدة طائرات من ســلاح القوة الجوية العراقية بإلقاء مناشــير فوق مدينة بغداد تعلن للشــعب العراقي قيام الجيش بانقلاب عســكري لتغيير حكومة ياســين الهاشــمي بحكومة أخرى (تخدم المصــلحة الوطنية وتعمل من أجل إســعاد الشــعب» ودعت الجماهير إلى مساندة الانقلاب ودعمه

وقد وقع البيان الفريق بكر صدقي «قائد القوات الوطنية الإصلاحية» (كما سمى نفسه) وكان من المتفق عليه أن يكون إلقاء المناشير بمثابة ساعة الصفر لتنفيذ الانقلاب فتوجه حكمت سليمان إلى القصر (البلاط) الملكي وقدم ر سالة إلى الملك موقعة من الفريق بكر صدقي وعبد اللطيف نوري (قائد الفرقة الأولى) يطلبان فيها تنحية ياسين الهاشمي عن الحكم وتشكيل وزارة وطنية من الشعب يرأسها حكمت سليمان.

وفي حوالي الساعة 11.30 صباحاً قامت طائرات أخرى بإلقاء عدة قنابل على مبنى الحكومة (القشلة) إشعاراً للملك والحكومة بجدية الحركة وإنذاراً أخيراً لتحقيق مطالب الجيش الذي كان قد أخذ يتقدم نحو بغداد وعلى أثر ذلك عقد الملك غازي اجتماعاً طارئاً حضره كل من ياسين الهاشمي ونوري السعيد وجعفر العسكري كما حضره السفير البريطاني في بغداد. وبعد مناقشات طويلة رضخ الحاضرون لمشيئة الانقلاب، ووافق الها شمي على تقديم ا ستقالته، وتقرر أن يكلف حكمت سليمان بتشكيل الوزارة الجديدة وتبرع جعفر العسكري (وزير الدفاع) بالتوجه إلى طريق بعقوبة لملاقاة الجيش وإقناع القوة المتقدمة بالرجوع إلى معسكراتها. ولما علم بكر صدقي بمجيء جعفر العسكري لملاقاته قرر قتله في الحال. فقتل رمياً بالرصاص قرب خان بني سعد واستمر الجيش في تقدمه نحو بغداد فوصلها الساعة الرابعة عصراً ودخلها دخول المنتصرين. وفي الساعة السادسة مساء في نفس اليوم أعلن عن تشكيل حكومة الانقلاب برئاسة حكمت سليمان، وكان جل أعضائها من جمعية الإصلاح الشعبي.

حكومة الانقلاب

كان من المهام الأولى لحكومة الانقلاب هو إعادة الأوضــاع الطبيعية إلى البلاد وتهدئة قلق الســفارة البريطانية التي فوجئت بقيام الانقلاب. وقد ســارع حكمت سليمان إلى الاتصال بالسفير البريطاني وعمل جهده لكسب ثقة السفير وأكد له بأنه لن يكون هناك تغير جوهري في ســياســة العراق، ووعد برجوع الجيش إلى ثكناته وأعلمه أن بكر صـــدقي لا يطمح في أن يكون غير رئيس لأركان الجيش وأنه لن يتدخل في السياسة.

ثم قامت الحكومة الجديدة بإعفاء المسـؤولين من جماعة الحكومة السـابقة وتعيين عناصر جديدة مؤيدة لها، ونظمت العناصر اليســارية والأقليات مظاهرات واسـعة في بغداد تأييداً للانقلاب العســكري الذي كان الأول من نوعه في العراق والوطن العربي.

لم تمض فترة طويلة حتى دب الخلاف بين الوزراء من (أعضــاء جمعية الإصــلاح الشعبي) من جهة وبين بكر صدقي وأعوانه من الضباط من جهة أخرى. فقد أخذ بكر صــدقي يتدخل في تسـيير أمور الدولة ويفرض رأيه على المســؤولين، ويصــدر الأوامر دون الرجوع إلى مجلس الوزراء والوزير المختص، وقـد حـاول حكمـت سليمان لفترة طويلة تخفيف حدة الخلاف وتقريب وجهات النظر بوقوفه طرفاً وسطاً بين الجماعتين المتنازعتين، ولكنه فشل في مسعاه؛

لأن بكر صـدقي كانت قد استهوته السـلطة فازداد إصراراً على ممارسـة نفوذه في شــؤون البلاد، فتدخل في الانتخابات، وحدد حرية العمل الســياسي، ومارس عمليات الاغتيال السـياسي لعدد من مناوئيه، فتأزم الوضـع وزادت حدة الخلاف، ووقف حكمـت ســليمان إلى جانـب بكر صــــدقي متنكرا لجماعته فقـدم الوزراء الإصـلاحيون اسـتقالتهم في 19 حزيران 1939 . وبانسـحابهم من الحكم خسر ـت حكومة حكمت سليمان تأييد جميع الفئات السيا سية المتواجدة في الساحة العراقية، وفقدت أي تأييد شعبي وأصبحت ألعوبة بيد بكر صدقي وجماعته.

وقد شــعرت العناصر القومية داخل الجيش وخارجه بضر ــورة توحيد الجهود لإســقاط الحكومة، حيث أن ســياســة هذه الحكومة كانت قد ابتعدت عن الخط القومي، وأهملت القيام بالمهمات القومية الملقاة على عاتقها وازدادت تقريبًا إلى تركيا وإيران.

بالإضــافة إلى ذلك فإن الحكومة عملت على إبعاد العناصر القومية والوطنية في الجيش وأضعفت دور الجيش في الساحة القومية. وقد تبلورت سيا سة الحكومة في عقد ميثاق سـعد آباد بين العراق وإيران وتركيا وفي عقد معاهدة الحدود بين العراق وإيران عام 1937 .

معاهدة 1937 بين العراق وإيران

ظهرت الأطماع الإيرانية في العراق مجدداً بتسـلـيم رضــا بهلوي لمقاليد الحكم في إيران عام 1921. وما إن اسـتقر في الحكم حتى احتل عربسـتان عام 1925، وأخذ بعدها يطالب بحقوق وامتيازات جديدة في شـطر العرب، وكان توقيت تقديم المطالب يتزامن مع شعور الشاة بالقوة من جهة ومعرفته بضعف الحكومة العراقية وازدياد مشاكلها من جهة أخرى.

ففي عام 1934 شـعر رضـا بهلوي بضـعف حكومة جميل المدفعي فطالبت الحكومة الإيرانية بإعادة تثبيت الحدود العراقية – الإيرانية – مجددا وادعت بأن «اتفاقية الآسـتانة» المعقودة عام 1913 والتي ثبتت الحدود بين البلدين كانت قد عقدت تحت «ظروف اسـتثنائية»، فكان رد العراق بأنه يوافق على الرجوع إلى المعاهدة التي سـبقت اتفاقية الآسـتانة، وفي نفس الوقت فإنه يوافق على عرض الموضوع على محكمة العدل الدولية، وأنه سوف يقبل بالقرار الذي تصدره المحكمة. وعند استلام ياسين الهاشـمي رئاسـة الوزارة عام 1935 ذهب نوري السعيد إلى إيران في محاولة لتسوية النزاعات القائمة بين البلدين..

وقد طلب الشاه عند مقابلته لنوري السعيد تنازل العراق عن ثلاثة كيلو مترات من شط العرب لكي تتمكن البواخر الإيرانية من استخدامها في الملاحة والرسو في ميناء عبادان، ولكن وزارة الهاشمي التي كانت تشعر بالقوة رفضت الطلب واتخذت القرار الآتي:

«إن القانون الأساسي العراقي لا يجيز التنازل عن أي شبر من أرض العراق ولهذا فلا يمكن إجابة طلب الشاه، إلا أنه من الجهة الثانية يوافق على إعطائه المسافة المذكورة عن طريق الإيجار، بشرط أن تجيب إيران مطالب العراق المشروعة في بقية القضايا المختلف عليها».

وفي منتصف عام 1937 استغلت الحكومة الإيرانية ضعف الحكومة العراقية وتخلخل موقفها الداخلي بسبب سلوكية بكر صدقي وانفراديته في السلطة وفقدان حكومة حكمت سليمان للتأييد الشعبي على الصعيدين المحلي والعربي فأخذت إيران تطالب مجددا بتنازلات من العراق عن حقه وسيادته في شط العرب، كما أن تطور الأحداث على الساحة الدولية ساعد في دفع الحكومة البريطانية لخلق تحالفات إقليمية وحل المشاكل القائمة من أجل استقرار المنطقة بضمان مصالحها السياسية والاقتصادية أمام توسع نفوذ ألمانيا النازية.

لذلك فقد عقدت حكومة حكمت سـليمان، معاهدة الحدود بين العراق وإيران في 4 تموز 1937، تنازلت بموجبها إلى إيران عن جزء من شط العرب مقابل عبادان بحيث يمر خط الحدود بمجرى المياه العميق لمسـافة يقرب طولها من 7.75 كيلو مترا وتم اعتراف إيران بالحدود بين البلدين. وقد قامت مظاهرة في بغداد والبصرة عند تصديق المعاهدة في آذار 1938.

تكرار الانقلابات العسكرية بين 1937-1941

جرت محاولات عديدة لاغتيال بكر صدقي من جهات سياسية مختلفة، ونجحت هذه المحاولات عندما كان بكر صـدقي في الموصـل في طريقه إلى تركيا لحضـوره مناورات عسكرية يقوم فيها الجيش التركي.

وبغياب بكر صـدقي عن مركز القوة بقي حكمت سـليمان وحيداً في المسرح السياسي لا يجد من يدعمه، فاضطر إلى تقديم الاستقالة والتنحي عن الحكم.

ترك بكر صـدقي بعد مقتله ظاهرتين أصـبحتا تقليداً مألوفاً في الحياة السياسية العراقية، الأولى هي الانقلابات العسكرية لإسقاط الحكومة القائمة وتنصيب وزارة جديدة موالية لمجموعة الانقلاب، والثانية هي ظاهرة الاغتيال السياسي.

فبعد اســتقالة حكمت ســليمان كلف الملك غازي جميل المدفعي بتأليف الوزارة الجديدة من أجل إعادة الأوضـاع الطبيعية إلى العراق بعد أن عانى الشـعب العراقي من الفترات القلقة في ظل حكومة الانقلاب الســابقة، وقد وافق جميل المدفعي على تأليف الوزارة بعد أن أخذ عهداً من قادة الجيش ورجال السـياسـة بعدم زج الجيش في الحياة العامة وبتأييد سـياسـة حكومته التي سـتقوم على مبدأ نسـيان أحقاد الماضي والتي سـميت بسـياسـة «إسـدال السـتار» وفعلاً حاول جميل المدفعي تجاوز المرحلة السـابقة التي اتسـمت بالعنف والاضـطراب وانتهج سـياسـة محايدة ومسـالمة تجاه الأطراف السياسية المختلفة ولم يحاول أن يقتص حتى من جماعة بكر صدقي. إلا أن العناصر العسـكرية والمدنية التي كانت تعمل على الإحاطة ببكر صـدقي وأسـقطت حكومة حكمت سـليمان ضـاق صـدرها من هذه السـياسـة وتحرك السـاسـة (وعلى رأسـهم نوري السـعيد ورشـيد عالي الكيلاني) وأخذوا يهاجمون سـاسـة الحكومة في العلن وفي السر، واتصـلوا بقادة الجيش وقدموا لهم الوعود بتنفيذ سـياسـة وطنية قومية تخدم الوطن والأمة في حالة دعم الجيش لهم لتسـلم مقاليد الحكم. وقد نجح نوري السعيد أكثر من أقرانه في كسب تأييدهم فوضعوا قواتهم تحت أهبة الاستعداد للتحرك نحو بغداد فاضـطر المدفعي لتقديم اسـتقالته فكلف الملك نوري السـعيد بتشكيل الوزارة في 25 تشرين الأول 1938.

وقد استمر دعم الضباط لنوري السعيد إلى حين اشتعال لهيب الحرب العالمية الثانية في نهاية عام 1939 وبداية عام 1940 حيث كشفت الأحداث الداخلية والعربية والعالمية اندفاع نوري في تأييد السياسة البريطانية فتوقف دعم القادة العسكريين له وأخذوا يساندون منافسه رشيد عالي الكيلاني الذي أخذ يتقرب إليهم ويعمل على كسب تأييدهم معلنًا أنه يسعى لخدمة أماني وطموحات الأمة العربية والوقوف على الحياد بين المعسكرين المتحاربين (الحلفاء والمحور).

مقتل الملك غازي

كانت الأحداث المثيرة التي رافقت حكم الملك غازي قد دفعته إلى زيادة اهتمامه يومًا بعد يوم بالأمور السياسية خاصة بعد انقلاب بكر صدقي عام 1936، وقد عزز الملك علاقته بقادة الجيش وعدد من صغار الضباط وتأثر بأفكارهم الوطنية والقومية ووقع تحت تأثيرهم فأ سس إذاعة خا صة عام 1938 وكان يذيع بنفسه فيندد بالا ستعمار الفرنسي لسوريا ويهاجم المخططات الصهيونية ضد فلسطين العربية، كما أخذ يطالب بضم الكويت إلى العراق والتي كانت تسيطر عليها بريطانيا.

وقد أثارت خطبه هذه الشعور القومي والوطني في نفوس أبناء العراق والأمة العربية فظفر بحبهم وتأييدهم.. كما أنه أخذ يستقطب العناصر القومية العسكرية والمدنية التي أصبحت تشكل خطراً واضحاً على المصالح البريطانية، خاصة وأن بوادر الحرب العالمية الثانية قد أخذت تظهر في الأفق، وبدأت ألمانيا النازية تتحرك وتدعم جميع الحركات المعادية لدول الحلفاء (بريطانيا وفرنسا). وأخذت بريطانيا وفرنسا تعلنان بأن كل من يقف ضد سياساتهما الاستعمارية – أي جميع حركات التحرر – إنما يخدم مصالح ألمانيا النازية ويقف في خندقها.. وكان نوري السعيد يكن كرها شخصيا للملك غازي.

وفي ليلة 3 نيسان 1939 أعلن عن مصرع الملك غازي بحادث اصطدام سيارة كان يقودها بنفسه، وهذا الحادث وقع في ظروف غامضة، وقال ناجي شوكت وزير الداخلية آنذاك «بأن موت الملك غازي جاء نتيجة لعبة قذرة كان وراءها نوري السعيد».

وقد قامت مظاهرات ومسيرات صاخبة في جميع أنحاء العراق معلنة حزنها على الملك ومتهمة الحكومة البريطانية ونوري السعيد بمقتله، وهاجمت جموع غاضبة من أهل الموصل مقر القنصلية البريطانية، وقتل القنصل البريطاني أثر هذا الهجوم.

وقد كان مقتل غازي أحد العوامل الأساسية التي عملت على إضعاف النظام الملكي وانهياره. في نفس الليلة اجتمع مجلس الوزراء وقرر تنصيب ابنه الوحيد فيصل (الثاني) ملكا على العراق، وكان يبلغ الرابعة من العمر ونصب خاله الأمير عبد الإله وصياً على عرش العراق لحين بلوغ الملك فيصل الثاني سن الرشد. وكان عبد الإله شاباً قلقاً قليل الخبرة والذكاء يفتقد الكثير من صفات القيادة والمسؤولية، ولذلك وقع فريسة سهلة بأيدي المؤيدين لبريطانيا ونوري السعيد فكان يؤيدهم وينفذ مطالبهم.

العراق والحرب العالمية الثانية

أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا يوم 3 أيلول 1939 فأسرعت حكومة نوري السعيد إلى قطع العلاقات مع ألمانيا وأصدرت أمرها بطرد أعضاء السفارة الألمانية من بغداد،

واعتقال الرعايا الألمان، ثم سلمتهم إلى الحكومة الهندية واقترح رئيس الوزراء إعلان العراق الحرب على ألمانيا وتقديم فرقتين عسكريتين للمشاركة في الحرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) في حربها ضد دول المحور (ألمانيا وإيطاليا).

لقد كان لتسرع نوري السعيد في قطع العلاقات مع ألمانيا ووضع موارد وإمكانيات العراق لمساعدة بريطانيا ثم محاولته إشراك العراق في القتال رد فعل قوي بين أوساط الجيش والشعب بصورة عامة وبين الأوساط القومية بصورة خاصة.

خاصة وأن بريطانيا وفرنسا كانتا تحظيان بكراهية شديدة من أبناء الشعب العراقي بسبب سياستها الاستعمارية ضد الشعب العربي، كذلك فإن الشعب في العراق كان يناضل من أجل التخلص من قيود معاهدة 1930 التي تمس سيادته واستقلاله. وكانت ألمانيا النازية توحي بالسر والعلن بأنها تقف مع الشعب العربي في نضاله ضد الاستعمار الفرنسي والبريطاني وتعلن عداءها لليهود. وأحرزت ألمانيا في السنة الأولى من الحرب انتصارات باهرة وبدت قوة الحلفاء وكأنها قد شارفت على الانهيار وقد انعكس هذا التطور على الوضع السياسي في العراق فانتظمت مختلف الفئات والقوى السياسية العراقية في معسكرين متضادين دخلا في صراع مفتوح للسيطرة على مقاليد الأمور. وكان المعسكر الأول يضم المجموعة الموالية البريطانية والمؤيدة للحلفاء وكان منها عدد من رجال الطبقة الحاكمة والإقطاعيين والبرجوازيين ورؤساء العشائر ويرأس هذه المجموعة نوري السعيد.

أما المعسكر الثاني وهو الأكثر شعبية فهو المجموعة الوطنية والقومية المناوئة لبريطانيا والحلفاء (وضمنيا تعتبر أقرب في تأييدها لدول المحور لمعاداتها للاستعمارين الفرنسي والبريطاني).

وقد طالبت هذه المجموعة بالوقوف موقف الحياد بين الأطراف الدولية المتنازعة، ودعت إلى تطبيق بنود المعاهدات والمواثيق التي يرتبط بها العراق باعتدال دون الاندفاع بالوقوف إلى جانب بريطانيا في حربها مع المحور، كما رأت وجوب استغلال فرصة الحرب للتساوم مع بريطانيا وفرنسا من أجل الحصول على تنازلات لتحقيق استقلال الأقطار العربية، وضمان حق الشعب العربي الفلسطيني، وضمان تسليح الجيش العراقي بأسلحة حديثة، والحصول على مكاسب اقتصادية لتطوير الأوضاع الاقتصادية في القطر. وكان يقود هذا المعسكر عدد من قادة الجيش وقادة بعض الأحزاب، وانضم إلى هذه المجموعة عدد من رجال السياسة من أمثال رشيد عالي الكيلاني، وناجي شوكت وناجي السويدي، كما حصلوا على دعم بعض الشخصيات العربية المناضلة من أمثال الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وفوزي القاوقجي. وقد حصلت هذه المجموعة على تأييد واسع من قبل جماهير الشعب العراقي عامة وفي صفوف الجيش خاصة، وبدا واضحا منذ بداية عام 1940 أن صدامًا عنيفًا سيحدث في المستقبل بين هذين المعسكرين وأن احتمال التعايش بين الفريقين المتناحرين أصبح ضعيفا في ظل الظروف القلقة والتطورات السريعة وفي اتساع رقعة الحرب العالمية الثانية.

ثورة مايس 1941 التحررية

نجح رشيد عالي الكيلاني في كسب تأييد قادة الجيش (العقداء الأربعة) والعناصر القومية بسبب تمسكه بمبدأ الحياد بين الأطراف الدولية المتنازعة. وسحب قادة الجيش تأييدهم لنوري السعيد حين أعلن وقوفه بصراحة إلى جانب بريطانيا والحلفاء وضد دول المحور، لذا فقد شكل الكيلاني حكومة الائتلاف الوطني في 31 آذار 1940 واشترك نوري السعيد فيها كوزير للخارجية ليضمن بذلك استمرارية السياسة الخارجية الموالية لبريطانيا. ولما انهارت فرنسا أمام زحف القوات الألمانية ودخلت إيطاليا الحرب ضد الحلفاء، وشعرت بريطانيا بتأزم الأوضاع السياسية وحراجة الموقف في الشرق الأوسط عامة والعراق بصورة أخص. لذا طلب السفير البريطاني في بغداد من الحكومة العراقية قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا، بعد أن قطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع ألمانيا النازية في بداية إعلان الحرب عام 1939 وقد أيد الوصي عبد الإله ونوري السعيد طلب الحكومة البريطانية وعارضه رشيد عالي الكيلاني وناجي شوكت ومن ورائهم العقداء الأربعة والعناصر الوطنية والقومية. وقد كانت هذه الأزمة بداية لأزمات سياسية عديدة أدت في النهاية إلى نشوب الحرب العراقية البريطانية في مايس 1941.

أخذت الحكومة البريطانية موقفًا سلبيًا واضحًا من حكومة الكيلاني وأخذت تضغط على الوصي عبد الإله لإقالة وزارة الكيلاني وتعيين وزارة موالية لسياستها لتضمن مصالحها في تلك الفترة الحرجة من الحرب العالمية الثانية.

وقد ازدادت شكوك بريطانيا ومخاوفها عندما بلغها وجود اتصالات سرية بين حكومة العراق وبين دول المحور، وكانت بريطانيا تخاف الشعور الوطني والقومي المتنامي في أوساط الجيش والشعب والذي أخذ يهدد مستقبل المصالح الاستعمارية والذي كان يدعم موقف حكومة الكيلاني، لذلك فإن بريطانيا لم تعد تتعامل مع حكومة ضعيفة مشلولة كسابقاتها، ولكن هذه الحكومة كانت تحظى بتأييد الجماهير الوطنية وبدعم الضباط الأربعة، فاضطر رشيد عالي الكيلاني ورفاقه من الوزراء إلى الصمود بوجه ضغط الإنكليز وحلفائهم. فقرر الوصي عدم التعاون مع حكومة الكيلاني وإجبارها على تقديم الاستقالة فرفض حل المجلس النيابي، ومن ثم ترك بغداد هاربا إلى الديوانية وخلق بهروبه هذا أزمة فاضطر الكيلاني إلى تقديم استقالته فقبلها الوصي وهو في الديوانية وكلف الفريق طه الهاشمي بتأليف الوزارة في 31 كانون الثاني 1941 كحل وسط وذلك لأنه كان يلاقي قبولاً حسناً من كافة الأطراف السياسية المتناحرة.

إلا أن قادة الجيش أخذوا يتشككون من سياسة الهاشمي وساد الاعتقاد أن حكومته سترضخ لمشيئة بريطانيا والمجموعة الموالية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا وتفتيت قوة العناصر القومية في الجيش وتشتيت شمل العقداء الأربعة، وفعلاً فقد أصدر طه الهاشمي أمرا بنقل العقيد كامل شبيب من بغداد إلى منصب قائد الفرقة الأولى في الديوانية فاعتبروه مقدمة خطيرة لإضعاف قوتهم ومن ثم إحالتهم على التقاعد. فاجتمع العقداء الأربعة ورفضوا تنفيذ الأمر الصادر بنقل العقيد كامل شبيب، واعتبروا طه الهاشمي متواطئا مع الوصي والإنكليز، وقرروا إعلان حالة الطوارئ في معسكر الرشيد وإرغام الهاشمي على تقديم استقالته. فقدم الهاشمي استقالته في نيسان 1941. أما الوصي عبد الإله فإنه هرب متنكرا إلى البصرة حيث حاول تجميع قوة سياسية وعسكرية مؤيدة له. وبعد فشل جميع المحاولات لا ستقطاب التأييد ا ضطرت السلطات البريطانية إلى نقل الوصي يوم 4 نيسان 1941 إلى فلسطين ومنها إلى الأردن.

حكومة الدفاع الوطني

على أثر هروب الوصي عبد الإله برزت الأزمة الدستورية لغياب السلطة الدستورية العليا، فاجتمع قادة الجيش ورجال السياسة للتداول في الأوضاع والخروج بحل علمي لهذه المشكلة المعقدة وتقرر تشكيل «مجلس الدفاع الأعلى» لينظر في تمشية أمور البلاد طيلة غياب الوصي، وقرر المجلس تكليف رشيد عالي الكيلاني بتأليف الوزارة التي سميت «بحكومة الدفاع الوطني»،

وتقرر خلع الوصي عبد الإله وتنصيب الشريف شرف – من أعضاء الأسرة الهاشمية – وصيا على عرش العراق، ثم قبل الوصي الجديد استقالة طه الهاشمي التي سبق أن قدمها وكلف رشيد عالي الكيلاني بتأليف الوزارة الجديدة.

الحرب العراقية – البريطانية

على أثر فشل الأمير عبد الإله في إقامة حكومة دستورية في البصرة، ومغادرته العراق وتنصيب الأمير شرف محله، وإزاء التأييد الشعبي الذي كانت تلاقيه حكومة الدفاع الوطني فإن بريطانيا فقدت الأمل من إمكانية إعادة الوضع السابق أو السيطرة على الحكومة الجديدة عن طريق الضغوط السياسية والاقتصادية، وكانت دول المحور تبدو وكأنها تملك زمام المبادرة في الحرب وأنها قد تنجح في خلق مراكز سياسية وعسكرية موالية لها في المنطقة العربية والشرق الأوسط. لذلك قررت بريطانيا استعمال القوة العسكرية في الإطاحة بالوضع الجديد والحد من نفوذ دول المحور والتخلص من الدفاع الوطني وإعادة هيمنتها على تسيير الأمور. وصدرت الأوامر إلى بعض القطاعات العسكرية المتواجدة في الهند وشمالي أفريقيا وشرقي الأردن بالتوجه إلى العراق.

وقدمت السفارة البريطانية طلبًا إلى حكومة العراق (رغم عدم اعترافها الرسمي بها) بالموافقة على إنزال القوات البريطانية في البصرة بحجة عبورها إلى فلسطين عن طريق العراق، فوافقت الحكومة على هذا الطلب ولكنها طلبت تحديد عدد القوات البريطانية بما لا يزيد على تسعة آلاف جندي في وقت واحد وأن لا يطول مكوثهم في الأراضي العراقية أكثر من ثلاثة أيام. وفي 18 نيسان 1941

وصلت البصرة الدفعة الأولى من القوات البريطانية قادمة من الهند، واستمر بعد ذلك توافد القطاعات الأخرى، فقدمت الحكومة العراقية احتجاجا رسميا بتاريخ 29 نيسان 1941 لمخالفة القوات البريطانية تعليمات الحكومة العراقية، وفي نفس الوقت وصلت قوات بريطانية أخرى إلى القاعدة الجوية البريطانية في الحبانية، وبعد أن تجمعت أعداد كبيرة في البصرة والحبانية قامت القوات البريطانية باحتلال ميناء البصرة وما حوله، واضطرت القوات العراقية إلى الانسحاب من البصرة.

لقد ظهر واضحًا للحكومة العراقية بأن بريطانيا عازمة على القيام بحركات عسكرية ضدها، فقدمت مذكرة احتجاجية شديدة اللهجة حملت فيها الحكومة البريطانية العواقب الوخيمة التي ستنتج عن هذا الاعتداء ضد سيادة واستقلال العراق، وأصدرت القيادة العسكرية العراقية يوم 30 نيسان أمرًا إلى قواتها بتطويق قاعدة الحبانية واحتلال التلال المحيطة بها، كما طلب القائد العسكري العراقي من آمر القاعدة الجوية بوقف حركة الطيران البريطاني.

وفي صبيحة يوم 2 مايس 1941 قامت الطائرات البريطانية بقصف القوات العراقية المعسكرة في المناطق المحيطة بقاعدة الحبانية، فكان ذلك بدء نشوب القتال بين القوات العراقية والبريطانية واستمر ما يقارب الشهر الواحد.

وفي ذلك اليوم نفسه اتخذ مجلس الوزراء والقيادة العسكرية قرارات مستعجلة كان أهمها:

1. تقديم احتجاج على اعتداءات القوات البريطانية وتحميل بريطانيا مسؤولية اندلاع الحرب.

2. إعادة فتح العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا وطلب المساعدات العسكرية المستعجلة من دول المحور.

3. إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي.

وجرت اتصالات مستعجلة بدول المحور التي وعدت بتقديم المساعدات العسكرية والسياسية، وأرسلت الحكومة الألمانية سفيرها السابق إلى بغداد، واعترفت الحكومتان الإيطالية واليابانية بالنظام الجديد في العراق كما وافقت حكومة الاتحاد السوفيتي على إقامة التمثيل الدبلوماسي مع العراق.

استقبلت الجماهير العربية أنباء الثورة بحماس شديد، واعتبرتها إيذاناً بحركة التحرر العربي من الاستعمار والتبعية وقد قامت طلائع حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية بتهيئة وتنظيم المتطوعين من الشباب العربي السوري لإرسالهم إلى العراق لدعم الثورة ومشاركة الشعب العراقي في الدفاع عن ثورته وحكومته الوطنية. كما قامت بعض العناصر القومية في مصر بتأييد الحركة وتوجه الزعيم الوطني عزيز علي المصري إلى العراق إلا أن طائرته أصابها العطل فقبض عليه وسجن.

ثم شــكلت في العراق كتائب من الشــباب وطلاب المدارس والمعاهد العالية للدفاع عن الثورة وحفظ الأمن الداخلي وتقديم الدعم لأبناء القوات المســلحة العراقية.

وبعد أربعة أيام من المعارك اضطرت القوات العراقية إلى الانسحاب من التلال المحيطة بالحبانية في 6 مايس لعدم توفر الغطاء الجوي للقوات العراقية وتمركز القتال حول مدينة الفلوجة، ولكن وصـول تعزيزات عسكرية بريطانية استطاعت على أثرها القوات البريطانية من دحر القوات العراقية وأخذت تتقدم نحو بغداد مستهدفة قطع طريق بغدا – الموصل لمنع وصول الأعتدة إلى الموصل من قبل ألمانيا وإيطاليا عن طريق ســوريا وتركيا. وفعلا فقد وصــلت هذه المســاعدات إلا أنها جاءت متأخرة بسـبب انشـغال ألمانيا بالاسـتعداد لفتح جبهة الحرب ضـد الاتحاد الســوفييتي (الجبهة الشرقية) أولاً وبسـبب صـعوبة المواصـلات بين دول المحور والعراق ثانيا، ولم يكن لها تأثير يذكر لتغيير موازين القوى التي كانت في صــالح القوات البريطانية الأكثر عدة وعددا والأحسن تدريبا.

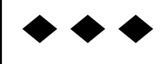
وقد وصـلت القوات البريطانية مشارف بغداد يوم 29 مايس وبات أمر سقوط العاصــمة بأيدي هذه القوات الغازية أمرًا لا مفر منه. على أثر ذلك ترك بغداد جميع أعضـاء الحكومة وقادة الجيش متوجهين إلى إيران باسـتثناء محمد يونس السـبعاوي الذي أصر على البقاء والمقاومة

فأعلن نفسه حاكمًا عسكريًا وأصدر الأوامر بتوزيع السلاح على كتائب الشباب وحفر الخنادق حول بغداد اســتعداداً لمواجهة القوات البريطانية المتقدمة. إلا أن الســبعاوي بعد فترة وجيزة اقتنع بعدم جدوى المقاومة فترك العاصــمة والتحق برفاقه، وبمغادرته انهارت المقاومة، وقامت لجنة الأمن الداخلي التي أقر رشـيد عالي تشــكيلها قبل مغادرته العراق، بمفاوضــات مع الســفير البريطاني لوقف القتال فوقعت الهدنة يوم 30 مايس بين لجنة الأمن الداخلي والســفارة البريطانية والتي تضــمنت وقف القتال والرجوع إلى بنود معاهدة 1930 وإلقاء القبض على رعايا وجنود دول المحور، وبقاء القوات البريطانية على أرض العراق حســب ما تتطلبه ظروف الحرب.

وبتوقيع هذه الهدنة أصبح العراق يرزح تحت السيطرة البريطانية وأخذ يعاني من وطأة الوجود الأجنبي على أرضه وسيادته الوطنية.

الفصل الثاني

أوضاع العراق بعد فشل ثورة 1941 وإعدام قادتها



أوضاع العراق بعد فشل ثورة 1941 التحررية

عاد الوصي عبد الإله ولكن الآن قد تغيرت الظروف وقمعت ثورة الجيش بعد نجاح القوات البريطانية في القضاء على الحركة الوطنية والشعب وقد تمخضت عن ذلك ثلاثة أمور أساسية وهي:

1- أن عبد الإله والطبقة الحاكمة الموالية لبريطانيا قد عادوا بفضل الحراب الإنكليزية وتحت حمايتها ولهذا فإنهم شعروا بأنهم مدينون إلى الحكومة البريطانية برجوعهم إلى السلطة وأن بقاءهم في الحكم مرتبط برضاء بريطانيا عليهم.

2- أن العراق يرزح تحت نير التسلط الأجنبي البريطاني وأن الحكومة العراقية مجبرة على أن تضع نفسها وإمكانيات العراق في خدمة المجهود الحربي البريطاني بصورة خاصة والحلفاء بصورة خاصة لثورتهم ضدها ولما أظهروه من كره لبريطانيا والفئات الحاكمة.

ثم كلف جميل المدفعي بتأليف الوزارة الجديدة، فعملت هذه الوزارة على تصفية العناصر الوطنية واتباع سياسة خارجية ممالئة للمصالح البريطانية.

ولكن سياسة المدفعي لم ترض السياسة البريطانية فاتهمته بالتساهل مع العناصر الوطنية والتهاهل في اعتقال العناصر المناهضة لبريطانيا فا ضطر إلى تقديم الا ستقالة وكلف نوري السعيد بتأليف وزارة جديدة في 9 تشرين الأول 1941

بعد أن تعهد السفير البريطاني أنه سيعمل على تنفيذ ما يتفق مع مصلحة بريطانيا ومجهودها الحربي وبالتعاون المستمر مع السفارة البريطانية.

وقد وجدت بريطانيا أن مصلحتها تقتضي وجود حكومة عراقية مستقرة تخدم المجهود الحربي وتضمن استمرار العراق كمركز للمواصلات والتموين لجبهة الحرب، فعملت على دعم وإسناد نوري السعيد رغم علمها بكره الشعب له ومعارضتها لسياسته وما ولدته من أزمات اقتصادية حادة في حياته اليومية، وفي نفس الوقت بدأت تغتني فئة قليلة من التجار ورجال الإقطاع المؤيدين لحكمه.

بدأ نوري السعيد بتنفيذ الالتزامات والوعود التي قدمها للسفارة البريطانية، فعلى الصعيد الخارجي أعلن الحرب على دول المحور، وقطع العلاقات مع حكومتي فرنسا واليابان المواليتين لألمانيا النازية كما تم فتح قنصلية عراقية في واشنطن كخطوة في توثيق العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية، كذلك أعاد تجديد حلف سعد آباد لمدة خمس سنوات أخرى.

أما على الصعيد الداخلي فقد ازدادت الاعتقالات للعناصر الوطنية القومية المناوئة لبريطانيا واكتظت السجون والمعتقلات بالمواطنين وأحيل المئات من موظفي الدولة إلى التقاعد لتأييدهم حركة مارس 1941.

وقامت حكومة نوري السـعيد بتصـفية الجيش العراقي من العناصر الوطنية، فأحيل عدد كبير من الضـباط إلى التقاعد، واسـتقدم ضـباط بريطانيون تولوا مراكز حساسة في الجيش كخبراء واستشاريين وعملوا على إضعاف الجيش وتقليص قوته من أربع فرق إلى فرقتين عسـكريتين، وفي نفس الوقت عمدت حكومة السـعيد إلى دعم الشرطة وزيادة قوتها، كذلك عملت على زيادة كبيرة في أعداد الشرطة السرية لمراقبة المواطنين وتحديد نشاطهم.

وفي 6 كانون الثاني 1942 أصـدرت حكومة نوري السـعيد أحكامًا غيابية بحق قادة ثورة مارس 1941 الذين كانوا قد التجأوا إلى إيران وكثفت الحكومة جهودها وضـغوطها من أجل جلبهم للعراق وفعلاً قامت الحكومة البريطانية باعتقالهم وتسـليمهم إلى الحكومة العراقية فنفذ حكم الإعدام بحق العقداء الأربعة صـلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمد يونس السبعاوي (المدني الوحيد الذي أعدم) ووضع الباقون في السجن.

الأوضاع الاقتصادية خلال سني الحرب

شعر العراق بوطأة الحرب بكافة أبعادها السياسية والاقتصادية والعسكرية وقد بدأت المشـاكل الاقتصـادية تظهر بصـورة محسـوسـة بعد وصـول القوات البريطانية صـيف عام 1941 بعد القضـاء على حركة مايس على أثر تصـاعد المعارك الطاحنة على الجبهة الشرقية بالهجوم الواسـع الذي شـنته القوات الألمانية على الاتحاد السوفيتي.

لقد أصبح العراق نقطة مواصلات ومركز تموين لقوات الحلفاء وللقوات البريطانية بصورة أخص. وكان للناحية الاقتصادية الصعبة أوسع وأعمق التأثير في حياة جميع طبقات الشعب العراقي وخاصة الفقيرة التي كانت تشكل الغالبية العظمى من أبناء الشعب. وكانت الصعوبات والمشاكل الاقتصادية خلال سني الحرب الطويلة قد تجسدت بصورة رئيسية في بروز ظاهرتين مزمنتين وهما:

أولاً: النقص الشديد في المواد الأساسية الغذائية والاستهلاكية كالحنطة والطحين والأرز والسكر والشاي والأقمشة والملابس القطنية والصوفية.

ثانيًا: الارتفاع الباهظ في الأسعار حيث ارتفعت معظم أسعار المواد الغذائية والبضائع الاستهلاكية إلى عشرة أضعافها وأحيانًا إلى أكثر من ذلك.

ويعزى سبب الأزمة الاقتصادية التي عانى منها الشعب العراقي إلى سيطرة بريطانيا على الاقتصاد العراقي حيث أسست مركز تموين الشرق الأوسط في القاهرة، فربطت الاقتصاد العراقي بعجلة المجهود الحربي البريطاني وعملت على تقليص استيراد المواد الأساسية الغذائية والاستهلاكية كالملابس والأدوات الاحتياطية ومن جهة أخرى، قامت بتجهيز القوات البريطانية المتواجدة في المنطقة من الأسواق العراقية ومن المنتجات والحاصلات العراقية مما أدى إلى شحة في المواد الأساسية والضرورية وزيادة كبيرة في العملة المتداولة في الأسواق والتي أدت إلى تضخم كبير في أسعار جميع المواد الاستهلاكية الأساسية وبخاصة الحنطة والأرز والسكر وتوزيعها بموجب بطاقات تموين خاصة.

كشفت الأزمات الاقتصادية المزمنة ضعف وفساد الجهاز الحكومي ومدى إهماله لأمور الشعب (قوته اليومي) مما خلق استياءً شعبيًا عامًا من الفئة الحاكمة ومن بريطانيا بالذات، وعمل على اتساع نفوذ و شعبية الحركات الوطنية المعارضة للنظام الملكي والتي أخذت تطالب الحكومة و بإصرار للقيام بواجباتها في حل الأزمة الاقتصادية الخانقة وتحسين حالة الشعب البائسة.

تطور الإقطاع بين 1932 – 1964

كانت حكومة الانتداب قد عمدت إلى توسيع عملية استحواذ رؤساء العشائر والتجار ورجال الطبقة الحاكمة على أراض وقطاعات زراعية إضافية وذلك بتشريعها قوانين لصالحهم وإعطائهم الدعم المستمر ماديًا ومعنويًا وذلك لكسب تأييدهم وخلق طبقة متنفذة موالية لبريطانيا كما عملت على إضعاف قوة الفلاحين وإخماد انتفاضتهم بقوة السلاح وأجبرتهم على الخضوع لمشيئة الشيوخ الملاكين كتابعين له قانونيًا واقتصاديًا.

لقد أدت هذه السياسة إلى حصول شيوخ العشائر والملاكين على قوة اقتصادية وسياسية واسعة من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه السياسة عملت على الإخلال في بوضع الفلاح العراقي فانحط مستواه المعيشي وأجبر الكثير من أبناء الريف على ترك الزراعة والالتجاء إلى المدينة طلبًا للرزق.

وبعد حصـــول العراق على الاســتقلال الشــكلي عام 1932 تابعت الحكومات العراقية المتوالية هذه السياسـة التي عملت على حرمان الفلاح العراقي من كثير من الحقوق الإنســانية وأجبرته على العيش في بؤس شــديد وحالة مزرية بســبب الفقر والجهل والمرض.

ففي عام 1933 شرعت الحكومة العراقية قانون حقوق وواجبات الزراع تحت رقم 28 وادعت الحكومة في أســباب تشر ـيعه أنه لتنظيم عملية الإنتاج الزراعي بكفاءة وإنتاجية أفضـــل ولمنع هجرة الفلاحين المتزا يدة إلى ا لمدن، ولكن الغا ية الحقيقية وراء القانون كانت ربط مصير الفلاح العراقي بمالك الأرض وتقييد حركته وإعطائه الشرعية لا ستغلال الفلاح وجعله عبدًا أوقنّا بدل أن يكون مواطنًا منتجًا. كما جاءت القوانين الأخرى التي شرعت فيما بعد خلال العهد الملكي جاءت لتخدم مصـــالح ا لمالكين وأصــحاب الإقطاعيات الكبيرة التي أدت إلى هجرة الفلاحين الواسـعة وإهمال الأراضي الزراعية وزيادة أملاحها بسـبب الاسـتغلال غير الأمثل للأرض وعدم ا ستثمار المالكين (من رؤ ساء العشائر ورجال الطبقة الحاكمة وأثرياء المدن) لرؤوس الأموال والأرباح الطائلة في تحســين عملية الإنتاج الزراعي لكون أغلبهم يعيش في المدن ويعتمد على السر ـكال في إدارة مصـالحه الزراعية وبالتالي فإن كل هذه العوامل أدت إلى تخلف الزراعة وقلة الإنتاج الزراعي مما أضر بالاقتصــاد العراقي وعمل على عرقلة نموه.

الصناعة

نظرًا لأن الاقتصاد العراقي يعتمد على الزراعة بشكل رئيسي، لم تقم في العراق صناعات متطورة ومعامل حديثة، وبقي القطاع الصناعي يتمثل في وجود الحرف والصناعات اليدوية التي توارثها العراقيون عبر الأجيال، واضطر العراق إلى استيراد معظم حاجاته من البضائع الاستهلاكية والإنتاجية المصنعة من الدول الأوروبية وخاصة من بريطانيا. إلا أن الحرب العالمية الثانية وبسبب تفاقم الحاجة إلى البضائع المصنعة التي يحتاجها الفرد العراقي في حياته اليومية دفعت بالبعض من أصحاب رؤوس الأموال إلى تأسيس معامل حديثة تركزت في إنتاج المواد الاستهلاكية التي كانت تصنع بطرق وأساليب قديمة فأنشئت معامل لإنتاج الصابون والسجاير والزيوت النباتية والسمنت والجلود والغزل والنسيج.

لقد كان لتأخر الصناعة في العراق أسباب عديدة منها عدم توفر المواد الأولية وتخوف أصحاب رؤوس الأموال من المغامرة في استثمار أموال طائلة لبناء مشاريع جديدة لا يضمن نجاحها بصورة أكيدة، ففضلوا استثمار أموالهم في شراء العقارات والأراضي الزراعية التي تدر أرباحًا محققة، وبالإضافة على ذلك فإن السوق المحلي العراقي محدود جدًا بسبب قلة السكان وضعف القابلية الشرائية، وكان لسياسة الاستيراد المفتوح والمستمر للبضائع الأوروبية أكبر الأثر في إضعاف الصناعة المحلية لعدم تمكنها من منافسة البضائع الأوروبية الأحسن جودة والأقل سعرًا.

وقد كان لضعف الحكومة وتشجيعها لتمويل مشاريع صناعية حديثة وكذلك لقلة عدد الخبراء والفنيين العراقيين في إدارة المعامل الأثر البالغ في عدم نمو صناعات وطنية. وقد أهملت الحكومة تنظيم شؤون العمل وحقوق العمال، فلم تعمل بصورة جدية من أجل خلق ظروف العمل الصعب وقلة الأجور حيث كان معدل أجور العامل العراقي في تلك الفترة (1932 – 1946) تتراوح بين 40 – 75 فلسًا لليوم الواحد.

لم يكن في العراق غير ثلاث مؤسسات كبيرة توظف أعدادًا كبيرة من العمال ويسيطر عليها ويديرها الإنكليز، وهي ميناء البصرة وسكك الحديد وشركة نفط العراق إلا أن قلة قليلة جدًا من العراقيين كانت تعمل في مناصب فنية أو إدارية عالية، وقد اقتصر تشغيل العراقيين على الأعمال البسيطة وغير الماهرة.

صناعة النفط

رغم أن واردات العراق كانت تعتمد بصورة رئيسية على مدخولات النفط إلا أن صناعة استخراج وتكرير النفط لم تتفاعل مع حركة الاقتصاد العراقي من الناحية العملية حيث إن شركة النفط كانت تستورد معظم احتياجاتها من الخارج كما أن معظم إنتاجها كان يصدر خارج العراق دون أن يكون هناك أي تأثير يذكر على حركة السوق العراقية غير الواردات السنوية التي كانت تحصل عليها الحكومة العراقية حسب نسبة معينة من الإنتاج.

لقد حصلت شركة نفط العراق على امتياز استخراج النفط عام 1925 وبدأت تستخرجه بشكل تجاري مربح عام 1927 وكانت الحكومات العراقية المتعددة إلى حين تأميم النفط عام 1972 تعتمد في دخلها القومي وبشكل أساسي على واردات النفط خاصة فعلى سبيل المثال: في عامي 1929 و1931 اضطرت الحكومة العراقية بسبب قلة وارداتها إلى استلاف حصصها من واردات النفط مقدمًا وقبل احتساب حصتها الحقيقية مما وضع الحكومة تحت نفوذ شركة النفط وجعلها غير قادرة على مجابهة الشركة للحصول على أسعار معقولة تتناسب وقيمة النفط المستخرج آنذاك.

التجارة

كان للتجارة الخارجية بين عامي 1850 و1950 أكبر الأثر في تحديد طبيعة الاقتصاد العراقي، فقد كان لهيمنة الشركات البريطانية على الاستيراد والتصدير أثر كبير على السيطرة السياسية والعسكرية حيث عملت الحكومة البريطانية على حماية مصالحها وابتزاز الأرباح. وقد ذكرت السفارة البريطانية بتقرير لها عام 1934 أنه بسبب وجود النفوذ السياسي البريطاني في العراق فإن معظم المصالح والشركات التجارية التي تعمل في العراق هي بريطانية، وأن أغلبية البضائع المصدرة والمستوردة تنقل على ظهر بواخر بريطانية، كما أن جميع رؤوس الأموال المستثمرة هي بريطانية أيضًا، فاثنان من مجموع ثلاثة بنوك تعمل في العراق تعوج ملكيتها إلى الإنكليز

وهي البنك الشرقي الذي كان مسؤولاً عن خزينة الدولة، أما البنك الثاني فهو البنك العثماني الذي يملك الإنكليز ثلث رأس ماله تقريبًا، وفيه عدة مديرين بريطانيين يديرون أعماله، كما أن جميع شركات التأمين هي بريطانية.

ثم إن شركة بواخر دجلة والفرات البريطانية كانت تسيطر على حركة النقل النهري بين بغداد والبصرة ولا ينافسها إلا شركة محلية واحدة.

وتملك تلك الشركة أسطولاً مكونًا من 18 باخرة وتعمل برأس مال قدره (000 /250) جنيه استرليني في مختلف القطاعات. ورغم المنافسة الحادة من الشركات اليابانية فإن سيطرة الشركات البريطانية على المصالح التجارية في العراق ظلت هي السائدة في جميع المجالات فمثلاً في عام 1938 كان مجموع أعضاء غرفة تجارة بغداد من أصحاب الدرجة الأولى 25 عضوًا منهم 12 بريطانيًا و2 أوربيان وسبعة يهود وعراقي واحد. وفي عام 1957 كان عدد الشركات الأجنبية التي تعمل في العراق يزيد على (225) شركة تهيمن بشكل واضح على حركة السوق.

وفي الأربعينات وبعد الحرب العالمية الثانية وجد بعض التجار العراقيين أن الشركات التجارية الأجنبية تحصل على أرباح كبيرة في عمليتي الاستيراد والتصدير فعمد بعضهم إلى التعامل المباشر مع الشركات المصنعة والمجهزة في الخارج، وأسس البعض الآخر شركات خاصة بالاستيراد والتصدير (قومسيون) أخذت تستورد البضائع الاستهلاكية والأقمشة والمواد الغذائية،

كما اتجه هؤلاء التجار إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستيراد الأجهزة الكهربائية والأدوات المنزلية والسيارات (بصورة خاصة) منافسة بذلك البضائع الإنكليزية ومتفوقة عليها، وبذلك تقلصت سيطرة الشركات التجارية والمنتجات البريطانية على الأسواق العراقية حتى قبيل ثورة 14 تموز سنة 1958.

تطور التعليم

في خلال فترة الانتداب البريطاني حدث تطور في قطاع التعليم من حيث النوع والكم، فقد ازدادت تخصيصات وزارة المعارف (التربية) من 3٪ من ميزانية الدولة في بداية عهد الانتداب، بالعكس من الوزارات الأخرى التي كان يعتبرها الإنكليز وزارات حساسة كالدفاع والخارجية والداخلية والمالية والتي كانت تحت إشراف المستشارين البريطانيين. ورغم وجود مستشار بريطاني في وزارة المعارف العراقية خلال الانتداب إلا أن سياسة وزارة المعارف كانت ترسم من قبل ساطع الحصري مدير المعارف العام لسنوات طويلة، وكان الحصري يحظى بدعم وإعجاب الملك فيصل الأول كما كان مسؤولاً عن تأليف الكتب المنهجية التي يتجلى فيها الشعور القومي والروح الوطنية، كما ركز على الاهتمام بالتربية القومية التي تعتمد على الأخلاق العربية والمبادئ الإسلامية والفتوة والكشافة والتي كان لها أكبر الأثر في إعداد أجيال مؤمنة بحب الوطن والتضحية في سبيله.

والجدول الآتي يبين الزيادة الحاصــلة في عدد الطلاب والمدارس بين (1920 – 1946).

السنة	عدد المدارس الابتدائية	عدد الطلاب	عدد المدارس المتوسطة والثانوية	عدد الطلاب
1920 – 1921	88	8/000	4	110
1934 – 1935	528	60/324	35	6/058
1945 – 1946	944	118/487	59	12/173

رغم الزيادة الملحوظة في عدد الطلاب والمدارس إلا أن اتجاه التعليم ظل خلال تلك الفترة مُركزًا على تخريج كوادر وظيفية بصــورة عـامـة حيـث اهتمـت في الاختصـاصـات الإنسـانية، وأهملت الكوادر الفنية والعلمية فحتى سـنة 1945 لم يكن في العراق غير إعدادية زراعية واحدة وإعداديتين صــناعيتين فقط. لم يتجاوز عدد طلابها عدة مئات، في الوقت الذي كان فيه القطر يعتمد على خبراء وفنيين أجانب لإدارة وتطوير المشاريع الهندسية والزراعية والفنية وغيرها.

وشــهد قطاع التعليم زيادة نسـبية في عدد طلاب الكليات والمعاهد العالية. ففي عام 1920 – 1921 كان عدد الطلاب في المعاهد العالية (65) طالبًا، وفي عام 932 – 1933 أصبح (115) طالبًا، ثم ارتفع في عام 945 – 1946 إلى 2146 طالبًا بينهم (284) طالبة.

وا ستمرت الحكومة في إر سال البعثات العلمية إلى خارج العراق للحصول على تخصصات عالية، إلا أنها ركزت على الدراسات الإنسانية أكثر من تركيزها على الدراسات العلمية والطبية والتي كان البلد يشكو من نقص كبير في كوادرها.

وبالرغم من اتساع حركة التعليم وزيادة عدد المدارس وعدم سيطرة الإنكليز على هذا القطاع الحيوي فإن تطوره لم يكن يسد حاجة القطر إلى المدارس والمدرسين، وقد أدى ذلك إلى حرمان الكثير من أبناء الشعب وخاصة في القوى والأرياف من فرص التعليم، فحتى عام 1946 كانت نسبة الأمية في العراق تزيد عام (90٪) من مجموع السكان.

التطورات السياسية في أعقاب الحرب العالمية الثانية

عندما أشرفت الحرب العالمية على نهايتها بدأ يظهر أثر نتائجها المباشرة وغير المباشرة على المسرح السياسي العراقي، ففي منتصف عام 1944 أجبر الوصي عبد الإله نوري السعيد على تقديم استقالته وكلف حمدي الباجه جي بتأليف وزارة جديدة سميت بوزارة خطوات عديدة من أجل إعادة الحياة الطبيعية فسمحت للنشاط السياسي والتنظيم النقابي وأجازت الصحف المحلية كما خففت من حدة تطبيق الأحكام العرفية التي كان معمولاً بها منذ فشل حركة مايس 1941.

كانت لهذا التغيير الكبير عوامل كثيرة خارجية وداخلية فرضت نفسها على النظام السياسي وحملته على تغيير مساره ومنهجه بعض الشيء من أجل تخفيف تذمر الشعب وتأخير ثورته، وكان من أهم العوامل الخارجية ضعف بريطانيا

بسبب الحرب الطاحنة، وخروج الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي كدولتين عظيمتين كما كان لدخول الاتحاد السوفييتي الحرب إلى جانب الحلفاء في «الجبهة الديمقراطية» أثر كبير على نشر الأفكار الشيوعية العالمية وفسح المجال أمام الحزب الشيوعي العراقي لممارسة نشاطه من قبل الحكومة وذلك لوقوف الاتحاد السوفييتي إلى جانب الحلفاء وقد أقامت حكومة الباجه جي الثانية علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي في نهاية 1944، كما كان لإعلان ميثاق الأطلسي- وانضمام العراق إلى المؤتمر التأسيسي- لمنظمة الأمم المتحدة، وكذلك للوعود الكثيرة التي أطلقها الحلفاء أثناء الحرب بمنح الشعب العربي حريته واستقلاله والتصريحات العديدة من قبل المسؤولين ضد الديكتاتورية الفاشية والنازية وضرورة سيادة الديمقراطية والحرية، كان لكل ذلك أثر كبير على انتشار المبادئ الإنسانية وحق الشعوب في التحرر والديمقراطية والسيادة الوطنية وكان لنضال الشعب العربي في فلسطين وسوريا وبسالته من أجل نيل حقه المشروع في الحياة الحرة الكريمة.. كل هذه الأحداث العالمية والعربية كان لها واسع وانعكاس مباشر على أفكار وطموح الشعب العربي عامة والعراق خاصة.

وقد عكست سنوات الحرب الطويلة والأزمات الاقتصادية تأثيرها على الأوضاع السياسية الداخلية بشكل مباشر فشهدت الساحة السياسية نشاطًا ملحوظًا وزيادة كبيرة في الوعي السياسي بين جميع طبقات الشعب العراقي، كما كان لازدياد عدد الطلاب وخاصة في المعاهد العالية أثر كبير في تكثيف النشاط السياسي

وزيادة فاعليته وانضمام الجماهير إلى جانب القوى السياسية المعارضة للنظام الملكي والمؤيدين لبريطانيا وقد كان لحركة مايس مايو 1941 وإعدام قادتها الأثر العظيم في زيادة وعي الجماهير العراقية وفي معارضة القائمين بالحكم حيث كشفت تلك الأحداث الروح الوطنية العارمة التي يتمتع بها الشعب والجيش العراقي وكان لوقوف الوصي ونوري السعيد وبقية الطبقة الحاكمة ضد مشيئة الشعب واندفاعهم في الميل إلى بريطانيا التي أعادتهم إلى كراسي الحكم بالقوة لإسنادهم مصالحها الاستعمارية، وقد مَسَّ ارتفاع أسعار بعض المواد الغذائية والملابس وغيرها حياة الشعوب اليومية التي عانى منها الأمرين لفترة أربع سنوات على الأقل، وكان لكل ذلك أكبر الأثر في خلق رد فعل معاد للنظام السياسي ولرجاله الذي انتفعت من سياستهم فئة قليلة من التجار والمالكين ورؤساء العشائر.

في عام 1944 أُحدث تغيير في مواد القانون الأساسي العراقي (الدستور) أعطيت بموجبه للوصي عبد الإله صلاحيات دستورية واسعة من ذي قبل من ضمنها صلاحية إقالة الوزارة، فشعر الوصي بقوة مركزه الإداري واغتر بسلطته الدستورية واستاء من نوري السعيد وامتداد نفوذه الواسع في أجهزة الدولة، وفي ذلك الوقت أخذ نوري السعيد ينشط على الساحة العربية فكانت له اتصالات وثيقة مع الساسة العرب ويعمل على حل مشكلة فلسطين ويخطط لتأسيس الجامعة العربية، كل هذه العوامل خلقت حساسية واضحة بين الوصي ونوري السعيد

كما أن الاستياء العام من سياسة نوري السعيد ومواقفه كان ذا أثر واضح، فقللت بريطانيا من دعمها وتأييدها لنوري السعيد وأخذت تنتقد سياسته وتهدده بعواقب الأمور. واستغل عبد الإله هذه الفرصة لإبعاد نوري السعيد عن الحكم وإنهاء دور – ولو إلى حين – وأخذ يلعب دورًا كبيرًا في بسط نفوذه وتمشية أمور الدولة وتحديد سياستها.

في 27 كانون الثاني 1945 ألقى الوصي خطابًا في مجلس النواب أعلن فيه عن نية الحكومة في تحقيق إصلاحات اجتماعية وسياسية واسعة، وأكد ضرورة إعادة الحياة السياسية الطبيعية إلى العراق بفسح المجال أمام قيام أحزاب سياسية مختلفة وسن قانون انتخابات جديد وإنهاء الأحكام العرفية، وقد أعقب هذا الخطاب استقالة وزارة حمدي الباجة جي وتكليف توفيق السويدي بتأليف الوزارة الجديدة التي ضمت عناصر وطنية معتدلة واعتبرت هذه الوزارة كمؤشر لانتقال العراق إلى مرحلة جديدة، ووعدت الحكومة الجديدة بإعادة الحياة الطبيعية إلى العراق وإنهاء حالة الحرب والأحكام العرفية الاستثنائية، ورفع الرقابة العسكرية وإغلاق السجون والمعتقلات وإطلاق السجناء، وإجازة تأسيس الأحزاب السياسية ونقابات العمال، وتحديث قانون الانتخابات، كما وعدت بالعمل على رفع مستوى المعيشة لعموم أبناء الشعب العراقي وخاصة الفلاحين وبتوزيع الأراضي الحكومية (الأميرية) عليهم.

تعاقب الوزارات

ثم شكل أرشد العمري وزارته في 1 حزيران 1946 على أثر استقالة وزارة توفيق السويدي، فوقفت الأحزاب السياسية موقفًا معارضًا من هذه الوزارة وقالت بأنها ستواجه مقاومة شعبية إذا أخلت بواجباتها. كما طالبت القوى الوطنية بإطلاق تكوين الأحزاب السياسية، واعتبرته حقًا من حقوق الشعب لا يستطيع أحد سلبه، كما أدانت الأحزاب السياسية موقف الحكومة من مجزرة (كاور باغي) في كركوك. لقد برهنت الطبقة العاملة العراقية في إضرابها الذي انتهى بمجزرة (كاور باغي) وفي الاضطرابات الأخرى في القطر على روحتها الثورية، ورفعت الشعارات التي تطالب الحكومة بالاستقالة، لإطلاقها الرصاص على العمال دفاعًا عن شركة النفط. وفي 30 آب 1946 عقدت الأحزاب اليسارية الثلاثة (الاتحاد الوطني، الشعب، الوطني الديمقراطي) اجتماعًا لبحث الموقف السياسي في العراق وأصدرت احتجاجًا على سياسة الوزارة التعسفية وطالبت بتنحيتها وإقامة وزارة دستورية يرضى عنها الشعب، واضطر أرشد العمري على التخلي عن رئاسة الوزارة فقدم استقالته في 14 تشرين الثاني عام 1946 بعد أن تأكد من عدم قدرته على ضرب الأحزاب وعجزه عن إجراء انتخابات بدون حدوث اضطرابات بالإضافة إلى عدم رضا الأمير زيد نائب الوصي عن أسلوب معالجة الوزارة للموقف. وبعد استقالة أرشد العمري شكل نوري السعيد وزارته التاسعة في 21 تشرين الثاني 1946

واشــترك فيها ممثلون عن بعض الأحزاب كالوطني الديمقراطي والأحرار، وقد اســتنكرت بعض الأحزاب مثل حزب الاســتقلال والاتحاد الوطني والشــعب مشاركة هذين الحزبين في حكومة نوري السعيد. وبهذا حقق نوري السعيد نتيجتين مهمتين:

1- خلق انشقاق بين الأحزاب وفسخ التضامن والتماسك بينها.

2- إجراء انتخابات نيابية بصورة تضمن نجاح مؤيديه وأنصاره.

وأسرع نوري الســعيد بعد ذلك بحل مجلس النواب معلنًا أن هدف الوزارة الجديدة إجراء الانتخابات النيابية. لقد عملت هذه الحكومة على التدخل بشــكل مباشر في الانتخابات مما أدى إلى نجاح ممثلي الحكومة وفشل الأحزاب السيا سية في الحصـول على مقاعد في المجلس النيابي، باستثناء الحزب الوطني الديمقراطي الذي فاز بخمســة مقاعد فقط، وفضــحت بقية الأحزاب تزوير الانتخابات وأكدت أن المجلس الجديد لا يمثل الشعب، ودعت إلى انتخاب مجلس نيابي ديمقراطي.

كانت النتيجة الأولى لاشــتراك الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الأحرار في وزارة نوري السـعيد القضـاء على التعاون الذي كان قائمًا بين الأحزاب السـياسـية، ذلك التعاون الذي استطاع الوقوف بقوة ضد وزارة أرشد العمري، فبدأت حملات الاتهامات بين الأحزاب وتفرقت صفوفها مما سهل على وزارة نوري السعيد إجراء الانتخابات بالصورة التي تريدها.

شنت وزارة نوري السعيد هجومًا عنيفًا على الأحزاب السياسية مما اضطر ممثلو الأحزاب المشاركة فيها إلى الانسحاب، وأعقب هذا الانسحاب من الوزارة حملة موجهة إلى الحياة الحزبية وكان باكورة أعمال الوزارة في هذا الاتجاه اكتشاف التنظيمات السرية لبعض الأحزاب.

نجح نوري السعيد مؤقتًا في تحقيق هدفه، ولكنه لم يلبث أن واجه معارضة شديدة من جانب الأحزاب عندما اتجه إلى عقد معاهدة مع تركيا عام 1946، وعندما دارت المفاوضات بين الحكومتين العراقية والبريطانية لعقد معاهدة جديدة بدل معاهدة 1930، زادت هذه المعارضة وتحولت إلى وثبة وطنية في يناير 1948، وبما أن الأحزاب السياسية الخمسة قد أصدرت بيانًا استنكرت فيه الأسلوب المتبع في الانتخابات النيابية ومطالبتهم الحكومة بالاستقالة وحل مجلس النواب وإجراء انتخابات نيابية حرة، فقد عقد مجلس الأمة اجتماعًا غير اعتيادي في 17 آذار وأعلن في خطاب العرش استقالة وزارة نوري السعيد وتأليف وزارة جديدة مستقلة وانتخب عبد العزيز القصاب رئيسًا لمجلس النواب وصالح جبر رئيسًا لمجلس الأعيان، وعقد المجلسان جلسة مشتركة لبحث تطورات القضية الفلسطينية واتخذا قرارا بتحذير الحكومتين البريطانية والأمريكية من مسؤولية عمالها إزاء القضية الفلسطينية وإرسال وفد عراقي للمطالبة باستقلال فلسطين في هيئة الأمم المتحدة مقاطعة البضائع الصهيونية.

وأعقب استقالة وزارة نوري السعيد في 11 آذار 1947، تشكيل الوزارة الجديدة من قبل صالح جبر في 29 آذار 1947، غير إن الوزارة الجديدة قوبلت بالمعارضة من قبل جميع الأحزاب السياسية التي أعلنت أن الهدف من مجيء الوزارة الجديدة إنما هو لتنفيذ السياسة الرامية التي أنشاء التكتلات والمشاريع التي تربط العراق بعجلة الاستعمار، ووصفت الوزارة الجديدة بأنها جزء من الخطة التي تقرر السير عليها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لتوجيه سيا سية العراق العامة وجهة تؤول من حيث النتيجة إلى تحقيق المشاريع الاستعمارية وضياع أماني الأمة وآمالها والإبقاء على الوضع الشاذ.

أعلنت وزارة صالح جبر منهاجها الوزاري الذي تضمن النقاط التالية فيما يتعلق بالسياسة الخارجية:

1- تعديل المعاهدة العراقية – البريطانية على أساس ضمان المصالح المتبادلة بين البلدين.

2- اعتبار القضية الفلسطينية قضية العراق بالذات والعمل على إنقاذها من الأخطار التي تتعرض لها.

3- تعزيز صلة العراق مع جاراتها تركيا وإيران وتقوية الروابط السياسية والاقتصادية معهما عملاً بروح ميثاق سعد آباد.

أما عن السياسة الداخلية فتضمن المنهاج إصلاح الجهاز الإداري وإصلاح الجيش وتجهيزه بالأسلحة والآليات الحديثة، بالإضافة إلى كثير من الأمور الأخرى التي تتعلق بالقضايا الداخلية. وكانت الأزمة الاقتصادية من أهم القضايا التي واجهت حكومة صالح جبر، وقد ناقشت مقالات عديدة هذه الأزمة ودعت الحكومة إلى تخليص الشعب منها بدلاً من توجيه اهتمامها إلى التضييق على الحركة الوطنية، كان عام 1947 عامًا ينذر بالانفجار الشعبي بسبب الأزمة الاقتصادية وتعاظم الإرهاب ضد القوى الوطنية والمعارضة والحركة النقابية، وقد استخدمت الحكومة أساليب شديدة ضد الصحافة والأحزاب، مما دفع القوى الوطنية إلى مقاومة الحكومة وإثارة الاضطرابات ضدها، وكانت الأحزاب قد عارضت الوزارة الجديدة لاعتقادها بأن الهدف من مجيئها هو تنفيذ السياسة الاستعمارية الرامية إلى إنشاء التكتلات والمشاريع الاستعمارية التي تربط العراق بعجلة الاستعمار.

التصدي لمعاهدة 1948

وأوغلت الوزارة في اضطهاد الأحزاب المعارضة وتقييدها للحريات فعطلت الصحف الحزبية والمعارضة وعطلت حزبي الشعب والاتحاد الوطني، وأبرمت اتفاقيتين مع تركيا وإيران ومع الأردن، وعارضت الأحزاب هاتين المعاهدتين بشدة ونددت بأهدافهما باعتبارهما معادية لمصالح الشعب ولشعوب الشرق الأوسط، ثم بدأت المفاوضات الرسمية بين العراق وبريطانيا في 7 أيار 1947 في قصر الرحاب

تحت إشراف الوصي عبد الإله واستمرت حتى 17 أيار 1947 ثم انقطعت ليستأنفها الوصي بنفسه في لندن في تشرين الأول من نفس العام ومن ثم في بغداد، واتفقوا على أن تجري المفاوضات في السفارة البريطانية حرصًا على سريتها واستمرت المفاوضات من 22 تشرين الثاني إلى 4 كانون الأول من عام 1947م وقد تقدم الجانب البريطاني بمسودات متعددة للمعاهدة الجديدة على ضوء ملاحظات الجانب العراقي ومقترحاته إلى أن تم الاتفاق على كثير من المبادئ والنصوص.

وقد تسربت إلى الجماهير والقوى الوطنية الخطوط العريضة للمعاهدة الجديدة واعتقدوا أنها أشد وطأة من سالفتها معاهدة 1930م فقد اعتبرت قاعدتي الحبانية والشعبية ملكًا للحكومة العراقية ولكن تحت إشراف مجلس دفاع مشترك بين الطرفين وإلزام العراق بأن يقف إلى جانب حليفته في أي نزاع تدخل فيه وبأن يصرف العراق من حسابه الخاص على القواعد والمنشآت العسكرية المشتركة. أدرك الوطنيون على اختلاف ميولهم السياسية خطر ذلك على استقلال البلاد وسيادتها الوطنية، فقامت الأحزاب الوطنية بتحشيد الرأي العام وتعبئته لرفض جميع المشاريع والمعاهدات المخلة بالسيادة والاستقلال الوطني، فشكلت لجنة طلاب الكليات والمعاهد لتنسيق نشاط الطلاب وكانت هذه اللجنة تمثل جميع الأحزاب الوطنية السرية والعلنية، ومهمتها تحشيد الجماهير الشعبية لإحباط المعاهدة.

وأصـــدرت الأحزاب المجازة بياناتها عن عدم جدارة الحكومة القائمة آنذاك بالاضـطلاع بمثل هذه المهمة لأنها لا تتمتع بثقة الشـعب ولا تسـتطيع تحقيق أماني الأمة في إنجاز مثل هذه المهمة الخطيرة التي يتوقف عليها ا ستقلال العراق و سيادته ومصـيره، وأن مهمة المفاوضـات يجب أن تقوم بها حكومة يسـندها مجلس منتخب انتخابًا حرًا لتحقيق استقلال العراق التام واستكمال سيادته بجلاء القوات الأجنبية عنه وعدم توريط البلاد بأية التزامات تنتقص من سيادته وتحد من استقلاله.

اسـتقبلت الجماهير العراقية المفاوضـــات وتوقيع المعاهدة بطريقة أخرى هي النضـــال لإسـقاطها، وكانت بداية النضـــال عندما أعلن وزير الخارجية عن بدء المفاوضـــات، فاجتمع طلاب كلية الحقوق يوم 5 كانون الثاني واتجه المجتمعون إلى مجلس الوزراء والبلاط الملكي والسـفارتين البريطانية والأمريكية للاحتجاج على تقسيم فلسطين وعلى المعاهدة العراقية – البريطانية التي تنوي الحكومة عقدها، وقد قابلت الحكومة هذه التظاهرات والتجمعات بأسـلوب العنف وأصـدرت قرارات بتعطيل الدراســة في كلية الحقوق وتقديم الطلبة إلى المحاكم، واعتقد صـــالح جبر رئيس الوزراء أنه ا ستطاع إخماد المعارضة بهذه الأساليب، فسافر إلى لندن مع وفده يوم 5/ 1/ 1948. وســارت المظاهرات إلى بناية البرلمان. فقدم لفيف من النواب والأعيان بطلب إلى الحكومة بإعادة فتح الكليات وإطلاق سراح الطلبة الموقوفين. وفي منتصف كانون الثاني 1948

وقع صالح جبر وبيفن وزير خارجية بريطانيا المعاهدة الجديدة في بورتسموث وسموها بهذا الاسم. فقامت فصائل الشعب العراقي تعلن رفضها وتصميمها على مواصلة النضال. وعقدت الاجتماعات الجماهيرية في مختلف مناطق بغداد وبقية أنحاء العراق كما عقدت الاجتماعات الطلابية والعمالية، وأصدرت الأحزاب السياسية بياناتها التي شجبت فيها المعاهدة باعتبارها تشكل خطرًا على كيان الدولة وسيادتها وتشكل حجر عثرة في سبيل تقدمها وتحقيق مصالحها الوطنية وأمانيها القومية، كما أجمعت الأحزاب على عدم شرعيتها، ودعت الشعب لإحباطها ومقاومتها بكل ما أوتي من قوة. ورغم صدور بيان البلاط الملكي لتهدئة الأمور فجر رئيس الوزراء صالح جبر الذي عاد من لندن معتزًا بتوقيع المعاهدة غضب الشعب ببيانه الذي أذاعه عند عودته في يوم 26/ 1/ 1948 طالبًا إلى الشعب الخلود لشرح مضامين المعاهدة.

لكن بغداد نامت يوم 26 كانون الثاني 1948 على فوهة بركان فقد أعلن العمال الإضراب السياسي وقررت لجنة طلاب الكليات والمعاهد التظاهر، فلما كان يوم 27 كانون الثاني، خرج أبناء الشعب، وخرج العمال من المصانع كتلة واحدة كما خرج طلبة المعاهد وجموع الشعب منطلقة من جميع جوانب المدينة محاولة الالتقاء في قلب بغداد، واستمرت التظاهرات في جميع أنحاء بغداد وكذلك في بقية المدن العراقية، وأدى ذلك إلى استقالة بعض الوزراء.

واضـطر الوصي عبد الإله إلى القيام بعقد اجتماعات مكثفة مع رجال السـياسـة وعلى رأسـهم نوري السـعيد الذي دعى إلى اسـتخدام القوة في إعادة هيبة الدولة وإعلان الأحكام العرفية، فيما حاول محمد الصدر القضاء على التظاهرات بأسلوب الوسائل السلمية بما فيها إقالة حكومة صالح جبر مما حدا بالوصي إلى أن يطلب من حكومة صالح جبر تقديم استقالتها، وهكذا استطاعت الجماهير الشعبية إسقاط وزارة صـالح جبر، إلا أنها لم تسـتطع فرض وزارة شـعبية تسـتطيع تنفيذ مطالب الجماهير التي رُفِعَتْ في هذه التظاهرات، فقد شـكل الحكومة الجديدة محمد الصـدر في 29 كانون الثاني وقامت حكومته بإصـدار قرار بعدم موافقته على معاهدة بورتسـموث الجائرة، ووعد بإجراء التحقيق في الانتهاكات التي قامت بها الحكومة إزاء الجماهير الشـعبية، وإطلاق الحريات الدسـتورية ومنها الإفراج عن الصـحف المعطلة وإخلاء سبيل الموقوفين وحل البرلمان.

فكان هذا نصرًـا للجماهير وللأسـاليب التي اتبعتها في الكفاح السـياسي والاقتصادي والفكري.

العراق وحرب فلسطين 1958 الأوضاع السياسية حتى ثورة تموز

أصبحت القضية الفلسطينية محور السياسة العربية منذ الحرب العالمية الأولى، وبعد أن صدر وعد بلفور (2 تشرين ثاني 1917) الذي نص على إنشاء الوطن القومي لليهود، كان الوطن العربي في تلك الفترة تحت السيطرة الاستعمارية الكاملة والاحتلال المباشر، وكانت الأقطار العربية تحصل على استقلالها في فترات متعاقبة، إلا أن استقلالها كان مقيدًا بمعاهدات جائرة مثل معاهدة 1930 بين العراق وبريطانيا، ومعاهدة 1936 بين مصر وبريطانيا، ومعاهدة 1936 السورية – الفرنسية، ومع ذلك فإن الحركة الوطنية أخذت تنمو في أجزاء مختلفة من الوطن العربي وبصورة خاصة في مصر والعراق.

كان العراق، قبل الحرب العالمية الثانية مساندًا للقضية الفلسطينية، فقد أيد الشعب العراقي الثوار الفلسطينيين أثناء ثورتهم (1936 – 1939) على الانتداب البريطاني وضد الهجرة اليهودية الواسعة إلى فلسطين، فتطوع عدد من الشباب العراقي للجهاد في فلسطين ومساندتها ماديًا ومعنويًا.

وبعد الحرب العالمية الثانية كانت جميع الأحزاب المجازة تتخذ من القضـية الفلسطينية قضية قومية، ودعت إلى إنشاء دولة فلسطينية مستقلة موحدة. وتعتبر القضـية الفلسـطينية أحد الأسـباب الرئيسـية التي فجرت التناقضـات بين العراق وبريطانيا عام 1940، وأدت إلى الحرب العراقية البريطاني في مايس 1941. وبعد انهيار ثورة مايس التحررية خضـع العراق للسـيطرة البريطانية وزُجَّ بكثير من الوطنيين والقوميين في السجون ولاقت الحركة الوطنية انتكاسة كبيرة.

قررت الحكومة البريطانية في عام 1947 عرض القضـية الفلسـطينية على الأمم المتحدة. ووضـعت هذه القضـية في جدول أعمالها، وشـكلت لجنة خاصـة للتحقيق فيها وتقديم توصية لحلها. وقد أوصى أغلب الأعضاء بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية. لكن قرار التقسـيم قوبل باسـتنكار واسـع في أرجاء الوطن العربي، وخرجت مظاهرات صاخبة في بغداد تستنكر قرار التقسيم ونددت بمواقف الدول الكبرى التي أيدت مشروع التقسيم إلا أن هذه التظاهرات قوبلت بشدة وقسوة من قبل رجال الشرطة وتم تفريقها. واسـتنكرت الأحزاب العلنية قرار التقسـيم وأخذت الصـحف الحزبية الأخرى تطالب بوجوب وضـع الخطط العملية لإنقاذ فلسطين والوقوف في وجه تنفيذ قرار التقسيم.

أعلنت الحكومة الأحكام العرفية في (15 مايس – 1948) بسبب اندلاع حرب فلسطين، فساد العراق جو من الإرهاب السياسي، فانكمشت الحركة النقابية واعتقل رؤساء نقابات العمال، وقامت الحكومة بإغلاق نقابة عمال الموانئ.

عقدت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية اجتماعًا في (10 نيسان 1948) وقد بحثت وضع العرب المتأزم في فلسطين، وأوضح أمين الحسيني أن موقف المدافعين العرب في منتهى الحراجة والخطورة وانتقد أعضاء اللجنة العراق والسعودية لأنهما تأخرا في تقديم الأسلحة للمجاهدين الفلسطينيين، وطالبوا العراق بما يلي:

1- إرسال لواء من الجيش العراقي ليرابط في حدود فلسطين من ناحية شرق الأردن لمراقبة الوضع وتقوية معنويات المدافعين عن فلسطين.

2- القيام بإرسال الأسلحة الثقيلة إلى المجاهدين الفلسطينيين.

واشتد موقف الشعب العراقي ومنظماته السياسية في انتقاد الحكومة لعدم إسراعها في إرسال الجيش إلى فلسطين للقتال إلى جانب المجاهدين ضد العصابات الصهيونية الاستيطانية، فخرجت المظاهرات الصاخبة وأضرب طلاب المدارس الثانوية والنقابات العمالية وساروا هاتفين بحياة فلسطين. وتوجهت هذه التظاهرات إلى مجلس الوزراء فألقى رئيس الوزراء محمد الصَّدر كلمة وعد فيها بتنفيذ مطاليب المتظاهرين التي تضمنت:

1- إرســـال الجيش العراقي إلى فلســـطين لإنقـاذهـا ونجـدة المجـاهـدين الفلسطينيين.

2- إرجـاع نظـام الفتوة في المـدارس وتـدريـب الطلاب والطـالبـات تـدريبًا عسكريًا.

3- أن تعلن الحكومة موقفها المبدئي من قضية فلسطين.

بدأ العراق إرســـال قوا ته إلى فلســـطين تنفيذًا لقرار ا لجامعة العربية القاضي بالتدخل العسكري في فلسطين من أجل إنقاذها من الصهاينة والوقوف بوجه قرار التقسيم، ولمنع الا ضطراب والفوضى بعد زوال الانتداب وعدم قيام سلطة شرعية تخلفه. وقد أ سندت القيادة العامة للجيوش العربية إلى الملك عبد الله، وقد عقد قائد القوات العراقية اجتماعًا مع الملك عبد الله في 8 أيار 1948، لدراســـة الوضـــع في الأراضي الفلسطينية وللإطلاع على خطط القيادة العامة. فاستنتج القائد العراقي في خلال هـذا الاجتماع أن الحكومـات العربيـة لم تتفق على خطـة معينـة. ولاحظ أن للملك عبد الله اتصـــالات مع بعض الحكومات العربية مثل مصرـ لحل القضـــية سلميًا، وهذا لا يتفق مع ما كان يظهره الملك عبد الله من حماسه للقضية الفلسطينية، وعما كانت تفكر به ســـورية ولبنان اللذان كانا أكثر جدية في القضـــية الفلســـطينية، وأخيرًا لا ينســـجم مع البســـالة والشـــجاعة التي أبداها الجندي والضـــابط وهما مدفوعان بعوامل وطنية قومية.

وكانت الاستعدادات العسكرية المطلوبة في القوة العراقية غير مهيأة، وتنقصها المعلومات عن العدو، والأهم من كل هذا أنه لم تكن هناك خطة حركات تلائم حربًا مهيأة سلفًا ليمكن في ضوئها تحشيد القوات الكافية لتنفيذها، بالإضافة إلى عوامل عربية تتصل بجدية الدول العربية في هذه الحرب، وعوامل عالمية تتصل بمواقف الدول الكبرى من هذه الحرب.

تطور الأوضاع حتى انتفاضة 1952

وجرت الانتخابات في ظل حكومة محمد الصدر، وبعد انتهائها قدم محمد الصدر استقالة حكومته في 16 حزيران فقبلت في 23 حزيران بعد أن بقي في الحكم 5 أشهر، وبالرغم من أن الصدر قد نجح في تهدئة غضب الشعب إلا أن سلطته المتساهلة قد سببت ضعفًا في إدارة الدولة، فاختار الوصي عبد الإله مزاحم الباجه جي لتشكيل الوزارة.

تعرضت القوى الوطنية والأحزاب السياسية للضغط والإرهاب والمطاردة، عندما سيطر المؤيديون لمعاهدة بورتسموث على الحكم في وزارة الباجه جي وهي الوزارة التي أعادت الثقة لموقعي المعاهدة بتعيين شاكر الوادي وزيرًا للدفاع وعودة صالح جبر ونوري السعيد إلى بغداد. مما أدى إلى استياء المعارضة في البرلمان، فشنت حملة ضد وزارة الباجه جي وضد اضطهاد الوطنيين. كما أعلنت الأحكام العرفية مما أدى إلى أن يعلن حزب الأحرار والوطني الديمقراطي تجميد نشاطيهما في مطلع كانون الأول عام 1948.

وأصدر الحزبان بيانات شرحا فيها تطور الأوضاع في العراق وسياسة الوزارة في محاربة الحياة الحزبية. ولم يبق من الأحزاب العلنية سوى حزب الاستقلال الذي استمر في ممارسة نشاطه السياسي ولكنه كان محدودًا أيضًا.

واجهت الوزارة صعوبات جديدة بسبب موقفها من القضية الفلسطينية وعدم مساندتها للجيش المصري المحاصر في الفالوجة، وخرجت المظاهرات تطالب باستئناف القتال في فلسطين ونجدة الجيش المصري. ونتيجة للمشاكل الكثيرة التي واجهت الوزارة فقد قدم الباجه جي استقالته في 6 كانون الثاني 1949 فعهد إلى نوري السعيد بتأليف وزارته الجديدة بهدف إنقاذ الوضع في فلسطين، إلا أن نوري السعيد سحب الجيش العراقي من فلسطين مما مكن العصابات الصهيونية من احتلال مواقعه، كما قرر نوري السعيد تأليف حزب سياسي يضم مختلف الأحزاب الوطنية فألف حزب (الاتحاد الدستوري) في 21 نوفمبر 1949، وأصدر جريدة باسم جريدة الاتحاد الدستوري، كما ألف سامي شوكت أحد المقربين لنوري السعيد حزب الإصلاح وأصدر جريدة الإصلاح، ثم قدم نوري السعيد استقالته في (10 ديسمبر 1949) وخلفه في الحكم علي جودت الأيوبي وكان من أهم أعمال وزارته إلغاء الأحكام العرفية في أواخر عام 1949 مما أدى إلى عودة النشاط إلى الحركة الوطنية، وكان علي جودت قد قدم استقالته في الأول من شباط عام 1950

بسبب معارضة المهيمنين على توجيه الحكم لسياسة التقارب مع مصر التي قامت بها وزارة علي جودت، وبسبب تدعيمها للجامعة العربية ورفضها التدخل في شؤون سوريا ومحاولة ضمها للعراق، وعلى أثر الاستقالة كلف توفيق السويدي بتأليف الوزارة الجديدة وشكلت الوزارة في 5 شباط 1950 وقرر حزب الاستقلال الاشتراك في هذه الوزارة.

شهدت بداية الخمسينات بداية لأحزاب كبيرة في العراق فتحسنت ظروف الحركة الوطنية، واستأنف الحزب الوطني الديمقراطي نشاطه السياسي (آذار 1950) وظهرت منظمات جديدة مثل نادي البعث العربي، إلى جانب عودة النشاط النقابي والعمالي، وتأسيس حزب سياسي جديد هو حزب الجبهة الشعبية المتحدة، وبروز تنظيم سري ثوري جديد هو حزب البعث العربي الاشتراكي.

قابل هذا النهوض الجماهيري نشاط يميني تمثل بإنشاء أحزاب حكومية مثل حزب الإصلاح والاتحاد الدستوري والأمة الاشتراكي، ولقد شهدت الخمسينات نشاطًا قويًا لإقامة التكتلات والأحلاف العسكرية العدوانية ضمن مخططات تهدف إلى تطويق المعسكر الاشتراكي وتعزيز المعسكر الغربي. وكانت منطقة الشرق الأوسط ذات الموقع الاستراتيجي المهم والثروات النفطية تحظى باهتمام بالغ من قبل دول الغرب ولذلك وضعوا في مقدمة مهامهم إقامة الأحلاف العسكرية في المنطقة.

وهيأوا للعراق دورًا نشيطًا في تلك الأحلاف بسبب موقعه الاستراتيجي ووجود طبقة حاكمة مؤيدة لتنفيذ مشاريعهم، وكان النضال ضد الأحلاف العسكرية ومخاطر حرب عالمية جديدة يجتذب إلى ساحة النضال الوطني أوساطًا واسعة من جماهير الشعب وأصبح محورًا للنشاط الوطني العام. وقد اقترنت تلك الفترة بسلسلة من الا ضطرابات الطلابية في كلية بغداد ومعاهدها وذلك في سبيل الحرية الأكاديمية وحرية العمل الطلابي.

وكان لتأميم النفط الإيراني الذي أقدمت عليه حكومة (مصدق) عام 1951م أثر فعال في تحرك الشعب العراقي للمطالبة بحقوقه المهضومة وفي تعميق وعيه بأهمية النفط في الصراع ضد السيطرة الاستعمارية، وقام الشعب وأحزابه الوطنية بالمطالبة بتأميم النفط. وقبلت شركات النفط الاحتكارية المفاوضات لتعديل الاتفاقية، وفي شباط 1952 تم توقيع اتفاقية (المناصفة في الأرباح) التي ضمنت للشركات التحكم في كمية الاستخراج والأسعار وغيرها مما يعتبر تقييدًا للمناصفة وهذا ما دعا القوى الوطنية أن تعارض هذه الاتفاقية بشدة وأن تنظم إضرابًا سياسيًا ناجحًا شمل القطر بأسره في (19 شباط 1952) وأدى إلى الاصطدام مع قوة الشرطة، كما عارضت الأحزاب السياسية الوطنية هذه الاتفاقية بشدة، فقد أعلن حزب البعث العربي الاشتراكي في بيان دعا فيه إلى رفض اتفاقية النفط بشدة وإحباط كافة المشاريع الاستعمارية.

وكان لتأثير الأحداث في البلاد العربية وخاصة في مصر أثر على الشعب العراقي، فعندما هب الشعب المصري مطالبًا بإلغاء معاهدة 1936 والجلاء الفوري للجيوش البريطانية اضطرت حكومة مصطفى النحاس إلى إلغاء هذه المعاهدة. وهب الشعب العراقي لنصرة الشعب العربي في مصر في كفاحه العادل ضد الإنكليز ونظمت الأحزاب الوطنية إضرابًا ناجحًا في 14 تشرين الثاني 1951 ساهمت فيه جميع فئات الشعب.

وكان للثورة المصرية تأثيرًا على الأحداث في المنطقة العربية وخاصة في العراق حيث أعطت دفعة قوية للمعارضة في العراق.

انتفاضة تشرين الثاني 1952

بعد أن اجتمع مجلس الأمة وقرر إجراء انتخابات جديدة استقال نوري السعيد في (10 تموز 1952) ألف الوزارة من بعده مصطفى العمري في الثامن عشر من تموز 1952 ليقوم بإجراء الانتخابات البرلمانية، وفي هذا الوقت حدثت الثورة في القطر المصري في 23 تموز 1952 وأطاحت بالنظام الملكي وقد أعطت هذه الثورة المصرية دفعة قوية للمعارضة في المعارضة في العراق، فأخذت الأحزاب الوطنية تطالب بالإصلاح العام، ففي 28 تشرين الأول 1952م قدم حزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي وحزب الجبهة الشعبية مذكرات إلى الوصي عبد الإله مستنكرةً الأوضاع ومطالبة بتغييرها تغييرًا جوهريًا شاملاً،

كما قدم حزب الأمة الاشتراكي مذكرة إلى رئيس الوزراء في هذا الشأن، وأيدت الأحزاب السرية مطالب الأحزاب الوطنية فقد أعلن حزب البعث العربي الاشتراكي في بيان إلى جماهير العربية طالب فيه بـــ (إلغاء معاهدة 1930 وتوحيد الجهود للنضال من أجل التخلص من شرورها وأدان تعاون السلطة الحاكمة مع الاستعمار، ودعا الشبيبة العربية للنضال في سبيل وحدة العرب وحريتهم وفي سبيل تحقيق المجتمع العربي الاشتراكي الجديد) ولم يشذ عن هذه الأحزاب سوى حزب الاتحاد الدستوري الذي يرأسه نوري السعيد الذي شن حملة عنيفة على مطالب الأحزاب زاعمًا أنها غير دستورية.

ثم دعا الوصي عبد الإله إلى مؤتمر عقد في البلاط الملكي لمناقشة الوضع السياسي في البلاد وقد حضر الاجتماع رؤساء الأحزاب ورؤساء الوزارات للإجابة على المذكرة، ووعدهم بإجراء انتخابات حرة بدون أي ضغط أو تأثير على أي من الناخبين وفي 2 تشرين الثاني 1952 أصدرت الأحزاب الوطنية بياناتها بمقاطعة الانتخابات وعزت أسباب المقاطعة إلى انعدام الجو الديمقراطي وتفشي الإرهاب والسجون إضافة إلى القوانين الرجعية للانتخابات، وطالبت بإشاعة الحريات الديمقراطية والانتخابات المباشرة.

وكان إضراب طلاب كلية الصيدلة الشرارة التي فجرت الوضع ؛ ففي (26 تشرين الأول 1952) أضرب الطلاب احتجاجًا على القوانين الجديدة التي أصدرتها عمادة كلية الصيدلة، وقد استمر الإضراب حتى يوم 19-11-1952 حيث اضطرت عمادة الكلية إلى التراجع وإلغاء القانون.

ولكن في نفس الوقت وقع اعتداء على طلبة كلية الصيدلة في 19 تشرين الثاني 1952، فأعلن طلبة الكلية الاستمرار في الإضراب وقد استغلت الأحزاب السيا سية حادثة كلية الصيدلة ففي 20 تشرين الثاني 1952 أضربت بقية المدارس والكليات استنكارًا للحادث. ومع تطور الأحداث السريع سقطت وزارة مصطفى العمري وأحبطت محاولة تشكيل وزارة مماثلة برئاسة جميل المدفعي وكان المتظاهرون يطالبون بتشكيل وزارة وطنية ائتلافية وقد كان الهياج معبرًا عن الوضع السياسي في العراق حيث كانت الطبقات المثقفة والفقيرة في المدن في حالة ثورة ضد الحكومة والنفوذ الأجنبي، ولم تتمكن الشرطة من إعادة الأمن والنظام، لذلك دعى الجيش للتدخل ولكن بأمر عدم إطلاق النار، وقد حثَّ تطور الحوادث الوصي عبد الإله لدعوة نور الدين محمود رئيس أركان الجيش لتأليف الحكومة، فألفها في اليوم نفسه، وفي مساء ذلك اليوم أذاع بيانًا أعلن فيه أن الوصي منحه الثقة بتأليف الوزارة واستلام مسؤولية الإدارة وحفظ الأمن في البلاد، ودعا الشعب للخلود إلى السكينة وعدم تعكير صفو الأمن في البلاد، ودعا الجيش للقيام بواجبه، وأعلنت الأحكام العرفية ومنعت المظاهرات والتجمعات

وكذلك منع حمل الأسلحة، وأغلقت الأحزاب السياسية وعطلت الصحف، ولكن على الرغم من كل ذلك استمرت المظاهرات وشملت أنحاء البلاد كافة وطالب المتظاهرون بإسقاط الحكومة وتأليف حكومة وطنية، فشنت الحكومة العسكرية حملة اعتقالات شملت جميع قوى الشعب الوطنية ورغم ذلك لم تستطع الحكومة إنزال ضربة كبرى بالحركة الثورية الوطنية. لقد فشلت الانتفاضة في تحقيق هدفها الرئيسي- في إقامة حكومة وطنية ديمقراطية إلا أنها من الجهة الأخرى عمقت الوعي الوطني بين الجماهير وزادت من عزلة الهيئة المسيطرة ودربت الجماهير وخاصة الجيل الجديد من الشباب على معارك الشوارع وأجبرت الحاكمين على إجراء بعض التنازلات وتحقيق بعض المطالب منها الانتخابات المباشرة للنواب.

ومن الدروس الهامة التي قدمتها انتفاضة تشرين الثاني 1952 ضرورة وجود جبهة وطنية بشكلها التام والرسمي عاملاً من عوامل فشل الانتفاضة.

كان الأسلوب الذي قمعت به الحكومة انتفاضة الشعب في تشرين الثاني 1952 انعطافًا في سياسة الحكم في العراق، إذ لم يعد يكفيها ما كانت تمارس من أسلوب الحكم الشديد تحت ستار نظام برلماني مزيف بل أخذت تمارس الحكم الديكتاتوري السافر باسم الأحكام العرفية.

وفي تلك الأجواء أجريت الانتخابات للمجلس النيابي وفق مرسوم رقم 6 لسنة 1952 الخاص بإجراء الانتخابات على درجة واحدة في 17 كانون الثاني 1953 كما طالبت الأحزاب الوطنية. وقد أجريت الانتخابات وفاز معظم النواب بالتزكية ولم يكن المجلس الجديد بأفضل من المجالس السابقة.

وقدم نور الدين محمود استقالة وزارته في 22 كانون الثاني 1953. وشكلت حكومة مدنية هي حكومة جميل المدفعي في 29 كانون الثاني 1953، وفي 4 مايس انتقلت السلطات الد ستورية إلى الملك فيصل الثاني فقدم جميل المدفعي ا ستقالته في 5 مايس 1953 وفي السابع من نفس الشهر ألف المدفعي وزارته الجديدة. وعندما شكلت الحكومة الجديدة تقدمت الأحزاب الوطنية بمذكراتها مطالبة بإلغاء قرار غلق الأحزاب، وبإلغاء الأحكام العرفية وبرفع الرقابة عن الصحف، ولم تستجب الحكومة لأي من المطاليب فأخذ الحقد الشعبي يتصاعد رغم الأحكام العرفية ورغم كل أساليب القمع الوحشية فأضرب عمال النفط في مصفى الدورة في مايس 1953 وتبعهم عمال السكك، كما أضرب العمال في شركة نفط البصرة احتجاجًا على عدم استجابة الشركة لمطالبهم التي تقدموا بها ومنها ما يتعلق بتأسيس نقابات عمال الشركة، وقد رفضت الشركة بعض مطالب العمال مما أدى إلى نشاط الأحزاب في البصرة فأعلنت الأحكام العرفية في المدينة، وقد أيدت الحركة الوطنية مطالب العمال، فأصدر حزب البعث العربي الاشتراكي بيانًا حيًا فيه نضال العمال وهاجم الوزارة لإسنادها شركات النفط وضربها للعمال الأحرار ودعا للإضراب العام في يوم الثلاثاء 15-12-1953

وقد استجابت الجماهير لهذه الدعوة بشكل واسع وأرسل العمال في بغداد احتجاجًا كما أضرب عمال شركة دخان الرافدين في بغداد إضرابًا رمزيًا تأييدًا لمطالب عمال البصرة، كما أضرب طلاب المعاهد العالية إضرابًا رمزيًا تأييدًا لموقف عمال شركة نفط البصرة وطالبوا بتحقيق مطالبهم. وبعد أن رأى فاضل الجمالي رئيس الوزراء معارضة نوري السعيد صاحب الأكثرية البرلمانية لأعمال ومشاريع وزارته وبعد أن فشل في حل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة فقدم استقالته في 19 نيسان 1954 وأسندت الوزارة إلى أرشد العمري فألفها في 29 نيسان 1954 وحل المجلس النيابي في اليوم نفسه، وأجرى الانتخابات النيابية ثم قدم استقالته في 17 جزيران 1954 وقبلت استقالته في 4 آب 1954 وكلف نوري السعيد بتشكيل الوزارة فأخذ يمهد الطريق للانتخابات بعد أن حل البرلمان، كما أصدر مراسيم عديدة مقيدة للحرية، وقد احتجت الأحزاب السياسية على صدور هذه المراسيم وطالبت بإلغائها وقد حلت وزارة نوري السعيد الثانية عشرة الأحزاب السياسية القائمة على أثر صدور مرسوم الجمعيات رقم 19 لسنة 1954 في 22 أيلول 1954.

حلف بغداد

قررت الكتلة الغربية تشكيل منظمة دفاع عن الشرق الأوسط ضد الكتلة الشرقية، ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح بالنظر للمعارضة بالدرجة الأولى، وبعد أن فشلت هذه المحاولة بدأت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية محاولاتها مع الرجال الرسميين في كل من العراق وتركيا وأخذت تعقد المباحثات، وفي أواخر عام 1954 زار نوري السعيد لندن ثم عرج على تركيا في تشرين الأول 1954 واتفق الجانبان على تأسيس جبهة أمن مشتركة بينهما، واستمرت المفاوضات بين الجانبين لوضع الصيغة النهائية لميثاق التعاون بين العراق وتركيا، ثم زار وفد تركي العراق برئاسة عدنان مندريس في 23 شباط 1955 ووقع الاتفاق مع العراق في 24 شباط 1955، وفي 5 نيسان انضمت بريطانيا إلى الميثاق العراقي التركي، وبعد هذا الانضمام أصبح الميثاق يعرف بحلف بغداد وطلب إلى كل من باكستان وإيران الانضمام إليه فانضمت باكستان في 23 أيلول 1955 وإيران في تشرين الثاني 1955.

وقد جرت محاولات لضم الدول العربية الأخرى للحلف ولكنها رفضت الانضمام وكان لمصر وسوريا الدور الأكبر في هذا الرفض. ونتيجة لتوقيع العراق على الحلف قامت في بغداد مظاهرات ضخمة رغم محاولات نوري السعيد كبتها بكافة الوسائل وانتقد الوطنيون العراقيون سلوك الحكومة هذا، واعتبروا حلف بغداد ضمانة للكيان الصهيوني،

فقد جاء في تصريح وكيل وزارة الخارجية الأمريكية (أن حلف بغداد ينطوي على ضمانة لإسرائيل وأن سياستنا تقوم على خلق جهاز دفاعي عسكري في منطقة الشرق الأوسط تكون فيه إسرائيل جنبًا إلى جنب مع الدول العربية).

أدركت الأحزاب السياسية والتنظيمات العسكرية للضباط الأحرار بصورة خاصة والشعب العراقي بصورة عامة أخطار هذا الحلف على القومية العربية وعلى أهداف الثورة العربية، ولذلك قررت مقاومة هذا الحلف منذ اليوم الأول للتوقيع عليه، فرفعت المذكرات الاحتجاجية وسارت التظاهرات في الشوارع استنكارًا لهذا الحلف وازداد عمل التنظيمات العسكرية للتعجيل بقيام الثورة تخلصًا من الحلف ومن النظام الذي ارتبط به.

تبلور العمل الوطني

ونتيجة للظروف التي كانت تمر بالعراق عادت فكرة الجبهة الوطنية من جديد وعلى أسس جديدة وبنطاق أوسع مما كانت عليه عندما تشكلت لخوض انتخابات 1954. ففي عام 1955 – 1956 جرت اتصالات بين القوى الوطنية المختلفة، وكانت الانتصارات التي أحرزها الشعب العربي في سوريا ومصر والأردن وتصاعد الثورة في الجزائر وافتضاح الدور الذي لعبته الحكومات العراقية تنفيذًا لسياسة حلف بغداد،

وتأزم الوضع الداخلي وتعقيد مشاكل الجماهير الحيوية وتدهور الاقتصاد الوطني وتقييد الحريات الديمقراطية كل هذا صهر الأفكار الوطنية المتبادلة في بودقة الجبهة الوطنية.

وعندما وقع الاعتداء الثلاثي على مصر التهبت المشاعر الحية في الشعب العراقي وكان لهذا الأمر دوره الحاسم في تبلوره في جبهة الاتحاد الوطني، فاجتمع في اليوم الأول من العدوان ممثلون عن حزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي وحزب البعث الاشتراكي والحزب الشيوعي والمستقلين، ويلاحظ في هذا الوقت نشاط حزب البعث العربي الاشتراكي. واستمر نوري السعيد في اضطهاد الحريات والمضي في سياسته والابتعاد عن الحركة العربية بالإضافة إلى فشل ميثاقه (بغداد) في تأدية مهمته الأساسية وخاصة بعد انكشاف دوره المؤيد للعدوان الثلاثي على مصر، ونتيجة لهذه الظروف التي كانت تمر بالعراق، قدم نوري السعيد استقالته في 8 حزيران 1957 وألف علي جودت الأيوبي وزارته في اليوم نفسه. ولقد تألفت الوزارة الجديدة دون أن تستطيع إجراء أي تبديل جوهري في مخطط السياسة الغربية لأن سياسة العراق الداخلية والخارجية أصبحت خاضعة لتوجيهات أجهزة حلف بغداد. كما أن الوزارة الجديدة لم تقم منذ تأليفها بأي إجراء من شأنه رفع الآثار السلبية التي تركتها وزارة نوري السعيد، وفي أثناء حكومة علي جودت الأيوبي قدم بعض السياسيين عريضة في العاشر من شهر آب 1957

ناشـــدوا فيها الوزارة بإزالة آثار الأحكام العرفية والإفراج عن المحكومين السـياسـيين وإفسـاح المجال لحرية التنظيم الحزبي والنقابي وإطلاق حرية الصـحافة العراقية. وفي 16 تشرين الثاني 1957 قدم علي جودت الأيوبي استقالة وزارته بعد أن أخفق في حل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة، وألف الوزارة من بعده عبد الوهاب مرجان وفي عهده تم إعلان الاتحاد بين العراق والأردن بتاريخ 11 شـــباط 1958. وفي 2 آذار 1958 أقيل عبد الوهاب مرجان عندما عارض نوري السعيد بإرسال الجيش العراقي إلى سوريا، فألف نوري السعيد وزارته لدعم الاتحاد وإعداد دستور الاتحاد وحل مجلس النواب وإجراء انتخابات نيابية جديدة، وفي 27 آذار 1958 حلت الوزارة مجلس النواب وقررت إجراء الانتخابات النيابية لإعداد لائحة لمجلس النواب لإقرار الاتحاد الهاشـــمي وتعديل القانون السـياسي، وفي 5 نيسـان 1958 أصـدر 53 سـياسـيًا بيانًا إلى الشـعب العراقي طالبوا فيه بمقاطعة الانتخابات وعدم الاعتراف بالمجلس والتبرؤ من الالتزامات التي يقرها، وفي 14 آيار 1958، وفي 19 آيار قبلت الاستقالة وألف نوري السعيد وزارة الاتحاد العربي الهاشمي إلى حين وقوع ثورة 14 تموز 1958.

الأمور التي عجلت بثورة 14 تموز 1958

كانت ثورة 14 تموز 1958م نتيجة حتمية للنضال الجماهيري المميز، فقد ناضل الشعب العراقي بكل فصائله السياسية والمهنية ضد السلطة الحاكمة التي كانت تستهين وتتلاعب بمقدرات الشعب فكانت الانتفاضات المستمرة الدؤوبة من أجل الوصول إلى الهدف وهو الثورة وهي المعبّر الحقيقي للنضال الجماهيري. وقد أدت عوامل عديدة إلى التعجيل بقيام هذه الثورة نذكر منها هنا ما يأتي:

1- أن رجال الحكم كانوا منهمكين بشؤون البلد السياسية ولم يهتموا بالأمور الاجتماعية والاقتصادية بغية تطويرها، كما أن شباب الجيل الجديد فقد صبره من بطء التقدم فراحوا يسعون إلى دفع عجلة التقدم والتطور باللجوء إلى الأساليب الثورية ويمكن أن يقال أن ثورة 14 تموز 1958 هي استجابة الجيل الجديد لتحدي الجيل القديم. لقد ظلت السلطة السياسية مدة طويلة في يد نخبة حاكمة تمثل الجيل القديم الذي كان يقف دائمًا في وجه مشاركة الجيل الجديد الذي لم يظهر انسجامًا مع سياسة هذه الجماعة الحاكمة، كما أن طريق التمثيل السياسي عبر مجلس النواب أقام حدودًا أمامهم بسبب تعنت الفئة الحاكمة لذا أرغموا الجيل الجديد على اتباع أساليب العنف لتحقيق مطامحه السياسية.

2- كانت الوحدة العربية هي الدعوة التي تجسد آمال العرب في تحقيق مستقبلهم المشرق في حياة حرة جديدة، وبلغ الاندفاع نحو الوحدة ذروته عندما أُعلنت وحدة مصر وسوريا في شباط من عام 1958 فحققت أول أماني العرب قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها، فهذه الوحدة الجديدة أضعفت الكيانات القديمة وخاصة في العراق وقادت إلى انهيارها واتخذ الحاكمون في العراق قرارًا بإعلان الاتحاد مع الأردن الذي لم يُلَبِّ طموح الشعب العربي ولم يساند مطالبته بإسناد حركات التحرير العربية في المنطقة.

3- كانت الحاجة إلى ثورة اجتماعية من الأمور التي أعطت دفعًا للتغيير الذي حصل في 14 تموز 1958. وكان الحكام يبررون عدم اتجاههم إلى التغيير بعدم وجود ثروة تمكنهم من التغيير وأن أي تغيير يتطلب رؤوس أموال كبيرة ومجموعة من التقنيين. وعندما توفر للعراق المال اتجهت بصورة مباشرة إلى تنفيذ مشاريع واسعة للسيطرة على خطر الفيضانات التي يتعرض لها العراق، فراحت تنشئ السدود. وكانت القوى المعارضة تدرك تمامًا أنه على الرغم من توافر رؤوس الأموال فإن الأوضاع الاجتماعية لم يكن يكتب لها التقدم إلى درجة يستطيعون معها أن يلعبوا دورهم في الشؤون العامة. وكانت الإصلاحات الدستورية، كتعديل قانون الانتخابات، وإعطاء بعض الحريات، لم يستفد منها سوى فئة من الناس

إضافة إلى أن استعمال سياسة العنف لا يجدي لقمع حركات الجماهير. لذا لم يبق أمام الجيل الجديد وسيلة لإزالة أولئك الحكام سوى اللجوء إلى الجيش

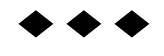
وهذا ما حدث فعلاً صبيحة 14 تموز 1958.

4- سياسة العراق الموالية للغرب أثارت موجة معارضة شديدة عند الزعماء العراقيين الساخطين على سياسة الحكومة الخارجية والداخلية، ففي السياسة الخارجية تم انتماء العراق إلى الأحلاف العسكرية (حلف بغداد) وكذلك الوقوف بوجه حركة القومية العربية التي كانت مصر ـ تتزعمها آنذاك، أما في السياسة الداخلية فإن استعمال الحكام لأساليب العنف والاضطهاد والحكم الديكتاتوري المتعسف، وعدم إفساح المجال للجماهير لأن تأخذ دورها في إبداء رأيها عن طريق التمثيل الديمقراطي، كل هذا أدى إلى عزل الحكم وإضعافه.

5- إن قيام أول تجربة عربية في العصر الحديث وهي وحدة مصر و سوريا عام 1958. التي تعتبر نواة للوحدة العربية الكبرى من المحيط حتى الخليج العربي، ألهب شعور الوحدويين وحساسهم في سائر الأقطار العربية الأخرى ولاسيما في العراق، ولقد كان من ردود فعل الوحدة إعلان الاتحاد الهاشمي الذي يفرّق وحدة الصف العربي، فقد جاءت هذه الخطوة مخيبة لآمال الوحدويين، وأدى عجز الزعماء المدنيين عن القيام بثورة إلى تحفيز ضباط الجيش وحملهم على التدخل فكانت ثورة 14 تموز في العراق سنة 1958 تأييدًا لمقت الجماهير العربية تجزئة الوطن العربي، وتعبيرًا عن رغبتها في إسقاط حكم الأقاليم المستغلة.

الفصل الثالث

حياة العائلة المالكة في العراق



خطابات التهديد

أيها الخائف الحذر ماذا ينفعك الحذر
يوم يأتيك القدر لا ينجو من المقدور الحذر

هذين البيتين الركيكين من الشعر في خطاب تهديدي معنون إلى الأمير عبد الإله وهو مكتوب بخط رديء على ورق عادي مو ضوع داخل مغلف صغير على مكتب الأمير في البلاط، وتحت هذه الأبيات آية من القرآن الكريم بخط الأمير... ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ .

كان ذلك في أوائل عام1957 وكنت يومها ضابط خفر البلاط الملكي أقوم بواجب حراسة مكاتب العرش.

وفي أوائل عام 1958 وضعت قطعة من الرخام بطول ثلاثة أمتار وعرض متر واحد، وقد نقش عليها بالخط العربي البديع نفس البيتين الشعريين اللذين أنفذهما صاحبهما، يهدد بها الأمير في السنة الماضية، وبأن الأمير قد أمر بصنع وكتابة الرخامة في إيطاليا لتوضع في واجهة قصره الجديد في منطقة القصور الملكية التي لم يكن قد كمل بناؤها بعد.

أما على واجهة قصره حيث كان يقيم – قصر الرحاب – فقد وضعت رخامة كتبت عليها الآية الكريمة:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:26] .

وهكذا فلم يقدر لأي من الرخامتين أن تظل في مكانها طويلاً... فعندما جاء القدر... تحطمت معه رخامة القصر الجديد.

أما رخامة قصر الرحاب فقد تهشمت واحترقت بنيران الثورة يوم 14 تموز 1958 وبها انتزع الملك.

فسبحانه وتعالى عزت مشيئته ...

القصور الملكية

يشــكل الطريق العام المؤدي من قلب مدينة بغداد والمخترق جانب الكرخ... متجهاً إلى حدود مدينة بغداد الغربية حيث يرتبط بطريق بغدا – الحبانية- الرمادي فالحدود العراقية الســوري – الأردنية. يشــكل هذا الطريق الشــارع الرئيسي- العام الذاهب من وســط بغداد إلى منطقة القصــور الملكية في الحارثية حيث يشـاهد القادم بالســيارة إلى بغداد... وقبل أن يبلغ جسر- الخر الذي يجري من تحته نهر الخر الراكد ينهض إلى اليمين قصر الزهور المحاط بحدائق وا سعة تكاد تحجبه ببا سق أ شجارها فلا يبين منه سوي قمم قبابه الحمراء الشاهقة. وقصر الزهور هذا قد بناه المغفور له الملك فيصل الأول ليكون مسكناً له، ولكن وافاه الأجل قبل أن يتم بناؤه.

وبعد أن يعبر المار جسر- الخر متجها نحو جانب الكرخ في بغداد، وعلى مســافة تبعد أقل من (150) متراً من الجسر- يسـمق قصر- الرحاب على الجانب الأيسر- من الطريق، تفصــله عن الطريق العام حديقة ذات أشــجار كاليتوس عالية... ثم يكون طريق خاص... وبعده، يجبه نظر الرائي مبني القصر الذي بناه المغفور له الأمير عبد الإله ابن الملك على بعد أن غدا وصــياً على العرش أثر مقتل الملك غازي في حادث اصطدام سيارته.

وكان يشاطره القصر ابن اخته المغفور له جلالة الملك فيصل الثاني ملك العراق. وتعيش معهما، الملكة نفيسة أم عبد الإله وجدة فيصل لوالدته.

والأميرة عابدية أخت عبد الإله، وخالة فيصـــل، وكذلك الأميرة هيام زوج الوصي عبد الإله.

وكانت الأسرة المالكة الصغيرة هذه قد هجرت قصر الزهور إلى قصر الرحاب، لما أحست به من هاجس الشؤم، إذ مات الملك فيصل الأول قبل أن تحتويه حجراته، ثم قتل ولده الملك غازي والأسرة المالكة فيه، وفيه كذلك وافت المنية الملكة عالية أم فيصـــل الثاني... وهكذا جانبه ســاكنوه ليبتعدوا عن ذكري الموت الذي لف والدي فيصل في طفولته وصباه.

قصر الزهور:

يقع قصر الزهور مواجهاً مباني ثكنة الحارثية التي تضم مقر وسرايا معسكر فوج الحرس الملكي الأول، يفصـــله عنها طريق معبد يؤدي إلى قصرـ ا لحارثية ويحيط بالقصر سور عال من ثلاث جهات، أما جهته الخلفية فيلتف حولها نهر الخر الراكدة مياهه الآســنة حيث تتكاثر الحشرـات والهوام، ويفصـــل النهر عن القصرـ غابة من المزروعات البرية المهملة لم تمتد إليها يد التشـــذيب. وهذه الأحراش بالذات كانت يومها حديقة القصر الخلفية. أما حديقته الأمامية فكانت موضع العناية والتشذيب.

والقصر ذو طابقين اثنين، يقرب بطراز بنائه إلى شكل القلاع الأوروبية الصغيرة ذات الأبراج المستدقة العالية، وتبدو عليه من الخارج أثار القدم... يريم عليه سكون موحش، مغلق الأبواب والنوافذ التي أرخيت عليه الستائر حتى لا يكاد المرء يتبين معالمه الداخلية من الخارج، وتحدق به من الجوانب والخلف برك طينية من الماء الراكد، ومزروعات برية مهملة.

وقد خففت الحراسات فيه ولم تعد ربايا جنود الحرس تستخدم الأبراج الستة المحيطة بجوانب السور الخارجي، وبقيت أربع نقاط حراسة في كل نقطة خمسة جنود مسلحين بالبنادق لحماية أثاث القصر من اللصوص، وتقع في حد القصر من جهته الشمالية دار غير كبيرة للسينما، وإلى جانبها حوض سباحة صغير محاط بسياج خشبي، أما المرائب فتقع خلف القصر حيث يربض عدد من السيارات الملكية القديمة، وفي عدادها السيارة التي لقي فيها الملك غازي مصرعه، وقد بقيت كما هي، وكنفوا بتغطيتها بقماش صفيق.

ويشكل الطريق الضيق المنطلق من باب حديقة قصر الزهور متجهاً صوب نهر دجلة، الحد الفاصل بين ثكنات فوج الحرس الملكي والقصر نفسه، حيث يفضي إلى بيت صغير وقديم ذي طابق واحد، مبني من الآجر الطيني يسمي قصر الحارثية. وهذا البيت هو مثابة الملك غازي وقد اعتاد أن يختلي فيه منصرفاً لشؤونه وحياته الخاصة.

ويمتد الطريق على شكل منعطف محاذ ساقية ماء بعرض مترين تستخدم لإسقاء المزارع الأهلية المحيطة بالقصر، ثم وعلى بعد ما يقرب من مئة متر، من باب قصر الزهور، يصعد هذا الطريق على معبر صغير اعتلي الساقية المذكورة. وفي هذا المكان بالذات لقي الملك غازي الأول مصرعه عندما انصرف من قصر الزهور متوجهاً بسيارته إلى قصر الحارثية. فجنحت به السيارة منحرفة عن الطريق العام حتى إذا اعتلت المعبر الصغير واتجهت يميناً اصطدمت بعمود النور الحديدي الذي تهاوي على مقدمة السيارة المكشوفة وأصاب جمجمة الملك فحطمها وقتله على الفور.

وبكل الأحوال فإن قصة مقتل الملك غازي في الحادثة المذكورة مازالت سراً من الأسرار لم تمط الأيام اللثام عن حقيقته بعد.

قصة الرحاب:

أما قصر الرحاب فيقع على الجهة الثانية من نهر الخر وعلى بعد حوالي كيلومتر واحد من قصر الزهور، ويفصل ما بينهما جسر حديدي مقام على النهر، حيث يشاهد المار عبر الجسر إلى جهة اليسار لافتة كتب عليها «طريق خاص» ينحدر به يسرة وينخفض عن مستوي سطح الشارع العام بحوالي المترين حيث يكون أول ما يصادفه، على الجهة اليسري مباني ثكنة – الرحاب – التي تضم مقر وقاعات نوم ومطبخ سرية جنود حرس قصر الرحاب، وإلى الشمال من مباني السرية تقوم اسطبلات الخيول الملكية التي كان الأمير عبد الإله مولعاً باقتنائها وتربيتها.

ويحيط بالقصر من جانبيه الشمالي والغربي بقايا مستنقعات نهر الخر الذي ركدت مياهه منذ زمن طويل، وحال لونها إلى أسود آسن وانقلبت مباءة للحشرات والبعوض. ويفصلها عن القصر أراض متروكة، كانت يوماً ما حدائق القصر، ثم بيعت هذه الأراضي ولم يتبق منها إلا حديقة صغيرة تمتد إلى ما وراء مبني القصر مسافة 50 متراً محوطة بسياج سلكي، لتكون حديقة القصر الخلفية.

وتمتد هذه الحديقة إلى جانب القصر الغربي مسافة لا تتجاوز المئة متر بعداً عن أسوار القصر الخارجية التي تفصله عن طريق جانبي خاص، بين قصر الرحاب وقصر السيد عبد الجبار محمود زوج أخت الملك غازي.

وتمتد أمام القصر حديقة صغيرة يتوسطها حوض ماء مستدير الشكل ويشكل الحوض باستدارته طريقاً لدخول السيارات إلى القصر والخروج منه ولم تكن حال حدائق الرحاب من حيث البساطة أو الإهمال بأفضل من حال حدائق قصر الزهور وقد تربعت أمامه أقفاص كبيرة تضم بعض الطيور الجميلة. ويسرح في الحدائق عدد من الغزلان البرية والبجع الأبيض، وطاووس واحد، وفي الحديقة الخلفية قام قفص حديدي توضع فيه أحياناً بعض الحيوانات الكاسرة التي يؤتي بها من شمالي العراق.

حراسة القصور:

تقوم بحراسة القصر سرية مشاه قوامها مائة وعشرون عسكرياً ما بين، ضابط وجندي، وتوزع هذه السرية على ست نقاط حراسة، وعلى رأس كل نقطة حرس ضابط صف برتبة نائب عريف وأربعة جنود والكل مسلحون بالبنادق، ومع كل واحد عشر طلقات نارية.

ونقاط الحراسة هي: نقطة حراسة مشجب السرية، نقطة حرس الباب النظامي للقصر، نقطة حرس الشرف، نقطة حرس الشمال، نقطة حرس الإسطبل والمرائب، وأخيراً نقطة حرس العرش في أبواب القصر الداخلية.

وفضلاً عن نقاط الحرس هذه كانت تجوب في حدائق القصر ثلاث دوريات، كل دورية من جنديين اثنين متنكبين سلاحهما.

ويقوم بالحراسة الخاصة داخل بناء القصر نفسه رجال الانضباط العسكري الخاص بالحاشية الملكية، وقوامهم حوالي العشرة جنود، وفي عدادهم سائقو السيارات الملكية الخاصة، وهم مسلحون بالمسدسات.

خريطة القصر:

القصر مكون من طابقين اثنين، وهو ذو باب له مدخل واسع نسبياً، يجد الداخل إليه نفسه في بهو صغير يتصدره باب زجاجي لقاعة الطعام. وقد تناثرت في هذا البهو بعض قطع الأثاث،

وتتصدره اللوحة الرخامية المكتوب عليها الآية الكريمة: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ ووضع تحتها بعض التحف الصغيرة، وأسنان فيل من العاج الخالص وقفص فيه ببغاء جميلة المنظر.

وإلى يمين البهو قاعة الا ستقبال الخا صة بالملك، وهي حجرة رحبة بعض الشيء السفراء أثناء تقديم أوراق اعتمادهم إلى الملك. كما اعتاد البلاط أن ينوط بموظف يرتدي الملابس العربية، ومكتبة على هيئة مضيفة عربية لاستقبال شيوخ العشائر ورؤسائها.

وتقع مباني العرش إلى جهة البلاط اليسري، وتطلق كلمة العرش على مكاتب الملك والأمير، والبناء مكون من طابق وا حد على طراز بيوت بغداد القديمة، ذو باب قديم يليه بهو صغير لا يتسع لأكثر من كرسي ا ستراحة، ويتصدره باب ينتهي إلى قاعة اجتماع صغيرة وضع فيها عدد من الكراسي، وخصصت لتكون مقراً لاجتماع هيئة النيابة عن الملك أثناء سفره إلى خارج العراق.

وعلى يمين البهو مكتب الملك وهو غرفة غاية في البساطة على شكل مربع طول ضلعه أربعة أمتار، يتصدرها مكتب الملك وكرسي المكتب المسمي بكرسي العرش، وفي الغرفة أريكة وثلاثة كراسي وعدد من الطاولات الصغيرة، وقد وضعت صورة زيتية كبيرة للملك غازي معتلياً صهوة جواده معلقة خلف مقعد الملك.

وأمام المكتب مدفأة رخامية نضــدت عليها صــور رئيسيـ جمهوريتي تركيا وباكســتان وملكة بريطانيا. ثم صــورة الملكة عالية والدته. وفي طرف الغرفة مكتبة صغيرة تضم بعض كتب التاريخ القديمة وقد اعتلتها صورة أخرى للملكة عالية، وصورة للملك حسين عاهل الأردن.

غرفة غاية في التواضــع والبســاطة مما يصــح معه قول أحد الخدم الذين يقومون بالتنظيف بأن غرفة أي مدير عام في الدولة أحسن من مكتب الملك.

أما مكتب الأمير عبد الإله فيقع على الجهة اليسرــي من البهو مواجهاً لمكتب الملك، والغرفة أوسع بقليل من غرفة الملك، ينسـدل على نوافذها سـتائر سـميكة، تكدســت خلفها أعداد كبيرة من الجرائد والمجلات العراقية والأجنبية، وفيها طاقم أثاث جلدي قديم، وفي صــدر الغرفة مكتب الأمير، وإلى يمين المكتب باب صــغير يفضيـ رأســاً إلى غرفة المرافقين العســكريين، وتتصــل غرفة المرافقين بقاعة طعام صغيرة، ثم ممر يؤدي إلى قلب مباني البلاط.

وعلى الحائط وفوق المكتب علقت صــورة كبيرة الحجم للملك علي والد الأمير، و صورة للملك غازي، وعدة صور للملكة عالية، و صورة للملك فيصل بالملابس العسكرية مع عبارة الإهداء (إلى خالنا العزيز....).

وعلى رف مقابل صــورة للملك فاروق ملك مصرـ الســابق، وصــورة للرئيس ترومان أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية السابقين.

وقد توزعت الحراســات في البلاط الملكي على نقطتي حرس: الأولى في الباب النظامي، والثانية في الباب الخلفي المطل على النهر، ودورية واحدة خلال النهار، ونقطة حرس من جنود خيالة الحرس الملكي المسلحين بالرماح لحراسة العرش حين وجود الملك والأمير في مكتبيهما، أما آناء الليل فينسحب حرس العرش من الفرسان لتحل محلهم نقطة حرس نظامية من جنود المشاه المسلحين بالبنادق، وتضاف دورية مشاة ثانية لتجوس ليلاً حدائق البلاط.

الأسرة المالكة العراقية

هذه صورة مجملة عن الحياة في قصر الرحاب ورسم بعض النماذج عن نمط حياة الأسرة المالكة وإلقاء بعض الضوء على شخصيات أفرادها وتصرفاتهم وأحوالهم. وكما قلنا آنفاً فإن من تبقي من الأسرة المالكة كان قد انتقل من قصر الزهور إلى قصر الرحاب ليعيش الملك الطفل اليتيم وجدته لأمه وخالته جنباً إلى جنب، في كتف الرجل الوحيد الذي هو في قيد الحياة من الأسرة في العراق وهو الأمير عبد الإله الوصي على عرش فيصل سابقاً وولي عهده لاحقاً.

لم يكن قصر الرحاب بالقصر البهيج المنظر الواسع الأرجاء، ولم يكن بناؤه تحفة معمارية، وهو بالمقارنة ببيوت الملوك والرؤساء في العالم لا يكاد يكون إلا أحد الأبنية الصغيرة الملحقة ببوابة تلك القصور، كما أن الحياة في القصر تكاد تكون شبه معدمة: فلا حركة ولا أصوات، ولا كثرة زائرين أو وافدين أو مشاهدين، أو سياح، أو طلاب متعة نظر، وإذا كان قصر الزهور أيام فيصل الأول، ومن بعده غازي الأول، ثم الملكة عالية مقصداً لبعض الوفود وأصحاب الحاجات والزوار والضيوف، فإن قصر الرحاب بعد انتقال من تبقي من الأسرة المالكة إليه بات منطوياً على نفسه انطواء ساكنيه على أنفسهم، إذ لم يكن الملك ولا الأمير محببين للفخفخة أو الظهور بمظاهر الملك والسلطان.

ملكة وأميرتـان:

وكانت تعيش في القصر ملكة وأميرتان وهن:

الملكة نفيســـــــة : جدة الملك من والدته وأم الأمير عبد الإله. وهي عجوز جاوزت العقد الســابع من عمرها، أبوها الشرـيف عبد الإله وأمها تركية، لذا فهي تتكلم العربية بلكنة تركية، عاشـت هذه السـنين الطوال في العراق بعد موت زوجها الملك علي، وهي تشـح بالسـواد من قمة رأسـها إلى أخمص قدميها تحمل سـبحة في يدها، دائبة على قراءة القرآن الكريم وتلاوة آية الكرسي، كلما نفخ البوق تحية للملك عند خروجه من قصر الرحاب أو أوبته إليه.

أما الأميرة عابدية : خالة الملك وأخت الأمير فقد ظلت عانســاً، وقد تخطت العقد الرابع من عمرها ذات ملامح تحاكي ملامح عبد الإله، وجهها أسمر مائل إلى الصــفرة، تحمل في تضـــاعيفه قســمات ألم دفين، ولا تزينه بأ ية من مســـاحيق التجميل...وشعرها اختلط سواده ببياضه، ترتدي الثياب السوداء البسيطة وتقضي جل نهارها في المطبخ تشرــف على تحضــير الطعام للأسرة، ومحاســبة الخدم على المصاريف والنثريات للقصر. ولكي تشبع عاطفة الأمومة لديها فهي تقوم بين الفينة والفينة بتربية الأطفال اليتامي والقاصرين من الأولاد والبنات إلى أن يبلغوا مبلغ الإدراك. وقد كان في القصرــ طفلان أحدهما ولد والآخر بنت، يتيما الأب والأم تعهدت الأميرة بتربيتهما، وهي في الغالب لم تحصـــل على التعليم الكافي، ولا تعدو ثقافتها ما تلقنته من دراسة خاصة في البيت أهلتها للقراءة والكتابة فقط.

أما الأميرة هيام : زوج عبد الإله فهي بنت شـيخ مشـايخ قبيلة ربيعة التي تقطن لواء الكوت في العراق، ويلقب والدها بأمير ربيعة بدلاً من شـيخ ربيعة وهي من أسرة عراقية عريقة أصـيلة، تم عقد قرانها على الأمير في عام 1953، ويبدو أن الأميرة هيام تأثرت كذلك بالجو الجامد الذي كانت عليه نساء القصر، فانطوت على نفسها وعاشت منزوية عن الناس والمجتمع أيضاً.

ونساء القصر الثلاث محجبات يتسربلن بالعباءة العراقية السوداء من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، ودرجاً على عادة الأسر العراقية فهن لا يختلطن بالحياة العامة، أو مجالس الرجال، أو المجالس المختلطة، والحفلة الوحيدة التي أقامها القصر خلال السـنتين، كانت بمناسـبة عيد ميلاد الملك وقد دعي إليها جمع غفير من الناس كلهم رجال، ولم تدع أية سـيدة إلى القصر، واكتفت الأميرات بأن تسربلن بالعباءات وجلسـن في شرفة القصر بعيداً عن الناس يتطلعن إلى الحفل من بعيد، ونادراً ما كن يخرجن لزيارة أحد ولم يكن لديهن معارف من الأصـدقاء سـوى سـيدة أو سـيدتين اعتادتا زيارتهن يومياً، والاكتفاء بالجلوس في شرفة القصر، والتطلع إلى الشارع من بعيد، أو التفرج على برامج التليفزيون.

بهذه الحياة البسـيطة عاشـت الأميرات، لا يعرفن للملك أو السـلطان من معنى، بعيدات عن الناس مما أدى إلى ابتعاد الناس عنهن، وليس في تعاملهن مع الشعب أو طريقة معيشتهن ما يحبب الناس إليهن، أو يجعلهم يذكرون

أو يتذكرون عنهن شـيئاً. وفي السـنة الأخيرة من حياتهن زاد انطوائهن على أنفسـهم، وندرت زيارة أحد لهن. وعندما أعلنت خطوبة الملك إلى الأميرة فاضـلة التركية، صادف أن جاءت إحدى السيدات لزيارتهن، لتبارك هذه الزيجة، فقالت لها الأميرة عابدية بالحرف الواحد: «والله لقد أصبحنا لا نريد الملك ولا نريد العرش... كل ما أريده وأتمناه أن آخذ هذا الشـاب وعروسـه وأعيش معهم في بيت صـغير، لأنعم برؤيته سعيداً بعد أن عاش محروماً من سعادة حنان الأبوين».

الملك فيصل الثاني:

وهكـذا عـاش فيصـل ومـات... محرومـاً ليس من حنـان الأم والأب فقط... ولكن... محروماً من السـلطة... أو بصـورة أوضـح محروماً من القابلية لأن يسـوس الناس ويمارس السلطان ويملك البلاد.

لقد كان ـــ رحمه الله ـــ آية في النبل ومكارم الأخلاق... يشرق وجهه الصبوح الوضاح بابتسامة عذبة يواجه بها الشعب في غدواته وروحاته.. يسيل قلبه الحنون يحب الناس جميعاً فينظر إلى الحياة ومشـاكلها نظرة طفل فلا يري فيها إلا كل ما هو جميل وجذاب، لقد كانت مشكلته الأساسية أنه عاش ومات وهو لا يعرف مشاكل الحكم في العراق أو بشكل أدق... لا يعرف العراق.

مات والده وهو طفل فكفله خاله الأمير عبد الإله، وهو وصي على عرشـه. وشـاءت الأقدار أن يحرم فيصـل من أبيه الملك الشـعبي الذي عاش جندياً مارس خشـونة العسـكرية وشـظفها، وقاسـم الضـباط أفراحهم وأتراحهم، فأحبه أفراد الجيش كواحد منهم، ومارس السياسـة فغامر بها وألهب حماس الشعب له بوطنيته، وكرهه لبقايا الوجود الإنكليزي في العراق.

وربما لو قدر لفيصـــل أن يعيش في كنف والده الجندي الوطني الشـــجاع لكان اكتسب وتعلم منه عشقه مهنة الجندية، وفنه في الاضطلاع بأعباء الملك والحكم.

ولم ترحم الأقدار هذا الطفل إذا ماتت أمه و هو صبي. فشاءت المقادير أن تحرمه من الشخص الآخر الذي كان الشعب يحبه ويقدره. فقد كانت المرحومة الملكة عالية والدته سيدة جليلة الشأن – محبوبة الشمائل، ترعي المؤتمرات النسائية، وتدير المبرات الخيرية. تشـــارك في الحملة النســـائية العراقية لرفع شـــأن المرأة في المجتمع، لها يوم خاص كل أسبوع يفد فيه إلى دارها عشرات النساء من مختلف الطبقات للتحدث في شـــئون الدنيا. توزع الخيرات بيدها وتعطي الفلوس للمحتاجين والفقراء وأسر جنود حرس القصر- وغيرهم. تطوعت في حرب فلسـطين سـنة 1948 ممرضـة في إحدى مســتشــفيات الميدان التي أقامتها الجمعيات الخيرية النســائية إلا أن الموت اختطفها وفيصـــل ما زال صـــبياً، فحرمه موت والدته من الحنان الروحي لأم ذات شـــخصـــية شـــعبية محبوبة، وربما لو قدر لها أن تعيش معه وهو ملك لأثرت عليه في نهجه وسلوكه في الحكم.

عاش الملك صـــباه في كلية هارو في لندن، وتأثر بطبيعة الملكية البريطانية وكون الملك يســـود ولا يحكم، مقيداً بنصـــوص الدســـتور الذي يكاد يفقد كل وجوده في شعب كشعب العراق ينظر إلى الحكم من قمته ويحكم على السلطة في رأسها.

تسلم العرش وهو لا يحمل إلا ذكريات صباه عن الحياة السلسلة التي عاشها في كلية هارو في لندن، ولا يعرف عن العراق إلا بالقدر الذي يقرؤه في الصحف البريطانية أو ما تنقله له الحاشية والمقربون.. معلومات هي أبعد ما تكون عن الدقة إن لم نقل عن الصحة، اعتلى عرش العراق وهو لا يعرف أحداً من شعب العراق، أو جيش العراق، واصطفي له ثلاثة أو أربعة من أرق الشباب العراقي عوداً، وأكثرهم ميوعة، ينقلون إليه أخبار المجتمع الناعم وأنباء حفلات أولاد الذوات، وليته عاش عيشة أبناء الذوات، وشبع من الدنيا ولهوها. لقد كان ملاكاً حتى في حياته الخاصة، إذ كان يستيقظ في الساعات المبكرة من كل صباح ليمارس بعض التمارين الرياضية، ليستحم ويتناول بعدها طعام فطوره الذي لا يعدو كوباً من الحليب وبيضة واحدة يشربهما دون أن يتناول معهما الخبز، وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً يغادر القصر متوجهاً إلى البلاط برفقة الأمير عبد الإله في السيارة الملكية تسبقه دراجة نارية لأحد رجال شرطة المرور الذي يفتح الطريق لموكبه، وتتبع سيارته سيارة المرافقين الضباط، وسيارة المرافقين من رجال الانضباط والحرس الخاص، وتحيط بالسيارات الثلاث أربع دراجات بخارية يخصص راكب الدراجة الأخيرة لاستلام العرائض والرسائل التي اعتاد بعض أصحاب الحاجات تقديمها إلى الملك لعرض حاجتهم أو مظلمتهم.

وتملأ ابتسـامة عريضـة وجهة الوديع، وهو يرد على تحية الشـعب بأحسـن منها. وباقتراح منه منع مرور الموكب الملكي في شـارع الرشـيد: الشـارع الرئيسي- في العاصـمة لئلا يسـبب تعطيلاً لمرور أصـحاب المصـالح والحاجات المسرعة، واختار طريقاً جانبية بعيدة عن الحركة والمرور لتكون سبيله من القصر والبلاط وإليهما. وفي البلاط وفي مكتبه في غرفة العرش لا يكاد المرء يري فيها ما يتم عن المسـئوليات الجسيمة والأعباء الثقيلة لرجل يقف في أعلى سدة للحكم في العراق.

فالأوراق التي تري على مكتبه لا تتجاوز بضـع وريقات عن المقابلات التي سيجريها خلال النهار لبعض الشخصيات، أو مواعيد تقديم أوراق اعتماد السفراء، أو بعض مقررات مجلس الوزراء، أو مجلس الأعمار، ثم لا يلبث أن يعود إلى القصر- عند نهاية الدوام الرسـمي لدوائر الحكومة في الدولة ليتناول طعام الغداء مع أفراد أسرته على مائدة بسـيطة، وغالباً ما يكون الطعام من صـنفين اثنين مطبوخاً على الطريقة العراقية باللحم والخضـار، وقليلاً من الأرز لا يكاد يتبلغ منه إلا لقماً معدودات.

وقد كان مغرماً بالسباحة أيام الصيف حيث اعتاد السباحة في الحوض الخاص في قصر الزهور يومياً. أما أيام الشتاء فكان يمارس هواية إطلاق النار من بنادق الصيد والمسدسات على أهداف موضوعة في تلة موجودة في قصر الرحاب لهذا العرض.

أما مساء فإنه يذهب مع الزوار لمشاهدة فيلم سينمائي في السينما الخاصة بقصر الزهور، ثم لا يلبث أن يتناول معهم طعام العشاء، في حوالي الساعة التاسعة ليلاً يخرج الزوار لتطفأ الأنوار في غرفة استقباله، ويصل الهاتف إلى ضابط خفر قصر الرحاب بأن جلالته آوي إلى فراشه في حوالي الساعة العاشرة من مساء كل يوم.

ولم يكن في حياته الخا صة يختلط بالناس أو يهتم بانتقاء من يريد أن يصادقهم، أو يتعرف عليهم، وكل أوقاته وزياراته واستقبالاته مرسومة له حسب تقدير دائرة التشريفات الملكية في البلاط، وهو من جانبه لم يكن يطالب أو يرغب بالمزيد من معرفة الناس، لذلك فنادراً ما كان يخرج من القصر إلا بالمهمات الرسمية.

وكانت الحفلة الوحيدة التي يسهر فيها خلال العام إلى الساعات المبكرة من الصباح هي حفلة اختتام فعاليات نادي صيد ابن آوي الذي يرعاه خاله الأمير، ولم يشاهدن من قرب من الخمرة لحظة واحدة في حياته، وتشمئز نفسه من رائحة الدخان واللفائف، فلا يدخن وليست له أية علاقة غرامية أو تصرفات شاذة، أو أية بادرة من بوادر اللهو والصخب التي اعتاد كل الشباب في العالم يمارسوها، ولم يكن قصر الرحاب إلا صومعة ساكنة جامدة لا حركة فيها ولا حياة.

وأثر على نفسية الملك أنه كان مريضاً مصاباً بالربو يشكو من اختلاطات في صدره كلما تعرض للبرد أو الحر، لذلك لم يكن فيصل جندياً عسكري الطبع، وهو بهذه الصفة فقد أهم عنصر من مقومات وجوده على رأس دولة يكون الجيش فيها السلاح الوحيد بيده، والذي يمكن له بعد ضمانه أن يناور به رجال السياسة والأحزاب وطلاب الحكم في العراق، فحتى بالنسبة لضباط حرسه الخاص، فنادراً ما تكلم معهم أو اهتم بأمرهم، أو سأل مستفسراً عن أحوالهم.

وتراه في بزته العسكرية عندما يحضر في مناسبة رسمية، وقد انزوى في أحد الأركان يهمس في أذن خاله أو يتحدث قليلاً إلى كبير مرافقيه العسكريين.

ولم يكن تصرفه أحسن مع بقية الضباط في بقية الوحدات، فعندما يصادف أن يكون حاضراً في إحدي المناورات أو قائماً بزيارة إحدي الوحدات تجده معتكفاً جانباً، وقد وقف يتطلع بوجهه البشوش إلى الضباط الشبان الملتهبين حماسة ونشاطاً والمتلهفين لتقديم أنفسهم، وعرض قابليتهم، والتكلم مع قائدهم الأعلى، ليجد هؤلاء الضباط الشبان الذين هم في مثل عمر جلالته، ويمكن أن يكونوا أحسن الأصدقاء والزملاء له، يجدون أنفسهم وقد جلسوا بعيدين عنه، وهو يستمع إلى حديث عن آخر أنباء مباريات كرة القدم التي فاز بها فريق منتخب الجيش.

وقد يحكم عليه بأنه غير قادر على الخطابة والكلام، فقد كان في مجالســه الخاصــة يتكلم العربية بلهجة عراقية خالصــة، ويحاول أن يفخم كلماته لتخرج ملء فمه، وبصــوت جهوري نســبياً، إلا أنه سرعان ما يخلط الكلمات والمفردات الإنكليزية بالجمل العربية التي يســوقها لإكمال التعبير عما يريد أن يفصــح عنه. وهو بهذا ليس بالمقصر ـ لأنه ليس بقادر على أن يغير ما درســه طيلة حياته من علوم وآداب باللغة الإنكليزية، وكانت اللغة العربية تأتي في المقام الثاني من دراســته. لذلك كان من الطبيعي أن يبتعد عن مجالس الكلام، ومرابع المناقشــات والمداهنات والمناورات اللفظية ولغة الديماغوغية السياسية وغيرها من فنون البلاغة والفصاحة.

وعندما كانت بغداد تثور فيها براكين العواطف الوطنية الجياشــة أثناء العدوان الثلاثي على مصرـ عام 1956 قابلة وفد الأســاتذة والجامعات وشرحوا له الموقف كله في الجامعات، وعندما أسهبوا في وصف المعارك التي وقع فيها عدد من الطلاب قتلى وجرحى... تكلم جلالته وقال والدموع تترقرق في عينيه...(أعدكم بأنني سأبحث الأمر مع المسئولين عن هذه الحوادث).

وبدلاً من أن يقوم جلالته ببحث هذا الأمر مع المســئولين.. دلف إلى غرفة خاله الأمير عبد الإله وروى له القصــة بكاملها.. وكأنه بذلك ألقى عن عاتقه مهمة يعلم ســلفاً أنه لن يســتطيع الاضــطلاع بها لأنها من اختصــاص وشــئون الملك الحقيقي. الملك غير المتوج (صاحب السمو الأمير عبد الإله ولي العهد).

الأمير عبد الإله:

عندما نتحدث عن الأمير عبد الإله لابد من التوقف لحظة، فالحديث عن هذا الرجل ليس من السهولة بمكان، وقد يكون معقداً تعقيد نفسيته وتعقيد أيام حكمه؛ لأن الرجل حكم العراق ومر بأيام صعبة في حكمه مدة 18 سنة تقريباً.

تم اختياره وصياً على العرش وولياً للعهد، واندلعت الحرب العراقية البريطانية في عام 1941 وهرب ومن معه إلى جانب الإنكليز ثم دخل بغداد من وراء جيوشهم، فأعدم من أعدم من قادة العراق وجيشه، وسجن من سجن منهم، واعتقل الألوف من رجال العراق.

ومن الغريب أنه حتى بعد أن انتكست الثورة التي طوحت به... وما أصاب الثورة بعدها من عثرات، وما ارتكبه رجالها من أخطاء أدت إلى قيام رد فعل نفسي– وعقلي معاكس بين أفراد الشعب العراقي...

فلقد ظل الشعب على رأيه في كراهيته للأمير عبد الإله، في الوقت الذي بدأ فيه الشعب يتفهم حقيقة النظام الملكي الذي أدي رجاله خدمات جلي في تكوين العراق وبنائه. وبدأ المواطنون العراقيون يغيرون رأيهم في نوري السعيد، فيرون فيه سياسياً قديراً محنكاً قاد سفينة الدولة إلى ما فيه خير الشعب العراقي.

لقد أدت الأحداث الكبرى في حياته إلى تأصيل وتأجج كراهية الناس له. فلقد ابتدأ حياته السيا سية و سط موجة قلق و شك وو ساوس تغلي في صدور الشعب، لأن مصرع ابن عمه الملك غازي في حادث السيارة اعتبرها الشعب العراقي جريمة قتل دبرها وشترك فيها عبد الإله، وذهب ضحيتها حبيب الشعب الملك غازي.

جاء عبد الإله إلى وصاية العرش وهو موظف صغير في وزارة الخارجية العراقية، وكل ما عرف عنه ولعه الشديد بالخيول والمسابقات والمراهنات عليها. وفي ليلة وضحاها ارتقي هذا الأمير الصغير والموظف البسيط سدة عرش العراق دون أن يتوقع أي من الناس ذلك، وسرعان ما أعلن سياسته بأن انضم إلى المجموعة التي كان الملك غازي يناصبها العداء، ويقال : إن انتخابه وصياً للعرش لم يحظ بتأييد مجلس الأمة، وكان الاتجاه العام يميل إلى تعيين الأمير زيد بن الحسين عم الملك غازي ليكون وصياً على العرش، لما عرف عن الرجل من تقوي ومحبة للخير، وبعد عن المشاكل، فضلاً عن كونه جندياً محارباً، وسياسياً عاش أحداث الثورة العربية الكبرى. إلا أن إصرار الملكة عالية أدي إلى أن يقف العميد (الفريق أول) طه الهاشمي قائد الجيش ليعلن لمجلس الأمة بأنه إذا ما تم انتخاب الأمير زيد وصياً فلن يستطيع أن يكبح جماح الجيش، في القيام بثورة، بحجة أن زوجة الأمير زيد تركية.

وهكذا اعتلي الأمير عبد الإله الوصاية على العرش... وكل أصابع الشعب تشير إليه متهمة إياه بقتل غازي.

وبعد عامين بالضبط من وصايته على العرش قام الجيش العراقي بحركة عسكرية ضــد القوات البريطانية التي كانت موجودة في قاعدة الحبانية إبان الحرب العالمية الثانية، وكان عبد الإله ترك بغداد والتجأ إلى القوات البريطانية. ثم لم تدم حملة الجيش العراقي طويلاً، إذ سرعان ما تم ســحقها ودخلت طلائع القوات البريطانية بغداد، وفي صحبتها الأمير عبد الإله الذي أطبق على خصومه وتربع وصاية العرش ثانية، ومن جديد امتدت أصابع الشعب نحوه متهمة إياه بالخيانة العظمي. وفي عام 1948 عندما رجع الجيش العراقي من حرب فلسطين، وقد خسرت بقية الجيوش العربية المعركة، عادت فارتفعت الأصوات من جديد متهمة إياه ببيع فلسطين.

و عاش الر جل بعد ها أ حدا ثاً خطيرة في حياة العراق الســياســية والحزبية ومظاهرات الشـعب، والاصـطدامات ما بين الشـعب والشرـطة في شـوارع بغداد ووقوع عد من القتلي والجرحي.

يقول الملازم فالح حنظل: قدر في أواسط شـهر تموز عام 1956 أن التحق بلواء الحرس الملكي فسـنحت لي بعض الأحداث والظروف المرة والحلوة التي عشـتها مع الأمير لأدرس بعض خصائصه وطباعه. مزاياه ومناقبه.. نواقصه

وأخطاءه لأكتب تاريخاً صــغيراً عن العامين الأخيرين من حياته التي اختتمها بمصرعه وجميع أفراد أسرته في قصر الرحاب، صباح يوم 14 ت موز 1958.

كنت دوماً وأنا في مجلسه، أطيل النظر والتحديق في معالم وجهه، وشكل جسمه، وطريقة كلامه، وأنا أحاول أن أغور وأســبر نفســية هذا الأمير الذي لاحقته الإشاعات ولاكته الألسن في العراق طويلاً.

كان قد تجاوز الخامسة والأربعين من عمره، إلا أنه يبدو وكأنه في الثلاثين، أسود الشــعر، ذو وجه مليح، وعينين واسـعتين وحنك مســتدق. بشرـته حنطية ميالة إلى التورد في الخدين، إلا أن شكل وجهه العام كان يشبه وجوه ممثلي السينما الذين تعهد إليهم الأدوار المكروهة. وكنت دائماً أكرر مع نفسي-: لو أن سـموه كان نجماً سـينمائياً لأسندت إليه أدوار الرجل الشرير، فقسمات وجهه تتسم بالصرامة والقسوة، وهو إذا تطلع إلى أحد فكأنه يســبر أعماقه ويتناهي إلى أغواره. وفي اللحظة الأولي التي شاهدته فيها بعد ثلاثة أيام من التحاقي بالحرس الملكي إذ كنت أقوم بواجب ضابط خفر قصرــ الرحاب. عندما مر الموكب الملكي أمام ثكنة الرحاب التي كنت أقف ببابها على قارعة الطريق الخاص أؤدي التحية للموكب الملكي، كان أول ما طالعني وجه الملك، وكله ابتسامة، ونظرة كلها عطف ومحبة، وهو ينحني بجسمه

حتى يكاد رأسه يخرج من نافذة السيارة، وهو يرد على التحية. وإلى جانبه جلس الأمير وقد ركز نظراته عليّ وكأنها سهام تريد أن تخترق جسدي، وهو يرفع بصره من قمة رأسي وينزله إلى أخمص قدمي وقد أطبق شفتيه وتغضن صدغاه وزوي ما بين حاجبيه، يطيل الإمعان والتمعن في هيئتي، وبقي يتطلع إلى وهو جالس في السيارة التي كانت تسير ببطئ، ورأسه يدور عكس اتجاه السير، أي بالاتجاه الذي كنت أقف فيه إلى أن ابتعدت كلياً عن نظره، فعاد إلى جلسته. وعندما عاد من البلاط إلى القصر حدث نفس الشيء، نفس التحية والنظرة المسالمة عن الملك، وذات النظرة الفاحصة المتفحصة من الأمير.

وكنت قد أبلغت قبل أن أتسلم خفارة الرحاب أو يترك الضباط القصر والثكنة بعهدتي ليذهبوا إلى بيوتهم مساء، أن أكون حاضراً ذلك لأن الأمير قد يخطر له بفي أية لحظة أن يرسل في طلبي ليتعرف علي. هذا وقد أفهموني كيفية التصرف والتكلم في حضرته، وكان الكلام كله منصباً على الأمير، ولم يكن للملك أي نصيب فيه.

وبالفعل، فقد حدث في تلك الليلة، أن الأمير لم يبعث بطلبي من الثكنة إلى القصر، بل جاء بنفسه يتمشى قبل العشاء من القصر إلى الثكنة، وفوجئت به على مسافة أمتار قليلة مني، وعندما كنت أؤدي التحية له كان يمعن للنظر إلى وجهي وقيافتي العسكرية، وعندما لاحظ ارتباكي توجه إلى مقعد موجود في الحديقة،

وجلس عليه وأمرني بالجلوس قربه، وقدم لي لفافة، وعلق واحدة بين شـفتيه يدخنها بهدوء، وجلسـنا نتحدث لأول مرة. ولا مشـاحة، بأن المر – من اللحظات الأولي لمشاهدة – يحكم عليه بأنه رجل عصبي المزاج، متقلب العواطف، من النوع الذي سرعان ما ينفعل، وسرعان ما يهدأ. يتكلم بصوت خافت أجش وبسرعة، لا تكاد السيجارة تفارق شـفتيه، فهو مدخنهم. أنيق بشـكل معتدل في ملبسـه معتدل الجسـم ربعة، أميل إلى الطول، رشـيق القوام، ولم تظهر عليه من سـمات من قارب الخمسـين من العمر، سـوي أثر بسـيط هو بعض الامتلاء في بطنه، ويبدو شيء من الاحمرار في الجفن السفلي، لكل من عينيه وذلك من أثر الشراب.

وتحمل قسـمات وجهه ملامح امرئ تجرع من الحياة حلوها، وذاق بعض مرارتها كذلك، وانتهي إلى الإيمان ببعض الحقائق بالنسـبة إلى الشـعب العراقي، بحيث أثر إيمانه بهذه الحقائق الصائبة أو المغلوطة حسب ما يقدرها هو بنفسه في الطريقة التي اختطها وحكم بها الشعب.

لم يكن الأمير بعيداً عن الجيش البتة، بل أكاد أجزم بأن لا صـديق له في عداد المدنيين سـواء أكان وزيراً أو مديراً أو عاملاً. كل أصـدقائه من رجال الجيش، وكل مقربيه من الضباط، وتحضرني في هذا المقام أسماء عشرات الضباط الذين حباهم ورعاهم وصـادقهم وعاش معهم، سـواء من ضـباط الحرس الملكي أو من بقية الوحدات، ممن لا أري ضرورة لسرد وقائع صـداقاتهم مع الأمير وما آلوا إليه بعد مقتله.

ولم يكن بالإنسـان العادي البسـيط، فشـأنه شـأن أغلب رجال الحكم ورؤسـاء الدول والأمم، غريب في أطواره، عجيب في تصرفاته، وتبدو آية ذلك في اختياره الرجال المقربين إليه؛ أو اصطفائه الرجال الذين يقربهم إلى الملك، والذي كان (أي الملك) لا شأن له بأية حال من الأحوال، أو شكل من الأشكال بهذا الاصطفاء.

فلقد كان الأمير يختار ضربين من الضباط لتشكيلة حرسه ومرافقيه ومريديه الخاصين الذين يعيشون معه ومع عائلته كل ساعة من ساعات النهار تقريباً، فهو دائماً يضم مجموعتين، مجموعة من أحسن وأشد الضباط قابلية وعلماً وضبطاً، ومجموعة أخرى من ضباط يحار المرء في تقدير سبب إعجاب الأمير بهم واختياره إياهم.

فقد يكون أصدقاؤه ضباطاً أمثال عارف عبد الرزاق وناظم الطبقجلي وجسام محمد الشاهر وهم من ضباط الجيش العراقي اللامعين، كما تجده من الناحية الثانية، وقد اصطفى ضابطاً آخر معروفاً في كل أوساط الجيش بأنه يعاشر امرأة يهودية.

وهو في كلا الاختيارين بتصرف تصرفا طائشاً، إذ سرعان ما يجد هذا الضابط الصديق الجديد نفسه، وقد انتقل فجأة من حياة ضابط عادي إلى حياة أقرب ما تكون إلى حياة الأمير نفسه، فيحيطه بمظاهر الملك والفخفخة والسفرات والرحلات إلى خارج العراق، وقضاء الليالي الطوال مع الأمير وصحبه،

ثم لا يلبث الأمير أن يختار ضـابطاً آخر كصـديق ليمرره بنفس البرنامج الملكي الذي مر به سـلفه، والذي أخذ هذا السـلف يشـعر بأنه أصبح صـديقاً من الدرجة الثانية ثم الثالثة، ثم ينقل فجأة إلى وحدات الجيش ليعود إلى ممارسـة خشـونة الحياة العسكرية من جديد.

هكذا كان شـأنه... أن أحب أحداً رفعه في ليلة وضـحاها إلى القمة، ثم لا تلبث أن تخبو جذوة الحب والصـداقة في قلبه لينزله مرة أخرى إلى طبيعته الأولي، وهي الحضيض عنه إذا ما قورنت بالأيام الحلوة التي عاشها مع الأمير.

ولهذا، فلم يستطع الأمير أن يجمع حوله مريدين وأصدقاء صدوقين. فهو، فضلاً عن كونه يفتقر إلى بعض الصـفات الأصـيلة في القيادة والرئاسـة، لم يكن بقادر أن يستقطب حول شـخصـيته الضـباط، بحيث يحوز إعجابهم ويسـلب إرادتهم بكونه صـاحب مقدرة عسـكرية أو عقلية علمية أو حتي كلامية. وغالباً ما كان يعتقد بأن الفرد العراقي بسـيط، وأن أحسـن وسـيلة لجمع القلوب حوله أن يظهر في مجالسـه الخاصـة بمظهر الرجل البسـيط غير المتعالي أو المتغطرس، وهكذا تجده في بعض أمسـياته معنا، قد انقلب إلى إنسـان جديد غاية في الانشراح والبسـاطة والكرم... يغني ويصـفق معنا، ولا يكف عن المزاح وإلقاء النكات، وتدبير المقالب المضـحكة لنا. وقد حدث في احدي المرات أن جلب جلد دب وألبسـه أحد رجاله من ذوي الأجسام الضخمة، وأدخله ليلاً إلى غرف الضباط النائمين في الثكنة،

وهو «يسـخسـخ» ضـاحكاً من مناظر الفزع والخوف والركض بملابس النوم خوفاً من هذا الدب القادم إليهم في منتصف الليل!.

ولما كان السـفر والترحال محباً للإقامة في ربوع أوروبا لقضـاء فصـل الصـيف والعطل، فإن زمرة الضباط الذين كانوا من مؤيديه، وحتى الذين يرغبون في التزلف إليه والتقرب منه، فحافزهم لذلك رغبتهم في الاسـتمتاع بنعيم هذه السـفرات الخلابة، وليس تقرباً من المسـئولية أو حباً لخدمة عقيدة أو مبدأ معين؛ إذ لم تكن لأهداف الأمير السـياسـية أو الوطنية أو القومية طريقة متميزة لكي يشرحها أو يدرسها أو يلقنها مريديه ومصطفيه من الضباط، بحيث تكون له مدرسة فكرية أو سياسية أو عسكرية معلومة.

وهو حتى في لقاءاته معناً منفرداً أو جماعياً، أي عندما توجد مشـكلة سـياسـية، والحقيقة أن لقاء جماعياً بضباط الحرس الملكي لمناقشة قضية خطيرة لم يحدث إلا مرة واحدة وذلك في قضـية الملازم كمال مجيد ضـابط الحرس الملكي الشـيوعي (والتي سيرد تفاصيلها في الفصل القادم)، فهو لا يتكلم إلا بضع جمل ثم يلبث مستمعاً أو يتصرف فجأة، وقد صادف أن جمعتني الظروف الخاصة بأول تماس بين تشكيلات الضـباط الأحرار... والحرس الملكي، فكنت في مناسـبات عديدة قد اجتمعت به منفرداً لبحث هذا الموضوع الخطير،

فكان في الغالب يظل مستمعاً، ثم لا يلبث أن ينبس ببضع كلمات تبدو في نبراتها، وكأنه زهق من الحديث وأصابه الملل... وهي إشارة إلى بالانصراف.

لم يكن الرجل بالمتكلم المفوه والخطيب البليغ... كان يتكلم العربية بلهجة عراقية تشوبها مسحة خفيفة من لهجة حجازية، لا يكاد المرء يلتقطها إلا إذا أطال الإصغاء إلى حديثه.

وكما قلنا: كان سلاحه الوحيد في استمالة قلوب الرجال إليه هو ظهوره بمظهر البساطة؛ لأن علاقاته الشخصية معنا كانت في الغالب الأعم تتم على أساس النكتة التي كان يلقيها في ساعات مرحة، وبساطته، ولين عريكته، وانفتاح قلبه. لذلك يمكن القول بأن ضباط الحرس الملكي لا يتذكرون عن الأمير مآثر أو وقائع معينة اللهم ما عدا الساعات المرحة الحلوة التي كانوا يقضونها معه وهو في أوقات انشراحه.

وهو لكونه رب العرش الفعلي لم يكن يهمل ضباط حرسه، بل تكاد عيناه النفاذتان تتغلغلان في أغوارهم، فلا يفوته ــ مثلاً ــ أن يرسل في طلب أحد الضباط لأنه لاحظ بأن هذا الضابط لا يحمل شريط أحد الأوسمة على صدره، أو يوقف سيارته ويقل فيها أحد الجنود، ويطلب من آمر فوج الحرس الملكي معاقبة آمر سرية، أو فصل هذا الجندي السيئ القيافة غير اللائق الهندام.

إلا أنه رغم ذلك، كان يخطئ أحياناً في تصعيد النوعية التي يقربها إليه من الضباط، وككل البشر لابد أن يخطئ في اختيار صديقه، ولعمري أو بقي حياً لشاهد بأم عينيه كيف أنه لم يكن يحب أو يرغب ببقاء المرحوم النقيب ثابت يونس، وأبقاه مرافقاً بالوكالة ولم يسند إليه منصب مرافق أصالة بحجة أن النقيب ثابت جاف الطبع، جدي أكثر من اللازم، بل حدث أن قابل أحد الملازمين من أمراء الفصائل في الكلية العسكرية فاستلطفه، وبنفس اليوم صدرت الأوامر بنقله مرافقاً عسكرياً خاصاً للأمير، وأدخله برنامجه الحافل فجأة دون أية مقدمات، وفي صباح يوم 14/ تموز/ 58 وعندما أطبقت قوي الثورة على القصر، كان ثابت يونس يقدم نفسه شهيداً، وهو يذود حتى آخر لحظة عن الواجب المكلف القيام به أما المرافق الأصيل فقد اختفي في داره ثم لم يلبث أن صب كل ما في قاموس اللغة من شتائم على الأمير والأسرة المالكة عندما جلب للتحقيق معه.

ويبدو الأمر أكثر غرابة في ابتعاده عن بعض أهله، فقد كان لا يحب السيد عبد الجبار محمود زوج أخت الملك غازي، والذي كانت داره تجاور قصر الرحاب ويمر من أمامه نفس الطريق الخاص. وكانت الأوامر قد صدرت بمنع القاصدين دار عبد الجبار من المرور أمام قصر الرحاب.

كما أن أحد أقاربه من الشرفاء تخرج من الكلية العسكرية عام 1955 وتطوع لصنف خيالة الحرس الملكي، فلم يرض الأمير بهذا، بل أبعده إلى إحدي الوحدات خارج بغداد وأبقاه هناك بحجة أن هذا الضابط يسمع ويري بعينه تحركات ضباط الوحدات ضد العرش، ويحاول أن ينقلها للأمير... كان يقابل في الكثير من المرات بأن يوقد الأمير إليه أحد رجال انضباطه الخاص ليطرده بصورة لبقة من القصر.

لم يكن الأمير بالكريم السخي المفتوح اليد والجيب، وكثيراً ما كنا نسمع من ضباط الحرس القدامي بأن الأمير تغير كثيراً، فبعد أن كان يغمر الضباط بهداياه ومنحه، وبخاصة عندما يرجع من إحدى سفراته إلى خارج العراق، إلا أنه أصبح في السنين الأخيرة لا يكترث بالهدايا والمنح، ولم نكن نحن ضباط الحرس ننعم بأي امتياز في الراتب أو المخصصات أو الكيفية أو الوضعية عن بقية ضباط وحدات الجيش. وإذا كان القصر على أيام الملوك السابقين محجاً ومقصداً للمحتاج والجائع فقصر الرحاب كان يوزع مبلغاً من المال لا يتجاوز الثلاثة أو الأربعة دنانير على عدد من الفقراء يفدون صباح كل جمعة إلى القصر. وأسبوعاً بعد أسبوع قلت المنحة هذه، وانقطع المعوزون عن الحضور؛ لأن ما يحصلون عليه لا يكفي أجور السيارة ومتاعب النقل من قلب المدينة إلى قصر الرحاب.

وأما المرة الوحيدة التي تسلم فيها جنود الحرس الملكي هدية من القصر ـ فكانت في إحدى مناسبات وجود الوحدة كلها في الإنذار، فأمر الأمير بتوزيع تفاح على الجنود جيء به إلى القصر ـ من شمالي العراق، فكانت حصة كل جندي... تفاحة واحدة.

وكان البلاط الملكي ومكتب الأمير في مباني العرش... هو مكتب ملك البلاط الفعلي إذ لا يكاد أحدنا يدخل صباحاً غرف العرش في انتظار تشريف الملك والأمير، إلا وجد على مكتب الأمير أكداساً من الرسائل والمظاريف المختومة والمعنونة بكلمة سري أو مكتوم أو خاص وكلها واردة من دوائر رئاسة أركان الجيش أو الاستخبارات العسكرية أو الأمن العام والملحقيات والسفارات الخارجية. أما منهج المقابلات فيكون عادة حافلاً بالأسماء والألقاب والمناصب؛ ولذا فإن واجبنا في حراسة مكاتب العرش كان منصباً على حراسة مكتب الأمير، أما مكتب الملك فلا شأن لنا به لعدم وجود ما يستأهل الاهتمام. وما أن ينتهي الدوام إلا وجدت أكوام أخرى من الرسائل تكدست بأيدي المرافقين لتؤخذ إلى القصر ـ، وامتلأت المدفأة ببقايا عشرات الرسائل المحروقة والمتلوفة. أما منفضة الدخان أمامه فتكاد تطفح ببقايا اللفائف التي دخنها خلال ساعات الدوام.

أما عندما نكون في قصر الرحاب، فيقتصر زوار الملك على الاثنين أو الثلاثة من أصدقائه الخلص على حين أن زوار الأمير هم في الغالب من كبار الضباط والوزراء والمسئولين عن المخابرات والأمن العام وغيرهم، مما يدل على أن الأمير لم يكن يقضي وقته عبثاً، بل يكون ليله كذلك حافلاً بالأحداث والأوامر، وتستمر أحياناً الزيارات إلى ساعة متأخرة من الليل بحيث لا تنتهي المقابلات إلا ونحن نتنفس الصعداء بانتهاء الواجبات الأساسية في القصر.

ولم يكن يخاف على الأمير أنه غير محبوب من الشعب العراقي، وفي إحدى جلساتي الخاصة معه، عندما أحيل على التقاعد أحد ضباط كتيبة خيالة الحرس الملكي، بعد أن تواترت الأنباء عن كونه شيوعياً. قال لي: لقد حاولت أن أعدل أمر هذا الضابط عدة مرات، وفي كل مرة كنت أرقيه من رتبة إلى رتبة أعلى بعد أن أبعث بطلبه وأحدثه بأن الاستخبارات العسكرية لم توص بترفيعه إلا بأمر مني... إلا أن هذا كله لم يردعه.

ثم أردف قائلاً: «شأن هذا الضابط شأن الشعب العراقي.. اعمل الخير لهم.. ولا تطلب جزاء أو شكوراً.. بل اعمله وكأنك ترميه بالشط».

وحدث مرة أن أطلق أحد ضباط الشرطة النار على بعض السكاري في أحد ملاهي بغداد، وتبين أن الضابط كان سكران كذلك. فلما استجوب أدعي بأن السكاري أخذوا بسب وشتم الأمير مما حمله على أن يسكتهم برصاص مسدسه.

ولما تبين كذب وادعاء هذا الضــابط، وأن الحادث لا يعدو أن يكون قضــية خمر ونساء، بعث الأمير في طلبه واستجوبه بنفسه.

ولما انتهي الضــابط من حديثه قال له الأمير: «اســمع يا بني... أنا أعرف بأنني مكروه، ومهما فعلت للعراقيين فأنا مكروه منهم... ولو أردت أن آمر بإطلاق النار على كل من يكرهني ويسبني لاستنفذت رصاص رجال الشرطة كافة...!.

وحتى عام 1956 لا يمكن القول بأن الأمير كان خائفاً أو متوقعاً حركة ما في الجيش؛ رغم أنه يمكن اعتبار عام 1956 العام الذي تمخضت خلاله حركة الضباط الأحرار في الجيش، بل يمكن القول بأنها أبلغت صوتها إلى مسامع الأمير.

فعندما كانت بغداد تغلي بالحقد على النظام الحاكم كله.. كانت كافة وحدات الجيش توضــع في الإنذار، وكان حديث الضــباط حتى في وحدات الحرس الملكي يدور حول معارك الجيش المصري في تصديه لقوى العدوان، وفي حين كان الحديث يسرــي همســاً بين ضــباط الحرس الملكي: تري ما هو موقف حكومتنا من الحرب القائمة في مصرــ؟ كان يدور علناً في بقية الوحدات العســكرية، ويصرــح به باتهام الحكومة العراقية بالوقوف ضد مصر في حربها.

إلا أن الأمير لم يكن مهتماً أو فائقاً ما يدور حوله من أحاديث لأنه في إحدى ليالي تلك الأيام العصبية أراد أن يرفه عن نفسه وعن الضباط؛ فألبس أحد حراسه قناعاً مخيفاً وجاء به ليلاً إلى وحدات الحرس الملكي يطرق الأبواب على الضــباط ليفزعهم منظر الحارس المشوه الوجه... و«يسخسخ» الأمير ضاحكاً ملء فيه.

قد يكون السـبب في تفسـير تصرـفات الأمير وتبرير أخطائه أن اهتمامه مشـدود بشـكل خاص نحو العراق ومشـاكل الحكم في العراق، وأنه كان على الدوام يتلقي المعلومات الخاطئة أو المنحرفة عن أحوال الشـعب ومشـاعر الناس تجاهه أو تجاه الأحداث والوقائع السيا سية، بحيث تبني لنفسه فكرة أن أي ا ضطراب سياسي في العراق إنما هو مجرد موجة عنف غوغائي لا تستند إلى أي مطلب سياسي معقول.

ففي نفس المناسـبة السـابقة، أي أيام العدوان الثلاثي على مصرـ وما رافقه من أ حداث بغداد الدامية، كنا نحن زمرة ضـباط الحرس الملكي للبلاط في الثكنة، وصـدف أن فتحنا موضـوع العدوان على مصرـ، فانبري آمر سرية حراسـة البلاط، وهو أحد أصـدق أصـدقاء الأمير يقول: لقد كنت أمر مع سريتي يوم أمس في أحد الشـوارع عنـدمـا هجم علي الأطفـال وهم يصرـخون: عماه...هيـا أهجم على الإنكليز... وأردف قائلاً: إننا كلنا مع مصر في حربها ...بل إن الشعب كله مع مصر في محنتها... وفي مسـاء اليوم التالي صـادف أن زارنا الأمير الذي بدأ عابس الوجه، مقطب الأسارير، وبدت نبرات صوته تغشوها العصبية والانفعال عندما قال:

«أن سـمعت بأنباء المظاهرات في بغداد... هذول المتظاهرين ايش إيردون...؟» قالها وهو يتطلع إلى وجوهنا...يريد الجواب منا..!

فانبري المقدم آمر السرـية قائلاً: «ايش أيريدون سـيدي.. ما هم إلا زمرة تريد السلب والنهب والتخريب.. لا شيء غير السلب والنهب والتخريب!».

وسكتنا كلنا...وغرق الأمير في تفكير عميق.

وكانت الشائعات الغرامية، وأخبار العلاقات الجنسية قد لاحقته طيلة أيام حكمه وحياته، فقد تزوج وطلق مرتين قبل زواجه الثالث والأخير.

و قد قيل الكثير عن علا قا ته ببعض بنات العائلات في بغداد. وارتبط اسمه بقضية زواج من فتاة إحدى الأسر الكريمة أثارت لغطاً في المجتمع، كما أوشك في إحدى المرات أن يتزوج فتاة إنكليزية...إلا أنه اضطر إلى التراجع تحت ضغط أصدقائه.

ولا ينكر أن بعض تصرفاته الشخصية كانت من أهم الأسباب في إثارة القيل والقال عنه، فالرجل يكاد مدمناً على الخمرة يحب السفر ويطيل البقاء والإقامة في ربوع أوروبا وغيرها من البلدان، وقد بقي أعزب مدة طويلة؛ مولعاً بسباق الخيول والمراهنات، واقتراض المال من مالية دوائر الوقف، كما ساهم بتأسيس شركتين صناعيتين. ناهيك عن أن هيئته ومنظره العام بوجهه الجميل ونظراته الثاقبة القلقة – مخترقاً بسيارته الملكية شوارع بغدا – لا يكاد حتى شبح ابتسامة أو نظرة حب وحنان ترتسم على وجهه، وهو يرد التحية متثاقلاً على من يحيه هذا الوجه.. وهذه الهيئة.. وهذه التصرفات.. لا يمكن أن يفسرها أحد من الشعب يكون صاحبها قديساً طاهراً أو إماماً صالحاً...

كان الرجل كهلاً قارب الخمسين من عمره.. استقر وتزوج فتاة من أكرم الأسر العراقية، وقد رافقت الأمير شخصياً في سفره خارج العراق، وغالباً ما عشت قريباً من بيته، إلا أنني ـــ والحق يقال ـــ لم أر أو أسمع أو ألمس منه ما يشينه كما أن أقرب أصدقائه ومن زاملوه في أيام شبابه ولهوه وسفره.. لم أسمع منهم عنه ما يزيد عما يفعله أي إنسان عادي في شبابه ومنصبه وسلطانه.

قد يكون الرجل قد بلغ من العمر ما أتعبه، وعب من المتعة ما أرواه، ونال من الملاذ ما كفاه، أو قد تكون الأيام أيام الألم والقلق بالنسبة إليه فعام 1957 كان عام القلق والحيرة في حياته.. كان كل ما حوله يرجي إليه بالقلق، وكل ما يحيط به يشح في كيانه بليلة أفكار الحائر المحتار. فكان إن جلس وحده أطرق في صمت عميق، وأن تجرأ أحدهم وأحدث صوتاً قطع عليه سلسلة أفكاره وعميق تيهانه... هب... وكأنه استفاق من حلم.

أما ما تبقي من صبابة أيام حياته من عام 1958 .. فكانت أيام الوداع بالنسبة إليه.. ولست أدري لماذا كان يخيل في كل من يخرج فيها من قصره أنها ستكون آخر مرة أشاهده فيها... كان كل ما فيه من ابتعاد وانطواء وعلامات هم قاتل وألم دفين.. توحي بقرب نهايته.. وأكاد اليوم أجزم بأن الرجل كان يبدو كأنما هو عارف وشاعر في قراره نفسه بأنه انتهي.

لقد أطبقت عليه كل القوى من جميع الجهات... وفشل في كل المحاولات لإنقاذ ما تبقي له قد يظن أو يعتقد بأنه كان يريد أن يعرف مصيره بعد أن تسلم فيصل العرش، وأوشك على الزواج الذي سيثمر ولياً للعهد غيره. في اعتقادي أن الأمير لم يكن متلهفاً متهالكاً على الحكم.

إلا انه سبق له أن تنازل عن الحكم أثر اضطرابات بغداد عام 1948 ضد معاهدة بورتسموت، إذ أنه جمع كل رؤساء الأحزاب والمعارضة والأصدقاء، وكان قبلها قد اتصل بالسفير البريطاني في بغداد، ليكتب للمجتمعين بيده ورقة تنازله عن الحكم، وليعلن لهم ذلك، ويترك لهم الأمر في اختيار من يريدونه ملكاً أو رئيساً للبلاد.

ولكن لعن الله التزلف والتملق... وأكل المال السحت الحرام... إذ هب الكل عدواً وصديقاً بوجهه ليقولوا له.. بأنه قدر العراق ومن أولى به حامل راية النبي محمدﷺ.. ملكاً في أرض الرافدين.

أما في الأشهر الأخيرة من حياته.. فلقد تلقي الطعنة من أصدقائه وأركان حكومته السياسيين الذين زاملوه كل حياته... فلقد اتصل نوري السعيد بأحمد مختار بابان الذي كان رئيساً لوزراء العراق – أيام وحدة العراق والأردن – وأبلغ السعيد بابان بأن وجود عبد الإله في العراق يعقد الكثير من الأمور للتوصل إلى حل للمشاكل القائمة.

وأبلغه أن يقنع عبد الإله بمغادرة العراق سفيراً في لندن أو واشنطن أو أي مكان يختاره لإقامته في العالم، مع منحه مبلغ نصف مليون دينار ليعيش فيها طيلة حياته.

فلما فوتح الأمير بالأمر هذا.. رفضه.. رفضاً قاطعاً. وأعلمهم مستهزئاً ساخراً بأنه لن ينفذ مطلبهم. وباعتقادي شخصياً بأن رفض الأمير ذلك المطلب لم يكن متأتياً عن كونه يريد البقاء على عرش العراق.. كلا أبداً.. وإنما لكونه يتوقع، ويعلم في قرارة نفسه بأن هناك حدثاً أكبر من هذا سيحدث على تراب الوطن.

وإن خروجه من بغداد وترك الأمور بيد فيصل. سيكون كمن يترك قنبلة بيد طفل. لقد كان يريد للدمل المتقيح أن ينفجر ويخرج هو وفيصل وأهله دفعة واحدة.. ونزوحاً لا عودة له بعده إلى العراق...!

لقد كان أقرب من نوري السعيد إلى الجيش.. وأكثر منه معرفة بمحاولة الثورة التي سيقوم بها الجيش.

ففي شهر حزيران من عام 1958 وهو الشهر الأخير من حياته.. دخل عليه ضابط استخباراته الخاص المقدم محمد الشيخ لطيف، وقدم له ملفاً يحتوي أسماء وتنظيمات كل الضباط الأحرار والانقلابين الذين يدبرون الثورة في العراق.

وقرأ الأمير كل الأسماء التي وردت في الملف.. والتي ضمت العديد من ضباط رافقوه فترات من حياته، سواء في وحدات الحرس الملكي، أو مرافقيه ورائديه السابقين كما ضم الملف اسمين أو ثلاثة لضباط يعتبرهم الأمير من أصدقائه الخلص. بل إن أحدهم كان يقضي معه أمسيتين أو ثلاث أمسيات كل أسبوع.

وبعد أن أطلع على الأسماء والتشكيلات صفق الملف ورماه أمامه على المكتب وقال: «أن غالبية هؤلاء الضباط أصدقاء له، وأنهم – ولا خلاف – عرفوه جيداً، وأيقنوا أنه غير صالح لحكم العراق، وأردف قائلاً... «أما أنا فعلى علمي بأن هؤلاء الضباط جميعاً وطنيون ومخلصون.. وقد يفيدون العراق أحسن مني.. فإن كانوا لا يريدونني فأنني أترك وفيصل معي العراق».

قال هذا.. وقام من مكانه وترك غرفته ليتمشي وحده ليلاً في الشارع المعتم الممتد أمام قصره، ووقف على جسر الخر يتطلع إلى المياه السوداء ويبدو أنه كان يتخيل اليوم الذي يوفد إليه هؤلاء الضباط وفداً يطلب إليه مغادرة العراق، فينصاع فوراً لطلبهم الذي كثيراً ما راود فكره ومخيلته.. فيترك العراق ومعه فيصل وبقية أهله كما ترك الملك فاروق أرض الكنانة.

وقد تكون أخطاء الرجل كثيرة في إدارة حكم عضوض كالحكم في العراق. وقد قيل الكثير عن أخطائه التي أدت إلى نهايته البشعة المعروفة.. لكن السؤال الذي طالما افتعل ما هي علاقة الأمير بالملك وهل كان لعبد الإله يد في جعل فيصل تمثالاً جامداً يتصدر قاعة العرش؟

يمكن القول بنعم ويمكن القول لا

نعم... لأن الأمير رباه ورعاه أباً وأماً له .. رباه بعيداً عن الشعب، بعيداً عن الجيش، بعيداً عن العراق كله.

ولم يحاول بعدها أن يعيد فيصـــل إلى الشــعب، بل أبقاه على طبيعته المنطوية المنزوية.. والأرجح أنه يمكن القول..لا.. لأن الأمير لم يكن بقادر على أن يغير ما في فيصل، هكذا شاءت إرادة الله عز وجل أن يكون فيصل.. رقيقاً.. ضعيفاً.. مريضاً غير قادر على الحكم واضطلاع بالمسئولية.

لقد كان عبد الإله يناديه باســمه المجرد أمامنا. ويناديه بســيدنا أمام الغرباء. ويصـــدف أحياناً أن أكون جالســاً مع الأمير؛ وإذا بالملك يفتح الباب علينا ليطل فجأة، فكان الأمير لا يحادثه إلا واقفاً على قدميه.

ولم يحظر الأمير علينا البتة التكلم مع الملك بالسياسة أو شئون الشعب والجيش كما تقول الشائعات.. لسبب بسيط.. هو أن الملك لم يكن ليتحدث بها إلينا أو معنا، بل لم يصدف مطلقاً طيلة السنتين اللتين قضيتهما في القصر أن طلب الملك حضوري أو حضـور أحد الضـباط لمواجهته، بصـورة شـخصـية، أو التكلم معه بأي شـأن من الشئون.

يتحدث الملازم فالح حنظل عن اللحظات العصــبية في حياة الإجراءات له وفي الساعات العصيبة التي قضيتها مع الأمير نتناقش بمواضيع الثورة المقبلة في الجيش، وعندما كان الملك يفاجئنا بالدخول لم يكن ليكلف نفسه عناء الا ستماع أو المشاركة بالحديث أو إبداء الرأي.. أو حتى الجلوس معنا. كان كل ما يقوله كلمتين أو ثلاث عن مواعيد الغد، ثم يغادر الغرفة.

فهل كان في مستطاع عبد الإله أن يغير التكوين الفسيولوجي الجسماني والعقلي لابن أخته؟ ويدعم رأينا هذا أكثر مقارنة فيصل بابن عمه جلالة الملك حسين عاهل الأردن.. فكلاهما من بيت واحد، ومن نسل الملوك أباً عن جد.. وكلاهما عاش عيشة أولاد الملوك، وتسلما العرش في عمر واحدة وسنة واحدة تقريباً.

فهبة من الله عز وجل أن يخلق الحسين رجلاً للحرب.. والسياسة.. و الحكم، وشاءت عزته أن لا يخلق فيصل كذلك.

هكذا كانت حياة الملوك في العراق.. وهكذا كانت قصورهم وبلاطهم. والحديث عنهم لا يتطلب إلا صفحات قليلة.. ووريقات صغيرة.. صغر حياتهم.. وقلة أخبارهم.. وندرة أفعالهم. اللهم إلا عبد الإله و الحديث عن هذا الرجل، قد يتطلب عمقاً إلى عشرين عاماً قضاها ملكاً وحاكماً في العراق ليستطيع المرء أن يفهم ويفسر تصرفات السنتين الأخيرتين من حياته.

كانت الأيام تمر مسرعة قائمة على قصر الرحاب الهادئ الخامل المعتم.. فعندما تنحدر الشمس مائلة للمغيب.. وتصحو بغداد الفرحة الراقصة على الصخب والضجيج والمباهج والملاهي، وتبقي ساهرة حتى الصباح وسط جو من البهجة والحبور.

كان القصر قصر الرحاب تخمد فيه الحياة إيذاناً بمغيب الشمس ويجلله جو خانق كأن بومة فرشت عليه جناحيها السوداوين.. وتباشر أنوار القصر بالانطفاء

اعتباراً من الساعة العاشرة، ولا تبقي إلا أنوار الحدائق، وقد طوف حولها سرب كثيف من البعوض والحشرات التي تعيش نهاراً في مستنقعات نهر الخر المحيطة به.

وفي أول أيام شهر حزيران من عام 1958 جيء القصر بحوالي عشرين طاووساً انتشرت بحديقته الصغيرة وقد فرشت أجنحتها تمشي فيها بتيه واختيال، تضفي على الحديقة زاهي الألوان بمؤتلف هذا الريش.

وتطلق هذه الطيور الجميلة أصواتها القبيحة.. كصرخة تطلقها امرأة فزعة ملتاعة ويتشاءم أهل بغداد من هذا الطير الجميل منظراً والقبيح صوتاً، ذلك الصوت الذي يشبه صرخات الموت التي تطلقها نساء بغداد في موكب جنازة. ويعتبرون وجوده في أي دار شؤماً على أهل الدار.. وبعد انقضاء 45 يوماً على وجود هذه الطواويس في القصر.. حل الشؤم على الدار ومن فيها قتل الملك والأمير وأسرته ومن معه.

مات عبد الإله وهو يحمل إن حقاً وإن باطلاً أوزار وآثام الحكم و قديماً قيل «الحكم مفسدة».

ومات فيصل .. لذنب لم يقترفه، وجريمة لم يرتكبها.. مات وفي بغداد همهمة على الشفاه.. وحسرة ودمعة في قلوب وعيون الأمهات والعذاري على فيصل.. الشاب.. البريء.. اليتيم الأبوين.

الفصل الرابع

أيام قلقة وظهور حركة الضباط الأحرار

◆◆◆

تشكيلات الحرس الملكي

كانت قوات لواء الحرس الملكي مشــكلة ومنظمة بشــكل خاص مغاير للتنظيم المعمول بـه في الجيش العراقي، إذ كـانـت القوة مؤلفـة من لواء نـاقص فوج من وحدات مشاة وخيالة ومدفعية. مؤلفة من مقر اللواء.. وفوج مشاة هو فوج الحرس الملكي الأول.. وكتيبة خيالة هي كتيبة الهاشــمي الأولى.. وبطرية مدفعية من تسـعة مدافع قوس 3.8 عقدة الملغي اسـتعمالها في الجيش؛ كما يلتحق بمقر اللواء رعيل خيالة البولو المكون من 30 جنديًا.

وحتى أوائل عام 1954 كان فوج حراسـة العاصـمة المخصـص كحامية لبغداد والموجودة ثكناته في وزارة الدفاع في عداد قطاعات الحرس الملكي. إلا أنه فك ارتباطه عن اللواء، على أمل تشــكيل فوج الحرس الملكي الثاني ليكمل بذلك التشـكيل النظامي للواء مشـاة عراقي. بيد أن الفوج الثاني لم يتم تشكيله حتى اندلع لهيب الثورة، وتم إلغاء الحرس الملكي.

والجدير بالذكر أن تعداد ضــباط وضــباط صــف ومراتب فوج الحرس الملكي الأول يبلغ حوالي الثمانمائة رجلاً؛ وتعداد كتيبة الهاشــمي الأول يبلغ حوالي الثمانمائة أيضًــا، ووحدة البطرية ورعيل البولو ومقر اللواء والمراتب الملحقة باللواء؛ بحيث يبلغ تعداد اللواء ما بين ضابط وضباط صف وجنود حوالي الألفي رجلاً.

كانت قيادة اللواء بإمرة العميد عبيد عبد الله المضايفي.. وآمر فوج الحرس الأول العقيد الراكن ياسين محمد حليم، وآمر كتيبة الهاشمي العقيد عبد الجبار السعدي. أما آمر بطرية المدفعية فكان المقدم حسين العبيدي. وكانت هناك تشكيلة من المرافقين العسكريين والحرس الخاص، بحيث خصص لكل من الملك والأمير مرافقان، كان العميد الركن نوري جميل يشغل منصب المرافق الأقدم للملك؛ ويشغل العقيد علي الصانع منصب المرافق الأقدم للأمير.

إن فوج الحرس الملكي الأول هو الوحدة العسكرية المسؤولة رأسًا عن حراسات القصور الملكية والبلاط. وكان تنظيم الفوج كاملاً من حيث العدة والعدد، ومشكلاً من مقر الفوج وست سرايا مشاة. أربعة منها سرايا بندقيات، وسرية إسناد ينقصها فصيل هندسة الصولة، وقد استعيض عن فصيل المقاومة الدبابات برعيل مدرعات مكون من ثلاث مدرعات رولزرويس، أما سرية المقر فهي سرية خدمات وإعاشة وتموين ونقل ومخابرة.. إلخ.. كما ارتبطت مفرزة ومعمل التصليح لآليات اللواء بمقر الفوج خلافًا للتنظيم العسكري لفوج المشاة العراقي.

وتوزع سرايا البندقيات الأربع لحراسات القصور الملكية والبلاط؛ بحيث تكون هناك سرية واحدة لحراسة قصر الرحاب، وسرية لحراسة قصر الزهور وثكنة فوج الحرس الملكي. وسرية لحراسة البلاط.

وتبقى سرية واحدة في الاستراحة انتظارًا للتبديل في السرايا والواجبات مرة كل ثلاثة أشهر، إذ تحل سرية محل سرية أرخى في الحراسات المذكورة.

ويتكون ملاك السرية من حوالي المائة والعشرين رجلاً موزعين على مقر السرية، وثلاثة فصائل مشاة مسلحة بالبنادق والرشاشات البرن ومدافع هاون 2 عقدة.. ويتم توزيع قوة البندقيات في السرية بشكل نقاط حرس حسبما فصلناه في الفصل الأول.

أما كتيبة الهاشمي الأولى فاكن تنظيمها وملاكها كتنظيم وملاك الفوج، بيد أن جنودها فرسان يمتطون صهوات الجياد، رغم أن صنف الخيالة كان قد ألغى في الجيش العراقي لانعدام دورهم في الحروب والقتال. إلا أن ولع الأمير وحبه للفروسية والخيول حمل رئاسة أركان الجيش على أن تبقى على هذه الوحدة.

ولم تكن للكتيبة المذكورة علاقة أو واجبات تتعلق بحراسة القصور والبلاط با ستثناء سرية السيافة الرابعة التي كان معسكرها قرب البلاط، وقد خصصت لها واجبات رمزية كمرافقة السفراء أو الاستعراضات.

أما بطرية المدفعي – 3.7 عقد – فكانت مدافعها من الطراز القديم الذي أوشك على إلغائه من الجيش، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد في الحراسات الملكية إلا اسميًا.

لقد تشــكل الحرس الملكي في عهد الملك فيصــل الأول من سرية خيالة واحدة، واســتمر بـالتقـدم والنمو إلى أن غـدا بشــكلـه الحـالي، وتعـاقـب على قيـادة اللواء والوحدات نخبة ممتازة من ضــباط الجيش العراقي، كما انضــم إلى ملاكه بضــعة مرافقين عسكريين للملك أو للأمير هم صفوة مختارة من أحسن وأشجع الضباط.

وكان فوج الحرس الملكي الأول يعتبر النموذج المحتذى في ضبطه وتنظيمه والمستوى العالي للتدريب فيه، فضلاً عن كونه الأول في جميع السباقات الرياضية. ويضم عددًا من الضباط والجنود من أبطال الرياضة في الجيش، وكانت قيادته قد أودعت زهاء اثني عشر عامًا إلى الرائد الركن ناظم الطبقجلي[1] وبقي المرحوم آمرًا للفوج المذكور إلى أن رقي إلى رتبة عميد ركن حيث تم نقله إلى آمرية أحد ألوية المشاة الأخرى.

وفي عهد ناظم الطبقجلي كان فوج الحرس الملكي قد اســتمد معنوياته العالية وســمعته الطيبة في الجيش من شــخصــية آمره القوية الخلابة. وكان اختيار الضــباط الأحداث إلى فوج الحرس الملكي يتم على أســاس أن يكون الضــابط المتخرج الأول من صنف المشاة في الكلية العسكرية بطل لعبة من الألعاب،

(1) المعلوم عن المرحوم ناظم الطبقجلي أنه كان مؤيدًا لحركة الضــباط الأحرار والقيام بانقلاب في العراق. على ألا تسفك فيه دماء. تم تعيينه بمنصب قائد الفرقة الثانية بعد ثورة 14/ تموز. وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه بعد قضاء أقل من سنة ونصف على نجاح الثورة لمحاولته القيام بثورة مضادة على حكم عبد الكريم قاســم. وتشــاء الأقدار أن تنفذ فيه عملية الإعدام بأن أطلق عليه جنود من فوج الحرس الملكي (سابقًا) النار وتم إعدامه بتلك الصورة.

ولم يكن هناك أي اعتبار للاسـم أو الحسـب أو النسـب أو الطبقة الاجتماعية أو الميل السياسي. كما لم تكن لضباط الحرس الملكي أية امتيازات أو مخصصات تميزهم عن بقية ضباط الجيش العراقي با ستثناء البذلة الزرقاء المقامة بالأحمر، وريشة الأوز التي تعلو خوذهم، في استعراضاتهم العسكرية وتشكيلات حرس الشرف.

وكان الضبط العسكري على أشده في الوحدة المذكورة.. والضابط مسؤول عن كل صغيرة أو كبيرة، وواجباته العسكرية كضابط تكاد تكون أكثر من واجبات بقية ضباط الوحدات في الجيش، ناهيك عن واجبات حرا سات القصور الملكية، بحيث تبقى أرواح ساكنيها تحت رحمة مسدسه والستة إطلاقات الموجودة فيه.

إن أريحية الأمير عبد الإله واصطفاءه الأصدقاء من الضباط دون غيرهم من طبقات المجتمع العراقي، جعلا من الحرس الملكي الهدف الذي يرمي إليه ضباط بقية الوحدات الأخرى من الجيش، كما كان ضابط الحرس الملكي موضع حسد الجميع.

ولكن الأمر اختلف جذريًا عام 1954 إذ لم يدخل فوج الحرس الملكي أي ضـابط من الضـباط الأحداث ما عدا الضـباط الذين يرغبون أن يكونوا فرسـانًا متطوعين في كتيبة الهاشمي الأولى، وليس لأحد سواء الملك أو الأمير أو آمرية اللواء دخل في انتهاء هؤلاء الضباط إلى الكتيبة.

وتغيرت الحال بالنسبة لفوج الحرس الملكي، إذ قرر الأمير أن يكون الفوج المذكور فوجًا عسكريًا لا يشترط في ضباطه أن يكونوا أبطالاً في الرياضة أو الأوائل في صف المشاة في الكلية العسكرية.

وهكذا ففي 1/ تموز/ 1956 تم اختيار 5 ضباط أحداث من الكلية العسكرية العراقية.. ليلتحقوا بفوج الحرس الملكي الأول.

وكان الاختيار قد تم على أساس.. الشكل المقبول.. والجسم والبنية واللياقة العسكرية. ولم يراع في هذا الاختيار أي اعتبار أخلاقي أو نوع أو سياسي. وكان أحدنا شيوعيًا معروفًا، مشهورًا بتطرفه لعقيدته هذه.

وحالما تم التحاقه بالفوج قابلنا الآمر وألقى علينا محاضرة استغرقت دقائق عن واجب الاعتناء بالمظهر الخارجي والاهتمام بالضبط والتدريب العسكري. وقام مساعد آمر الفوج النقيب هادي خماس بجولة معنا في الثكنة والقصور الملكية استغرقت ساعة واحدة للتعرف على معالم القصور الخارجية، والطرق ونقاط الحراسة. وما عدا ذلك.. لم نكن نعرف شيئًا ذا علاقة بالمهمة التي سنقوم بها.. مهمة إيداع أرواح وممتلكات الأسرة المالكة العراقية في أيدينا.

أما جنود الفوج فشأنهم شأن جنود الجيش العراقي، وهم مختارون من أفواج التدريب. من الجنود الحسني المظهر والقيافة، ولم يكونوا من عشيرة أو طبقة أو ديانة أو عنصر معين.. كانوا كبقية جنود الوحدات في الجيش من الشعب العراقي، كما هو متجانس متكامل.

وجندي الحرس الملكي كالجندي العراقي عامة صبور.. مطيع.. بطئ التفكير ينفذ الأوامر كما هي.. همه الأول إعالة عائلته وأولاده. وقد أعطوا مخصصات قدرها 600 فلسًا شهريًا لكل جندي علاوة على ما يتقاضاه قرينه الجندي، في بقية الوحدات لقيامه بواجب الحراسات الملكية.

وجنودنا جسورون مقاتلون أشداء عندما تثور فيه النخوة والحمية للحرب، وقد كنا نحسن تدريبهم ونبالغ في ضبطهم، وتشديد الأوامر عليهم، والعقوبات على المخالفين منهم، بحيث يمكن القول بكل اطمئنان بأن فوج الحرس الملكي كان من أحسن وألمع الأفواج العراقية.

أيام قلقة

يمكن اعتبار شهر تشرين الأول من عام 1956، هو الشهر الذي وقع فيه العدوان الثلاثي على مصر؛ بدء انعطافٍ تاريخي للنشاطات السياسية المنظمة في الجيش العراقي، والتي نجحت بالإطاحة الملكية وإقامة الجمهورية العراقية.

إلا أن ذلك لا يعني أن التحركات السياسية كانت معدومة في الجيش قبل ذلك التاريخ، لأن من المعلوم أن أول انقلاب عسكري شهده العالم العربي وقع في العراق في الثلاثينات إذ أطاح الفريق بكر صدقي بالحكومة المدنية وشكل حكومة تسير بظل الجيش، ثم أعقب ذلك تدخلات من جانب الضباط في الشؤون السياسية واختيار الوزارات وإسقاطها إلى أن انفجرت الحرب العراقية البريطانية في شهر مايس من عام 1941

إذ شن الجيش العراقي هجومًا على القواعد البريطانية الموجودة في العراق، وحمل عبد الإله والحكومة الموالية للحلفاء على مغادرة العراق. ولم تدم الحركة إلا بضعة أسابيع انتهت بتشتت شمل الجيش العراقي ووصول الوحدات البريطانية إلى بغداد. وتم تشكيل حكومة جديدة ونصب الفريق إسماعيل نامق رئيسًا لأركان الجيش. فأحال أعدادًا كبيرة من الضباط على التقاعد والطرد من الخدمة والسجن. وعندما انتهى الفريق نامق من حملته تلك، وقف أمام مجلس الأمة ليعلن أن الجيش أصبح مسدسًا نظيفًا ومحشوًا وموضوعًا في غمده. وقد عنى بذلك أن الجيش عاد إلى ثكناته ليقوم بواجبه: الدفاع عن الوطن عندما تدعو الحاجة.

لقد مدَّت حرب سنة 1941 التي خسرها السياسيون وقادة الجيش من عهد عبد الإله وحكوماته في العراق، ولم يعكر صفو ذلك الأمد سوى ما حدث من ثورات محلية لبعض القبائل الكردية أو العربية، والمظاهرات الشعبية العارمة في شوارع بغداد ومدن العراق الأخرى.

وكان الجيش آنذاك ينفذ الأوامر الموكلة إليه من الحكومة القائمة. على أنه ليس من الصحيح القول بأن الجيش لم يكن يشارك في عواطفه وأحاسيسه مظاهرات الشوارع في بغداد.. ومن الظلم القول بأنه لم يكن هناك ميل من الضباط للانقضاض على الحكم والإطاحة به. بيد أن فشل حرب سنة 1941 وما أعقبها من إعدام وتنكيل بالضباط الذين قاموا بها وانتصار الحلفاء عامة في الحرب الثانية،

وهي الجهة التي كان يقف معها عبد الإله وحكوماته؛ فضـــلاً عن وجود بعض القوات البريطانية في قاعدتي الحبانية والشـــعبية. كل ذلك على ما نعتقد جعل العسكري العراقي في أعوام الأربعينات وأنى أواسط الخمسينات يحجم عن الإقدام على أي عملية انقلابية عسـكرية، لأن الضـابط العراقي كان على الأغلب يخشـى أن تقوم القوات البريطانية الموجودة في أرض العراق بضربـه بشـدة كما فعلت في عام 1941 إن هو قام بحركة ضد العرش.

إلا أن انسـحاب القوات البريطانية من العراق عام 1953 وما تلا ذلك من نجاحات لانقلابات عسـكرية عربية وغير عربية، فضـلاً عن ظهور مناخ سـياسي ملائم جدًا للانقلاب العسكري، أدى إلى بروز تنظيمات سياسية عسكرية مختلفة في الجيش العراقي.

ومن الواضـح أنه قد كتب الكثير عن كيفية قيام حركة الضـباط الأحرار، ورويت أحاديث مختلفة، وقيلت أقوال متناقضة، ونسجت روايات مبالغ فيها عن نشأة وتطور حركة الضباط الأحرار هذه، ومن قام بها.. من أسسها.. ومن هو أول منظم فيها.

الإبلاغ عن حركة الضباط الأحرار

إن أول إبلاغ عن هذه التحركات وصل البلاط الملكي بعد أحداث العدوان على مصر، وذلك بأن استلم عدد من كبار ضباط الجيش رسائل بالبريد يدعونهم فيها إلى الانضمام لحركة الضباط الأحرار، وقد وردت إحدى هذه الرسائل معنونة إلى العقيد علي الصانع المرافق الأقدم للأمير، وقد أحيلت هذه الرسائل إلى الاستخبارات العسكرية للتحقيق في هوية مرسليها.

وبعد أحداث بغداد الدامية إثر العدوان على مصر، وازدياد النشاط السياسي المعارض للحكومة العراقية، حدث أول تماس بالملك حول هذا الموضوع؛ وقد وضع الأمر على تلك الصورة:

قام شخصان يرتديان الملابس العربية بإيقاف الدراجة البخارية الخلفية المرافقة لموكب الملك، والتي يقودها الجندي المخصص لاستلام العرائض من الناس. وأخبرا الجندي بأنهما ضابطان في الجيش ولا يريدان أن يكشف أحد هويتهما أو يتعرف إليهما حتى الملك نفسه، وسلموه رسالة طلبا منه تسليمها شخصيًا للملك.

وقد جاء في الرسالة المذكورة أنباء مطولة، وأخبار ومعلومات عن حركة الضباط الأحرار في الجيش، وقد أغفل كاتب الرسالة ذكر الأسماء أو الهويات أو الرتب.

ويتحدث الملازم فالح حنظل في الحرس الملكي عن ظهور حركة الضباط الأحرار ويقول: بصفتي ضابطًا في الجيش ولي العديد من الزملاء الضباط في بقية وحدات الجيش، أستطيع الجزم بأن تشكيلاً واسعًا أو منظمًا لحركة انقلابية لم يكن له من أثر في صفوف 90٪ من ضباط الجيش العراقي حتى نهاية سنة 1956.

وإلى أوائل شهر كانون الأول من العام المذكور، عندما كانت حرب الإذاعات قد بلغت أشدها بين العراق من جهة، ومصر ـ وسوريا وحتى الأردن (إذ كانت حكومة النابلسي ـ ما تزال في الحكم) من جهة أخرى، وعندما كنت أجتمع بالأمير عبد الإله، لم يكن يبدو عليه القلق أو الخوف من مصير قريب ينتظره، وكان كل ما يطلبه مني أخباره عن آخر ما يبلغ أذني من تعليقات الناس وأحاديثهم في الشؤون والأحداث العامة في البلد، وكان تعليق الأمير وهو يسمع إلى الإذاعات العربية تهاجم العراق؛ والعراق يهاجم ويدافِ – بقوله:

(يبدو أننا العرب قد جننا..)

وعندما كان مكتبه في البلاط يعج بالرسائل السرية، وهي تحمل في طياتها أخبار «الطبخة» الانقلابية التي كان يعدها الملحق العسكري العراقي في دمشق العقيد الركن صالح مهدي السامرائي للإطاحة بحكومة سوريا كان الأمير يبدو أنه على بينة من الأمور تسير بشكل طبيعي.

إلا أنه عندما فشــلت المحاولة تلك، تنبه للمرة الأولى بأن القوى الخارجية التي كانت تدعم سوريا ومصر.. لم تعد صديقة له كما كانت في السابق؛ وإن خطرها عليه أشد وأقوى من خطر القوى التقليدية الداخلية التي كانت تكرهه في العراق.

لذلك، فعندما أعد العدة للسفر إلى أميركا في كانون الثاني من عام 1957 على أن يبقى بضــعة أيام في بيروت لإجراء مباحثات هناك، لم يكترث البتة عندما أبلغتنا الملحقية العسـكرية في بيروت بأن من الممكن أن يتعرض لمحاولة اغتيال قد تقوم بها عناصر سورية أثناء إقامته في لبنان؛ ولم يثنه هذا التوجس عن السفر.. وعندما كنا في بيروت كان تعليقه الوحيد على أحداث العراق وسـوريا والعالم العربي.. بأن الموقف قد أصبح سخيفًا.. وأن على الأمريكان أن يدركوا ويفهموا بأن سياستهم الحمقاء في دعم القوى الثورية واللعب على الحبلين سيجر العراق وأقطار الشرق الأوسط كلها إلى كارثة الوقوع في يد الشيوعية.

وبعدها سافر إلى أمريكا لهذا الغرض.

قضية الملازم كمال مجيد:

حياة ضــباط الحرس الملكي، كانت الأمور تســير في الوحدة بشــكلها الطبيعي المعتادة إلا أن الحادث الذي هز الحرس الملكي ، وأقام الجيش وأقعده.. كان نبأ اعتقال الملازم كمال مجيد الملا أحد ضباط السرية الثالثة في فوجنا، ومن زمرة الضباط الأحداث الذين تم إلحاقهم بالفوج في 1/ تموز/ 1956.

فوجئ الضــباط بنبأ اعتقال الملازم المذكور، ولم ينقض على التحاقه بالفوج أكثر من سبعة أشـهر، بحيث انتشر هذا النبأ في أوسـاط الجيش انتشـار النار في الهشـيم، وبخاصــة إذا علمنا أن الجيش كان ينعم بهدوء واسـتقرار سـياسـيين منذ سـنوات طولية، فما بالك باعتقال أحد ضباط الحرس الملكي.

وكانت الضــجة التي أثارها نبأ الاعتقال لا تعادل أو لا تكاد تسـتوي بحقيقة الفعل الذي أقدم عليه هذا الملازم، إذ صـدرت الأوامر إلى ضـباط الفوج بالاجتماع فورًا، وحضر الأمير الذي بدأ عابس الوجه، مقطب الأسـارير، وتكلم كعادته بصـوت خفيض تتزاحم الكلمات في فمه إذ قال: «كيف تسـمحون أن يكون ضـابط كهذا بينكم.. جئت الآن معاتبًا. . لكن إذا حدث أمر كهذا في المستقبل فسأعاقب».

قال ذلك وتركنا وانصرف. . ونحن نضرب أخماسًا بأسداس عما فعله كمال.

وبعد أن انجلت الأمور علمنا بأن كمالاً كان يقرأ في إحدى الجرائد نبأ الحكم على السيد كامل الجادرجي أحد أقطاب المعارضة بالسجن مدة ثلاث سنوات، بجريمة الطعن بالحكومة، وإشــاعة أخبار ملفقة عن اسـتخدام الطائرات البريطانية لمطار الحبانية في ضرب القوات المصرية أثناء العدوان. لم يسـتطع معه الملازم المذكور أن يضـبط أعصـابه، فصـفق الجريدة وانهال سبًا وشتمًا بالحكومة العراقية؛ وقد حدث ذلك أمام أحد ضـباط الشرطة التي كانت الأميرة عابدية قد ربته منذ طفولته؛ فأبلغ الأمر إلى القصر الذي أقام الدنيا وأقعدها.

وتبين فيما بعد أن الضابط كان شيوعيًا إلا أنه غير منظم في أية تشكيلة سياسية أو تنظيم انقلابي في الجيش.

التماس الأول بين الضباط الأحرار وضابط في الحرس الملكي:

لقد كان شـهر آذار من عام 1957 شـهر هدوء في بغداد بحيث سـاد السـكون شوارعها ولم يعد هناك أثر للمظاهرات الصاخبة التي عمت العاصمة أيام العدوان، بيد إنه يمكن القول بأن ذلك السكون كان كالهدوء الذي يسبق العاصفة، ويمكن تلخيص الموقف السياسي في العراق بأنه كان إفلاسًا تامًا لسياسة النظام القائم كله، وحبًا جماعيًا للرئيس جمال عبد الناصر.

وفي فترة هدوء الشوارع تلك كانت الكتل السياسة المعارضة قد باشرت نشاطها السياسي على أشده، وبرز اسم الجبهة الوطنية التي احتوت كل الأحزاب المعارضة في جبهة واحدة لإسقاط النظام القائم في العراق.

وفي تلك الفترة من تلك السـنة حدث أول تماس لعناصر الحركة السـياسـية في الجيش بضـباط الحرس الملكي، وشـاءت الصـدف أن أكون أنا أحد الذي جرى الاتصال بهم.

كان ذلك بأن اتصل بأحد ضباط كتيبة الهاشمي الأولى من لواء الحرس الملكي.. النقيب عباس الدجيلي.. أحد ضباط الفرقة الأولى في الكلية العسكرية، وقد عرف آنذاك بتصرفاته الغريبة وأفعاله الطائشة.

اتصل الدجيلي بضابط الحرس وفاتحه بموضوع الانتماء إلى حركة الضباط الأحرار، وصرح له بأنها حركة منظمة وقوية غايتها تخليص الوطن من الحكم القائم.

وفي لقاءين أو ثلاثة بين ضابط الحرس والضابط المذكور لم تكن المعلومات التي ذكرها الدجيلي لتتناول أسماء أو رتبًا أو وحدات؛ لأنه عندما سأله ضابط الحرس عن أقدم رتبة في التشكيل رسم الدجيلي بسبابته علامة الصليب، وهي إشارة إلى السيفين المتقاطعين اللذين يضعهما الضابط برتبة لواء فوق كتفيه.

وعندما فاتحني ضابط كتيبة الهاشمي بالانضمام إلى مجموعة الأحرار هذه.. كنت في نفس مساء ذلك اليوم أقابل الأمير عبد الإله وأنقل إليه القصة كلها من ألفها إلى يائها.

وفي خلال الحديث مع الأمير.. لم يقاطعني البتة بل ظل مستمعًا.. وعندما كنت أردد أمامه عبارة الضباط الأحرار... كانت تمر أمامه وكأنه قد تعود على سماعها فلم يعرها أي اهتمام أو اكتراث، كما لو تذكر له هذه العبارة للمرة الأولى. أما بالنسبة لي فقد كنت أسمع بهذه العبارة للمرة الأولى في حياتي.

إلا أنني عندما ذكرت له بأن أقدم رتبة في التشكيل يحمل رتبة.. لواء.. فسرعان ما زوَّي بين حاجبيه، وبانت على وجهه أمارات التفكير.

لم يعلق الأمير على الموضوع كثيرًا، وكل ما هنالك أنه أوصاني بزيادة الاتصالات للحصول على أية معلومات جديدة بهذا الصدد. وختم حديثه أن أفضى إلي بأن عددًا من الضباط قد أحيلوا إلى التقاعد والإخراج من الجيش وشمل قرار التسريح فيمن شمل الملازم كمال مجيد من فوج الحرس الملكي. وضابطًا آخر من الحرس الملكي هو النقيب فاضل مهدي البياتي[1] كما أحيل النقيب عباس الدجيلي[2] إلى التقاعد كذلك.

ويبدو أن قائمة التقاعد تلك كانت الأولى والأخيرة من الضباط الذين وردت بحقهم معلومات تفيد بأنهم شيوعيون أو غير موالين للحكومة، علمًا بأن أيًا منهم لم يعتقل أو يستجوب أو يحال إلى محكمة، كما أن الطريقة التي أخبرني بها الأمير عن إحالة هذه المجموعة إلى التقاعد أوحت بأن الأمير يعتقد بأن تسريح أولئك الضباط من الجيش... يخلي الجيش من كافة العناصر المناوئة له.. ولم يعد هناك ما يخشى منه.

(1) النقيب فاضل مهدي البياتي.. كان ضابطًا في كتيبة الهاشمي.. وهو معروف بميوله الشيوعية. أحيل إلى التقاعد، ثم أعاده عبد الكريم قاسم على الخدمة وسلمه معتقل الدبابات الرهيب، حيث سلم البياتي الضباط القوميين أصنافًا من التعذيب والإهانة.. وقد تم إعدامه في ثورة شباط عام 1963.

(2) النقيب عباس الدجيلي. أعاده عبد الكريم قاسم إلى الخدمة وعين بمنصب معاون مدير شرطة بغداد وغدًا شيوعيًا عنيفًا. سلم الضباط القوميين العذاب. وقد تم إعدامه في ثورة شباط من عام 1963 عندما أطيح بحكم عبد الكريم قاسم.

وحتى فترة شــهر حزيران من ذلك العام كانت الأنباء التي تردنا عن تحركات الضـباط في أغلب الوحدات.. مجرد شـائعات وأقاويل وأنباء غير مؤكدة أو موثوق بها. وفي الأغلب الأعم لم تكن فكرة الضباط الأحرار سوى قضية تجمعات من أربع أو خمس كتل من الضباط.. كل كتلة تشتغل حسب هواها.. ولم يجر توحيدها بعد.. وأغلب الظن أنه لم يجر فيما بينها التعارف حتى ذلك التاريخ؛ ويمكن التكهن بأن غالبية الضباط الذين هم دون النقيب رتبة لم يكونوا قد سمعوا بها أكثر مما سمعت، وحتى حينما كنت أداوم في دورة عسكرية خاصـة في مدرسـة المشـاة مع حوالي المائة ضـــابط من رتبـة ملازم وملازم أول ونقيـب من مختلف وحـدات الجيش لم تكن معلوماتي لتزيد قليلا.. وكان هناك انقلاب فاشــل قد وقع في الأردن.. إلا أن نوعية حديث الضـــباط عن كل تلك الحوادث.. لا تعدو العموميات.. ولم يكن اهتمامهم بالوضـــع الســياسي أكثر من اهتمامهم بلعب الطاولة والبنك بونك.. رغم صراخ وزعيق مذيعي الإذاعات المختلفة الذي يملأ أرجاء البهو.

وعندما قضــت الأسرة المالكة طوال صــيف عام 1957 في اســتانبول جرت محادثات على مســتوى عالٍ مع المســؤولين الأمريكان وممثلي دول حلف بغداد على النحو الذي ظهر بالتفصـيل في محاكمات المهداوي، إلا أن ذلك الصـيف لم يكن البتة مريحًا للأمير.

أما الملك فقد أعلن للشعب العراقي نبأ خطوبته من الأميرة التركية فاضلة إحدى أقارب الملك فاروق، ملك مصر السابق، ومن سلالة آل عثمان حكام تركيا السابقين، وقد قابل الشعب العراقي كله نبأ هذه الخطوبة بالكثير من خيبة الأمل في ملكته الجديدة التي لا يعرفها ولا تعرفه.. وعندما اصطحبها معه إلى بغداد حيث تجولا في حدائق قصر الزهور، رأيت لأول مرة الفرحة تطل من عيني فيصل، وهو يقدم زهرة من الحديقة إلى خطيبته التي بدت وكأنها ريحانة ريعانة بوجهها المشرق الفتان. إلا إن هذه الأميرة تنتمي إلى أسرتين ملكيتين تم إقصاؤهما عن عرشيهما.. وأخشى ما أخشاه أن تجلب نحس عائلتها المشؤومة على عرش فيصل، وعندما انطلق بها فيصل لزيارة الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف. قابلها الشعب هناك بكل حفاوة وترحاب، بل كادت ترفع السيارة الملكية عن الأرض. وعندما كانت الفرحة تغمر فيصل، وهو يفاخر أمام عروسه بأنه حبيب الشعب كان عبد الإله يمر بسلسلة من مراحل القلق النفسي عن الوضع السياسي في العراق، لأن التقارير التي كانت تصلنا تباعًا تفيد بأن الدعوة لحركة الأحرار تنتشر بسرعة لم يكن يتوقعها عبد الإله في أوساط الجيش. ولذا فقد أدرك بثاقب بصره بأن مظاهر الحب التي أحيط بها فيصل في كربلاء والنجف لم تكن غير مظاهر فارعة واندفاعات جماهيرية انفعالية، وأن هذه الانفعالات لا وجود لها في بغداد.

لقد قابلته بعد يومين من وصـــوله إلى العراق وكان في جعبتي أخبار مختلفة عن النشاطات السيا سية في الجيش، وعندما كنت أتحدث معه كان يصغى إليّ وأمارات وجهه تطفح بهم ثقيل، كأنما هو يشـــكو صـــداعًا مؤلمًا ولم يكن يدور بخلدي أنني سأسمي ذلك اليوم من شهر آب في مذكراتي.. يوم غروب الابتسامة عن وجه عبد الإله.. وكل ما أتذكره الآن هو أنني لم أر الأمير بعد ذلك، إلا كانت أمارات الهم تزداد وضوحًا في وجه.

ولما أنهينا الحديث.. لم يعلق الأمير عليه بشيــء، وإنما طلب مني نقل هذه الأنباء إلى ضابط استخبارات اللواء وتوحيدها مع بقية المعلومات التي لم يطلع عليها بعد..

كانت نبرات صـــوته وطريقة كلامه مختلفة هذه المرة.. إذ كان يتحدث وكأنه غير مكترث للأمر البتة، أنه كان حتى ذلك التاريخ يتصـــور أن تلك التحركات لم تكن سوى ألعاب صبيانية ستسبب له مشكلة.. ثم لا تلبث أن تزول كما يزايل الصداع الرأسي.

تغييرات في قيادات الحرس الملكي:

لقـد حـدثـت جملـة تغييرات في قيـادات الحرس الملكي لأن آمر اللواء عبيـد الضايفي.. رفع إلى رتبة أمير لواء، وتسلم منصب كبير المرافقين العسكريين. وعين العقيد طه مصطفى البامرني آمرًا لفوج الحرس الملكي الأول..

والبامرني هذا ضـــابط كردي عرف عنه بأنه قاد إحدى سرايا المشـــاة ببســـالة في حرب فلسطين عام 1948. ثم اشتغل فترة في الاستخبارات العسكرية، وهو ذو مظهر صلب وشخصية عسكرية قوية.

كما عين العقيد جميل خليل بمنصـــب آمر كتيبة خيالة الهاشـــمي الأولى؛ كذلك التحق بفوجنا خمسة من ضباط الدورة 33 الحربية من الكلية العسكرية كضباط أحداث ليملأوا شواغر الملاك من الضباط.

أما منصـــب آمرية اللواء فقد ظل شـــاغرًا لفترة لأنه كان هناك عدد من الضـــباط مرشـــحين لهذا المنصـــب، كالعميد الركن ناظم الطبقجلي الذي هو أحق من غيره في استلام اللواء باعتباره الأب البار لفوج الحرس. كما رشح اسم العميد الركن محيي الدين عبد الحميد، إلا أنه اعترض عليه بســـبب كونه مرافقًا عســـكريًا للعقيد كامل شبيب أحد قواد حركة سنة 1941. ثم سمعنا همسًا خبر تسريح العميد الركن عبد العزيز العقيلي باعتبار أنه شغل منصب مقدم لواء الحرس الملكي مدة ثلاث سنوات. هذا وكان أقرب الأسماء المتوقعة لشغل هذا المنصب الشاغر هو العميد الركن أحمد محمد يحيى باعتباره أنه أحد أصـدقاء الأمير الشـخصـيين.. وتم تعيين العميد الركن محسن محمد علي الذي كان يشغل منصب الملحق العسكري في القاهرة

طيلة الأزمة مع مصر.. ولم يمكث العميد محسن طويلاً، إذا سرعان ما تسلم منصب مدير الدعاية العام بالوكالة.. وعندما غاب استلم اللواء وكالة العقيد طه البامرني باعتباره أقدم ضابط في لواء الحرس إضافة إلى منصبه الأصلي كآمر فوج الحرس، وبقي كذلك، ولم يلتحق العميد محسن محمد علي إلى يوم إلغاء الحرس الملكي.

الملك يقوم بزيارة لبيوت أحد الضباط في منصورية الجبل:

وفي هذه الفترة كانت الأخبار التي تردنا عن النشاط السياسي في الجيش قد تناولت أسماء لرتب مختلفة.. ويبدو أن الأمور أخذت تسير بشكل منحدر بحيث شملت بعض ذوي الرتب الصغيرة، وكانت الأخبار قد تركزت في تلك الأيام على النشاط الذي يقوم به العميد الركن ناجي طالب أحد أمراء الأولوية في الفرقة الأولى.. والمرافق الأقدم سابقًا للأمير عبد الإله. ويبدو أن الرجل كما تدل التقارير المطولة عنه لم يكن خائفًا، بل كان يجاهر بكرهه للأمير عبد الإله، ولم يكن يتردد بمد لسانه حادًا يسلق به عبد الإله سلقًا في نوادي الضباط واجتماعاتهم.

وفي شهر تشرين الثاني من عام1957 تركزت المعلومات على أن هناك تجمعات بين ضباط الفرقة الثالثة.. وبخاصة في معسكر منصورية الجبل حيث يقع مقر لواء المشاة العشرين، ولواء المشاة التاسع عشر، وعندما كنت مع الأمير في أحد اجتماعاتنا ذكرت له المعلومات الواردة من الفرقة الثالثة وبخاصة المعلومات عن نشاط الضباط الشبان من رتبة ملازم، كما أعلمته بأن هؤلاء الضباط غدوا يجاهرون بآرائهم ولا يخشون أحدًا.

فكان تعليق الأمير.. بأن هذه المعلومات قد تكون مبالغًا فيها إلى حد ما.. فاللواء الركن غازي الداغستاني قائد الفرقة الثالثة قد أخبره بالتقرير السنوي السري المرفوع من ضباط وحدات الفرقة.. بأنهم جميعًا سالمون من الإصابة بجرثومة الشيوعية: (يرد النص أعلاه حرفيًا في التقرير السنوي)[1] علمًا بأن التقرير المذكور يملؤه عادة أمراء التشكيلات والوحدات وما يرد فيه لا يعدو أن يكون كليشه موضوعة سلفًا. ولكي يدفع عبد الإله الشك باليقين عن مدى تغلغل هذه الحركة الجديدة في أوساط الفرقة الثالثة.. قام بصحبة الملك بزيارة إلى وحدات الفرقة. وكان في جملة البرنامج أن يزور الملك بيت أحد الضباط. واستقبله الضابط وزوجته في الدار يغمرهما السرور والسعادة. ولم تستغرق الزيارة أكثر من خمس دقائق لشرب الشاي، وانتهت بطريقة مسرعة كالتمثيلية التي لا عمق فيها ولا أثر. لأنها كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي يقم بها الملك بزيارة بيت أحد ضباط جيشه.

(1) من المعلوم أن الزعيم عبد الكريم قاسم كان آمرًا للواء المشاة 19 أحد ألوية الفرقة الثالثة. وقد جاء في تصريح أدلى به السيد خروشوف في أسوان عام 1964 أمام عدد من رؤساء الدول العربية وسفرائها بان عبد الكريم قاسم كان قد انضم رسميًا إلى الحزب الشيوعي العراقي قبل أربع سنوات من قيام ثورة 14/ تموز/ 1958.

حادثة إطلاق قنابل المدافع على الملك وصحبه :

إلا أن الحدث الذي هز كيان القصر ــ هزًا وجعل عبد الإله يعيد النظر في قصة الضباط الأحرار ويشغل دوائر الا ستخبارات بطلب المعلومات المفصلة عن حجم هذه الكتلة وسعتها ودرجة تغلغلها في أوساط الضباط ذوي الرتب الصغيرة.

ذلك عندما قامت فرقة المشاة الأولى بإجراء مناورات كبرى على الحدود العراقية السورية شاركت فيها جميع ألوية الفرقة ودروعها ومدفعيتها وصفوفها الأخرى. وقد أثار ذلك التمرين على هذا النطاق الواسع لغطًا واسعًا بين ضباط الفرقة؛ إذ اعتبروه محاولة تمهيدية لغزو سوريا واحتلالها، لقد كان الضباط الأعوا ا – دون المقدم رتبـ – يجاهرون فيما بينهم بأن قائد الفرقة اللواء الركن عمر علي يريد احتلال سوريا.

وكان التمرين غاية في الصعوبة إذ جرى في الصحراء الغربية وقد أ صيب معظم الضباط بالإنهاك والتعب من جراء طول مدة التمرين. وراحت الأنباء عن قسوة عمر علي وشدته واصطداماته المتتالية بضباط الوحدات وتوبيخه إياهم أثناء فشلهم في إدارة التمارين العسكرية.

وقـد تقرر أن يقوم الملـك بزيـارة الفرقـة للاطلاع على بعض تلـك المنـاورات، وعندما وصـل إلى مقر الفرقة بصـحبة الأمير، ورئيس الوزراء نوري السـعيد. قابله الجنود هناك بعاصفة من التصفيق، ونظم قائد الفرقة أهزوجة عشائرية انتهت بدبكة صـاخبة اشـتد وطيسـها. إلا أن تلك الفرحة لم تدم طويلاً إذ سرعان ما تحرك الركب الملكي إلى رابية مرتفعة على إحدى كتائب مدفعية الميدان وهي تطلق نيرا نها من شـكل سـدود نارية. وما أن فتحت المدافع نيرانها حتى سـقطت إحدى القنابل على بعد 500 ياردة من الرابية التي يقف عليها الملك وصـحبه، وسـقطت قنبلة ثانية أقرب إلى المثابة الملكية بحيث غطى غبارها الملك ومن معه، مما أجبرهم على ترك الرابية والفرار مسرعين بسـياراتهم؛ لأن القنبلة الثالثة سـقطت في مركز الربيئة التي كانوا يقفون عليها قبل لحظات.

وقامت الدنيا وقعدت.. وتناقل الناس أنباء ذلك الحادث.. ونقلته الصـحف والإذاعات المصرية وأضـافت عليه ما أضـافت. وتشـكل مجلس تحقيقي برئاسـة عبد العزيز العقيلي للتحقيق في حادثة المدفع. إلا أن نتائج التحقيق لم تسـفر عن إدانة أحد.. واعتبرت الطلقات تلك.. رميات خطأ من مدفع مجهول... !!

والظاهر أن التحركات في الفرقة الأولى لم تنته بقضية المدفع.. إذ قام المقدم الركن عبد الغني الراوي معاون أحد أمراء الأفواج في لواء المشـــاة الخامس عشرـ بفتح مشــاجب الفوج والاســتيلاء على كمية من الغدارات والطلقات شــحنها بســيارة الملازم عبد الســتار المعيني وجاء بها إلى بغداد وبرفقته عدد من الملازمين ليقوم بقتل جماعي للملك والأمير وســائر أفراد الحكومة العراقية في حفلة تخرج دورة كلية الأركان، إلا أن المحاولة أوقفت ولم تنفذ.

لكن الأخبار عن تلك المحاولة لم تكن بهذا الشــكل، بل ذكرت أنه كان من المحمل أن يقوم لواء المشاة 15 باحتلال بغداد بعد أن أنهى تدريبه الإجمالي مع الفرقة الأولى، وعاد إلى البصرة عن طريق قطار بغدا – البصرة.

وعندما نناقش هذا النبأ مع الأمير.. اســتبعد- صــحته لكون آمر اللواء المذكور العميد الركن أحمد محمد يحيى من الذي لا يرقى الشك إلى إخلاصهم لحظة واحدة.

وأردف قائلاً: إنه لا يعتقد بأن في إمكان لواء مشاة واحد السيطرة على بغداد. ثم لم تلبث المعلومات التي وردتنا أن إشــارات إلى أن التحركات قد امتدت ووصــلت إلى الوحدات الموجودة داخل العاصــمة بغداد.. كما وردت معلومات عن نشــاط عناصر من القوة الجوية.

تحركات في معسكر أبو غريب.. وزيارة الملك للمعسكر المذكور:

وفي إحدى الأمسيات اتصل بالقصر ضابط من إحدى كتائب الدبابات الموجودة في معسكر أبو غريب القريب من بغداد، وأفضى إلينا بمعلومات مفادها بأن معسكر أبو غريب غدا مقرًا لاجتماع الضباط المتقاعدين أمثال رفعت الحاج سري[1] وطاهر يحيى.. وأنهم يضعون خطة للاستيلاء على الكتيبة والتقدم بها باتجاه بغداد، وسرعان ما قرر الأمير أن يقوم الملك بزيارة إلى كتيبة الدبابات الثانية.. ووقف ضباط الكتيبة على نسق أمام المقر وصافحهم الملك واحدًا واحدًا وعلامات البشر والحبور على وجهه. ثم تناول معهم الشاي.. وكعادته انزوى عنهم جانبًا وهو يرتشف قدح الشاي الموجود أمامه، وانتهت الزيارة بشكل بروتوكولي مرسوم.. وغادر الملك ضباطه دون أن يترك أثرًا ما في نفوسهم وبخاصة الشبان منهم.

---

(1) العقيد رفعت الحاج سري (رحمه الله) كان من أوائل الضباط الذين نظموا حركة الضباط الأحرار بالجيش.. ويقال: إن نوري السعيد بعث بطلبه وقال له ناصحًا أن يترك القيام بمثل هذه الأعمال لأنه فيما إذا نجحت الثورة فإنه أي (رفعت) سيكون أول ضحية لها.. وبالفعل فقد تم إعدامه على يد عبد الكريم قاسم بعد أقل من سنة ونصف على نجاح ثورة 14/ تموز.

تحركات في لواء المشاة التاسع عشر.. وعبد الكريم قاسم:

ومن المؤكد أنه إلى أوائل عام 1958 لم تتوفر للبلاط معلومات موثوقة عن الأسماء والرتب الكبيرة لحركة الضباط الأحرار. كما لم نستطع التوصل من خلال التقارير إلى التثبت من اسم الرأس المدبر الواقف وراء تلك الحركة.

إلا أنه في أوائل شهر كانون الثاني من نفس العام بلغني شخصيًا معلومات أكيدة عن مركز التجمع في منطقة معسكرات جلولاء ومنصورية الجبل حيث يعسكر هناك لواء المشاة (19). وذلك أن أحد ضباط اللواء المذكور كان يجتمع ليليًا مع ضباط الوحدات المختلفة ويناقشون تخطيطًا، وتقدير موقف لعملية عسكرية هدفها احتلال بغداد، والقيام بانقلاب عسكري. وأن أحد ضباط اللواء المذكو – وهو يشغل منصب مساعد أحد أمراء الأفواج – يقوم بتلك العمليات.

وقد ورد لأول مرة اسم عبد الكريم قاسم، حيث أفاد النبأ بأن عبد الكريم قاسم هو الرأس المدبر وراء النشاطات هناك.

وعندما نناقش تلك الأخبار مع الأمير بدا متلهفًا في تلك الليلة لمعرفة المزيد من الأنباء والأخبار. كما بدا وجهه جامدًا ساكنًا كعادته وهو يصغي، بحيث لا يكاد المرء أن يستقر ليعرف ما يدور بداخله من أحاسيس ومشاعر، اللهم إلا علامات الإجهاد والتعب التي أخذت ترتسم على وجهه منذ أشهر.

وما أن وصــلت إلى اســم عبد الكريم قاســم.. حتى عاد إلى عادته فزوّى مابين حاجبيه وفرك جبينه بأصبعه وغرق برهة في التفكير.

وقال.. ولم يتطرق إلى اسم عبد الكريم قاسـم.. (ولسـت أدري لماذا.؟). ولكني أعتقد إما أن يكون الأمير غير مهتم بالاســم.. أو أنه لا يريدني أن أشــعر بأنه مهتم بعبد الكريم قاسم وقال.. وأعتقد بأنها حركة لضباط صغار.. والدليل على ذلك هو أن الذي يقود ويوجه هذه المجموعات هو ضــابط بمنصــب مســاعد آخر فوج.. والمساعد عادة ضابط برتبة صغيرة.

وقاطع الحديث مرافقه العقيد عبد القادر محمود بقوله: «ولكن يا سيدي يجب أن لا نهمل الأمر.. إن الأمر يبدو صغيرًا، لكن قد يجر إلى كبار الأمور».

وعندما كنت أحدث ضـابط الاسـتخبارات الخاص عن عبد الكريم قاسـم، كان وجه ينبئني بأن معلومات كثيرة إلا أنها غير أكيدة قد وصلت عنه.

وفي يوم 6 كانون الثاني/ 1958 وهو يوم ذكرى تأســيس الجيش العراقي جرى ا ستعراض ضخم للجيش في مطار الر شيد العسكري – وألقى الملك كلمة قصيرة نوه فيها عن الخطر الشـيوعي الذي يحيق بأمتنا، وبدا صـوته جهوريًا واضـحًا، وهو يحاول أن يتلاعب بأوتار صوته لتكون لكلماته وقعها في الآذان والنفوس.

ووقفت القطاعات العسكرية المختلفة بالنسق الا ستعراضي قبل التفتيش، وكان فوج الحرس الملكي يقف مجاورًا لواء المشـــاة 19 حيث وقف في مقدمته آمره العميد الركن عبد الكريم قا سم، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها هذا الضابط. وقد بدا أمامي وهو يصــول ويجول أمام أفواجه بقامته العســكرية المشــدودة شــدًا، كأنه سيف غرز في الصخر، وبدا كل ما فيه وكأنه خلق للجيش والقيادة.

وكانت الأوامر قد صــدرت إلى القطاعات بالوقوف بالاســتعداد والتتابع ابتداء من الكلية العســكرية، فكلية الطيران، ثم فوج الحرس الملكي، وبعده لواء التاســع عشرــ. على أن يصــدر آمر القطعة إيعازه بالاســتعداد لقطعته حال نزول الملك من قاعدة التحية والمرور أمام القطاعات للتفتيش.

وحالما نزل الملك من القاعدة وقبل أن تدور ســيارته نصــف دورة ليصــل أمام الكلية العسكرية باشر آمرو القطاعات بالإيعاز بالتتابع.

كان صوت عبد الكريم قا سم يشق السكون... رفيعًا.. ثاقبًا.. صارمًا. بالإيعاز إلى وحداته بالاستعداد قبل بقية الوحدات.

وكأنه بهذا أراد أنه يثبت أمام الملك وصــحبه وعيون اســتخبارات الجيش وفوج الحرس المجاور له.. بأنه موال للملك أكثر منهم.. وقلت في نفسيــ:- إنها عملية مكشوفة.

وعندما وصلت العربة الملكية أمام عبد الكريم قاسم، تمهلت بالسير وترجل منها الملك والتقط فيلمًا سينمائيًا لعبد الكريم قاسم ركز عليه مدة دقيقتين أو ثلاث دقائق.

زيارة الحراسات الملكية.. قنبلة في سيارة الوفد الأردني لمباحثات الوحدة:

إلا أن الأيام التي تلت.. كانت تمر على الأمير القلق الخانق بحيث أخذ يشعر جيدًا – ولا خلاف – بأن ثمة خطر يهدد حياته، وأصبح في حالة ضيق نفسي واضحة حتى حدث في إحدى الليالي أن قدم رئيس التشريفات لمقابلته في القصر في ساعة متأخرة من الليل بدون موعد سابق. ولما كان رئيس التشريفات شخصية معروفة لدينا، فقد سمح له ضابط خفر قصر الرحاب بالمرور بدون إذن مسبق.

كان لهذه الحادثة البسيطة أثرها على عبد الإله.. وبعث إلينا بضابط الاستخبارات الخاص الذي ألقى فينا كلمة عبر فيها عن غضب الأمير؛ وأنه غدا يشعر بألا وجود لحرس لديه.. وختم حديثه فينا بأننا جميعًا في خدمة سيدنا الأمير.. بل إن الجيش كله في خدمة سيدنا الأمير.. ومن لا يعجبه هذا الوضع فليتقدم بطلب نقله إلى خارج الوحدة.. أو خارج الجيش.

وانبرى عدد من الضباط يطلبون بأن تكون مسؤولياتنا مضاعفة. وأن يصدر أمرًا بإبقاء ضابط خفر قصر الرحاب يقظًا طوال الليل دون أن ينام مطلقًا. وكان أبرز المتكلمين هما الضابطان عبد الله مجيد آمر مفرزة تصليح آليات اللواء..

ومنهم عزيز آمر رعيل مدرعات الفوج، اللذان بدوا منفعلين وما يتحدثان عن ضرورة المحافظة على حياة الأسرة المالكة الغالية.

وجدير بالذكر أن الواجبات التي كانت ملقاة على جنود الفوج تضاعفت أربعة أضعاف عما كانت عليه قبل عام؛ بحيث زيدت نقاط الحرس في قصر- الرحاب. وازدادت النقاط تباعًا في الزهور والبلاط والفوج. وازداد عدد الدوريات. وصدرت الأوامر المشددة لضباط الخفر بالقيام بدورات تفتيشية وكانت عقوبة الجندي المقصر في واجبه السجن مدة عشرة أيام كحد أدنى.

ولم يكف الجنود في السر-ايا للواجبات، وأصبح أي جندي لا يستطيع أن يغادر الثكنة إلا نادرًا وبحالات ا ستثنائية حتى أن بعضهم كان يظل في الواجب مدة ثلاثة أو أربعة أيام متتالية بكامل قيافته العسكرية، حتى بدا على عدد منهم الاصفرار والخور والإنهاك.

وراحت تنهال الشكاوى من ضباط الصف القدامى.. أنه لم تمر في حياته فترة ظلوا فيها بالواجبات المتتالية كهذه الفترة.

ولم نقم بتخفيف الواجبات العسكرية الأخرى عنهم، ذلك أن منهج التدريب الفردي والإجمالي كان يطبق بحذافيره، وبشدة.

وعندما انتقل إلى الأمير وصــف تلك الحالة النفســية والجســمية المرهقة التي يعيشــها الجنود؛ كان من الواضــح جدًا أنه غدا خائفًا من الموقف العام كله، إذ رد علي: بأننا نمر بموقف دقيق جدًا.. ويتطلب أن نكون كلنا.. بالإنذار.. واســتأنف قائلاً: إننا نمر بأزمة.. وستنتهي بشكل ما كما انتهت غيرها من الأزمات. لكنه قال ذلك بصوت خال من الثقة بنفسه تمامًا.. حتى إنني قلت فيما بيني وبين نفسي. هذه أول أزمة أراها في حياتي بصــحبة الأمير... ولا أدري ما إذا كان قد عالج الأزمات الســابقة بنفس الروحية والمعنوية المتردية التي أراه عليها الآن.. أم أن أزمة هذه المرة أعنف وأشد وقعًا عليه...؟

إلى هنا.. لا بد من أن أعود فأتذكر أنه حتى تلك الســاعة.. وحتى إلى ما بعدها.. فلم يسبق أن كلمت الملك بأي شأن من هذه الشؤون.. وكان الملك يبدو طبيعيًا في أغلب الأوقات التي تســمح لنا واجباتنا بلقياه.. لدقائق معدودات فقط، ولا يدور بيننا أي حديث خارج حدود المجاملات، بحيث لا يمكنني في هذا المقام أن أعطي صورة واضحة عن مشاعر وخواطر وأحاسيس الملك في تلك الفترة الحركة التي كنا نجتازها. بيد أنه بتاريخ 23/ آذار/ 1958 كنت أتأهب للســفر إلى الباكســتان للاشتراك في استعراض عسكري تقوم به قطعا رمزية لدول حلف بغداد..

وعندما اجتمعت بالملك وعن قرب، رحت اتفرس معالم وجهه.. فهالني منظر الشحوب يطغى على ملامحه. علامات الضعف الشديد تنطق على سيماه، إلا أن كل ذلك لم يمنع الابتسامة المشرقة أن تلازم شفتيه وهو يلقي بحديثه العذب على مسامعي.

وعندها تيقنت من أن جلالته وإن كان يبدو بعيدًا عن الأحداث، إلا أن طبيعته ونفسيته الهادئة المسالمة جعلته ولا ريب يكتم خوفه وقلقه في نفسه.. ويكظم انفعالاته وحريته داخل قلبه، أو قد يفضي بها إلى الرجل الوحيد الذي يثق به ألا وهو خاله الأمير.. ولست أدري كيف كان عبد الإله يعالج تلك الأمور مع الملك. أو كيف كان يطمئنه لأنني -كما قلت- لم يسبق لي أن تحدثت مع الملك.. أو مع الأمير وبصحبتنا الملك بشأن من الشؤون.

وعندما رجعت من الباكستان، وجدت أن هناك مفاجأة كبرى تنتظرني؛ إذ شاهدت حينما كنت في قصر الزهور حطامًا مخيفًا لسيارة مرسيدس مهشمة تهشيمًا كاملاً ومحترقة وملقاة في المرآب الخلفي. وقد علمت أن الحادث حصل عندما جاءت السيارة تقل وفدًا أردنيًا لإكمال مباحثات الاتحاد بين العراق والأردن. وترجل الوفد منها ونزل إلى قصر الزهور، وجرت المباحثات. وعندما أنهى الوفد مهمته خرج الكل من القصر، وفيما كان أعضاء الفريقين يتصافحون بالباب،

ويودع بعضهم بعضًا، شاهدوا وميضًا يخطف الأبصار تبعه دويي انفجار هائل تطايرت على أثره أشلاء السيارة في الفضاء. وأسرع الوفد بصحبة نوري السعيد بدخول القصر ثانية، وهرع ضباط الحرس من بهو الضباط مسرعين باتجاه صوت الانفجار. وبعد دقائق وصل الأمير الذي كان ما يزال يرتدي منامته، وشاهد النار وهي تلتهم بقايا السيارة.. وإلى جانبها جثة أحد بستانيي القصر و قد مزقها الانفجار. فأمر الأمير بنقل الجثة وأشرف بنفسه على إطفاء النار. وسرعان ما حضر خبراء المتفجرات والمفرقعات من الجيش للكشف عن الحادث. فكان تقريرهم يجمع على أن الحادث لم يكن بفعل وجود قنبلة أو متفجرات؛ وردوا أسبابه لتماس الأسلاك الكهربائية بعضها ببعض في السيارة، وإلى ارتفاع الحرارة في خزان الوقود وكان الانفجار... وبذا أسدل الستار على الحادث.

دوائر الأمن العام.. وحركة الضباط الأحرار:

لم تكن مديرية الأمن العامة ودوائر مخابراتها المدنية.. ووكلاؤها بغافلين أو متغافلين عن موضوع الحركة في الجيش. وقد تناقلت الألسن بعد الثورة بأن السيد بهجت العطية مدير الأمن العام قد أخبر نوري السعيد مرارًا بحديث تلك الحركات. وقيل في رواية أنه اتصل تلفونيًا بنوري السعيد في الساعات المبكرة من صباح يوم الثورة، ليخبره بأن وحدات الجيش تقوم باحتلال بغداد.. إلا أن السعيد رد عليه بأن يطمئن وينام ولا يخشى شيئًا.

ولا نعرف مدى صحة هذه الرواية، إلا أن من المؤكد أن دوائر الأمن العام كانت على علم اليقين بتفاصيل حركة الضباط الأحرار، لما كان يصلها من تقارير وكلائها المندسين في صفوف الأحزاب والمدنيين وغيرهم. ففي أواسط شهر نيسان من نفس السنة أوفدت بمهمة عسكرية خاصة لبعض وحدات الفرقة الأولى في جنوبي العراق. وعندما بلغت مدينة الحلة خطر لي أن أقوم بزيارة مجاملة إلى مدير أمن الحلة.. السيد أنور ثامر الذي سبق له أن رافقنا في سفرة إلى خارج العراق بمهمة المحافظة على حياة الأمير.

وعندما تطرق بنا الحديث إلى وضعية الجيش أفاد المومأ إليه بأنه يعتقد جازمًا بأن الجيش يتمخض لمن حركة قوية بين ضباط الفرقة الأولى باسم حركة الضباط الأحرار، وبحوزته أدلة دامغة على أنهم يسعون للقيام بانقلاب عسكري.. وأدلى إليّ ببعض أسماء الضباط النشيطين، وأطلعني على عدة تقارير من وكلائه عن نشاطات بعض العسكريين في المنطقة، ثم أردف قائلاً: «إلا أن تلك المعلومات برمتها لا علاقة لها بدائرتي، واختصاصي الوحيد يستهدف الحركات التي يقوم بها المدنيون، أما قضايا الجيش فهي من اختصاص مديرية الاستخبارات العسكرية، وعندما وصلت إلى مدينة البصرة وجدت بانتظاري مفاجأة من نوع آخر، إذ بينما كنت في أحد شوارعها، إذ بي ألتقي بالنقيب المتقاعد عباس الدجيلي الذي سرعان ما احتضنني.. ودعاني معه إلى سهرة معه تلك الليلة..

وفي النادي شرع الدجيلي يعب الخمر عبًا بشراهة المجنون.. وكان كلما زاد من الشراب انفتح فمه عن أسرار رهيبة عن المستوى الرفيع والمقدرة البالغة التي آل إليها تنظيمهم.. وأنهى قوله محذرًا إياي بأنه لن يهمه بشيء إذا ما قمت بإيصال هذه الأخبار للحكومة.. أو للسموات.. لأن مصير الحكم كله سينتهي قريبًا بضربة من حذائه.

الأمير عبد الإله.. الحزين القلق:

وحالما قفلت راجعاً إلى بغداد بعد انتهاء مهمتي.. كنت في مساء اليوم ذاته على موعد مع الأمير للإدلاء له بما في جعبتي من أخبار عن الفرقة الأولى. لقد كان الأمير في حالة نفسية يمكن وصفها بالقاتلة.. ولم يسبق لي قط أن شاهدته على تلك الدرجة من الخمول والشرود.. وقد بدت علامات الكبر تعلو وجهه، وتقوست كتفاه، كأنه ينوء بحمل ثقيل. وعندما كنت أؤدي له التحية العسكرية في غرفة استقباله، كان يجلس مسترخيًا على كرسيه، وقد ارتدى روبًا أسود، وأشار إليّ بطرف أصبعه: أن أقعد.. فقعدت، وكان من عادته أن يقدم لي لفافة ثم يولعها بنفسه، ثم يطلب لي كأسًا من الشراب إلا أنه لم يفعل هذه المرة، وبدا أنه لا يريدني أن أطيل الكلام في حضرته. وعندما كنت أحدثه عما سمعته.. كان بصره يسرح في سماء الغرفة.. ويتطلع يمنة ويسرة كمن اعتاد على سماع هذه الأخبار... وزهق منها.. أجل.. لقد زهق ومل هذه الأخبار المفجعة التي أصبحت كطعامه وشرابه اليومي الذي لا بد أن يكون قد مله أيضًا، فلم يعد يستسيغه ولا يستسيغ من وقعه الطعام والشراب.

وعلى غير عادته.. فلم يعلق على الأخبار بشيء، كما لم يطلب المزيد من المعلومات.. بل هز رأسه وشكرني، وفي وجهه ألف إشارة أن أدعه لوحدته، وأن لا أزيده ضيقًا على ضيق، فهو لم يعد بحاجة إلى أخبار ولا إلى معلومات.. بل ولا أصدقاء، وأكاد أقول في هذا الصدد بل إنه لم يعد يحتاج إلى العراق كذلك.

حاولت أن ألقي على مسمعه نكتة تزيل عنه الكآبة، إلا أنه ابتسم ابتسامة هي تكشيرة الألم.. وألفيت نفسي ـ كأنني أثقل عليه بوجودي؛ لأنه يحتاج قبل كل شيء إلى أن يخلو لوحده.. لنفسه.. لأفكاره.. فانسحبت من مجلسه.

لقد لازمني الأرق تلك الليلة ولم يجد النوم إلى جفوني سبيلاً، إذ لم يفارقني مرأى الأمير حزينًا.. وبدا لي وجهه مرآة تعكس ما في نفسه من خوف وقلق.. قلق نفسه.. والقلق العام الذي كان يعيشه العراق تلك الأيام.

وفي الفترة الممتدة من نيسان إلى أواسط حزيران كنت قد استلمت سرية حراسة البلاط، حيث كنت أشاهد فيها الملك والأمير يوميًا تقريبًا. ورغم أن تلك الأيام كانت حافلة بالأحداث السياسية الخطيرة.. وأهمها إكمال مراحل الاتحاد بين العراق والأردن.. ومحاولة إقامة اتحاد مع الكويت كذلك، إلا أن كل ذلك لم يعد الابتسامة إلى وجه الأمير.. كان يدخل مكتبه المكتظ بالرسائل المختومة، ويخرج منه وقد امتلأت المرمدة بعشرات الأعقاب للفائف التي دخنها. ولمدة شهرين.. لم يبعث الأمير بطلبي،

أو يحدثني منفردًا في المواضيع التي اعتدنا الخوض فيها، لقد ازداد وجهه عبوسًا، وازدادت نظراته حيرة.. وأخذت ألاحظ أنه غدا يطرق أرضًا وهو يسير. وفي الثاني من شهر مارس أقام الفوج حفلة حضرها الملك الذي بدا منشرحًا وهو يستمع إلى غناء المطربات اللواتي جئن للترفيه عن الجنود. أما عبد الإله.. فكان غارقًا في تأملاته الخاصة وهو لا يعي ما يدور حوله إلا الاستماع إلى رئيس أركان الجيش الذي كان مندمجًا معه في حديث.

وفي الحفلة الوحيدة التي أقامها قصر الرحاب بالمناسبة.. شاهدته يطيل الحديث إلى هذا وذاك، وكأنه يدفع عن مخليته هاجس الظهور بمظهر الخائف أو القلق أمام الناس.

المقابلة الأخيرة مع عبد الإله.. (لقد فاضت الكأس بما فيها)

كانت المرة الأخيرة التي اجتمعت بها إلى الأمير في أوائل شهر تموز من عام 1958.. ففي أمسية حارة من أماسي ذلك الشهر. رن جرس الهاتف.. وطلبني الأمير إلى قصر الرحاب.. وفي غرفة استقباله كان أحد أفراد الحرس الخاص يعد طعامًا خفيفًا على منضدة مجاورة عندما قال له الأمير: أنه لا يريد طعامًا هذه الليلة، وأمره بالانصراف.. وبقينا منفردين.

منذ شــهرين ونصــف أيقنت بأن الأمير لم يعد يكترث لأحد.. لم أحظ منه بغير عبارة صــباح الخير.. ومع الســلامة التي كان يلقيها عليّ في البلاط؛ حتى خامرني الشك بل الخوف من أن يكون غاضبًا عليّ أو سمع عني ما لا يرضيه، أو أن أكون قد تصرــفت تصرــفًا لم يعجبه، إلا أن الابتســامة عادت فأشرقت على وجهه، ثم لم يلبث أن اعتذر لي عن عدم تمكنه من ا ستدعائي.. و سألني ما إذا كنت لا أزال أتردد على ضابط الاستخبارات.. وأفضى إلي بأن مشاغله ومشاكله غدت كثيرة..

لم يتحدث عن الوضــع الســياسي.. ولم يســتطلعني الأخبار والمعلومات.. إنما وبشــكل فجائي قفز دفعة واحدة إلى فوج الحرس الملكي إذ ســألني: «كيف هي الوضعية الآن في الفوج.؟».

وعندما كنت أحاول أن أجمع شتات نفسي. وأهم بالجواب، قاطعني بقوله: «هذا أحد ضباط دورتك.. الملازم أسعد حموش.. رغم أنه قضى معنا سنتين فقد أضررنا لإبعاده عن الفوج ولم يخبرني أحد منكم عنه شيئًا».

وعندما حاولت الإجابة.. بل السؤال عما اقترفه أسعد الذي فوجئنا جميعًا بنقله من الفوج إلى آمرة مديرية الإدارة في وزارة الدفاع. بادرني الأمير بسؤال محير آخر إذ قال: «ما رأيك بالنقيب منعم عزيز آمر رعيل المدرعات في الفوج؟».

وعندما أجبته بأنني لم أسمع عنه شيئًا، ولا أتصور أن يكون غير موال كان الأمير كعادته قد غرق في تفكير عميق، وسرح ببصره غارقًا في كأسه التي كانت أمامه، ثم تكلم وخرجت كلماته من فيه وكأنها فحيح، وقال:

«والله لم أعد أدري أين أنا... لقد فاضت الكأس بما فيها..».

وسكت وسكَتُّ أنا كذلك.. ولم أدر ماذا أقول أو أتحدث به.. وهل بقي هناك ما يمكن أن أتحدث به.

لقد صدق الأمير بقوله: أن الكأس فاضت بما فيها.. إذ لم يعد هناك أسرار أو أنباء مكتومة، أو حركات مستورة لا يعرفها الأمير حتى أفضي بها إليه، وذلك لسبب بسيط وبسيط جدًا.. هو أنه لم يعد هناك من يكترث للكلام سرًا.. أو العمل جهرًا.. ثم التفت إليّ وقال تعال نتمش في الحديقة.. وعندما كنت أهم بالوقوف كنت كمن يريد الخروج من غرفة فيها مريض يلفظ أنفاسه الأخيرة.. ليخرج إلى حيث يتسنى له أن ينسى هذا المنظر المفجع.

وهبط الأمير درجات قصر الرحاب، ولفحت وجهنا نسمات حارة من نسمات ليالي شهر تموز في بغداد، و سار الأمير في الطريق المؤدي إلى الشارع العام الذي كان ساكنًا تمامًا لا يُسمع فيه إلا وقع خطواتنا. ومزق السكون صوتُ جنود الربايا والدوريات وهم يضربون أخمص بندقياتهم أرضًا استعدادًا وتحية للأمير الذي كان يرد عليهم التحية بيد متثاقلة.

كان يسير وهو يجر خطاه جرًا.. وعلى طول الطريق لم ينبس ببنت شفة. وعندما بلغنا مباني ثكنة الرحاب التفت إلي وقال: تصبح على خير.

وعندما كنت أؤدي له التحية.. كان يسـير وقد لفه ظلام الشـارع متوجهًا إلى الجسر ـ الحديدي الذي يمر فوق نهر الخر، ومن مكاني في حديقة الثكنة كنت أراقبه، وقد اتكأ تعبًا على المسـند الحديدي للجسر ـ، وهو يتطلع إلى المياه الراكدة السـوداء.. ومن مكانه هذا كان يبدو وكأنه شبح أسود يومض بين الفنية والفينة بوهج أحمر كلما ارتشف من لفافته نفسًا عميقًا.

وعندما كانت السيارات تمر فوق الجسر ذاهبة آيبة كانت أنوارها تتسلط على هذا الرجل المتكئ تعبًا على الجسر دون أن يعرف ركابها أنه حاكم العراق الأول.

وكنت في وقفتي تلك قد سرحت بي الأفكار مبتدئة بالملك الذي لا بد أن يكون الآن نائمًا يحلم أحلامًا وردية، وقد لفه سـكون الملاك الذي يتمثل بشـخصـه الملاك، ولا بد أن تكون في نفس الأمير ما عليه نفسي الآن من وجل وبلبلة وخوف .. خوف من كل ما يحيط بنا ويلفنا.. خوف حتى من الصرح المظلم الساكن هذا، والتفت إلى القصر ـ وأصـداء حديث الناس تزوبع في خيالي: ثورة.. انقلاب عسـكري.. حركة سيقوم بها الجيش اليوم.. غدًا.. بعد أسبوع.. الشهر القادم.

ولم يكن هذا حديث اسـتخباراتنا فقط.. أو حديث زملائنا الضـباط.. كما لم يكن هذا الكلام مقصورًا على السيا سيين والمعار ضين والشباب المتحمس للثورة.. وإنما غدا كلام الناس في كل مكان: حديث في الشارع، في المقهى، في النادي، في العمل في كل مكان..

ولم يطل الوقت حتى أصبحت تلك الأقوال حديث النساء والأطفال... وكثيرًا جاءني الأهل والأقارب يستفسرون عن صحة تلك الأخبار، أو يزودونني بالإشاعات والأقاويل. وبكيت المرحومة والدتي مرارًا وهي تسمع تلكم الأحاديث.. وكم من مرة قالت، والدمع يغرورق في مآقيها بأنها تتوجس خوفًا من شر داهم.

وحتى هواجس زملائي ضباط الوحدة عن الأمير وآلامه وأحزانه.. وقلقه.. كانت متشابهة لما كنت أفكر أنا فيه. وكم تحدثنا نحن ضباط السرية عن أحلام مزعجة راودتهم في منامهم، وأيقظتهم فزعين، وهم يتخيلون أن هجومًا قد شن على القصر.

وقطع عليَّ سلسلة أفكاري وقع أقدام الأمير، وهو يقفل راجعًا إلى القصر.. وعندما كنت أحييه التفت إليَّ وقال لي مرة أخرى: تصبح على خير، ثم تابع سيره في الشارع المظلم المؤدي إلى داخل القصر.. وابتعد عني، وهو يسير متباطئًا كمن ينوء ظهره بحمل ثقيل.. ووسط ذلك السكون من الظلام.. كان نعيق وصرخات الطواويس يشق السكون، والتي لم تعد تسير متبخترة بريشها الجميل خوفًا من الظلام.. بل تكتفي بين الفينة والفينة بأن تطلق صرختها المدوية.. كصرخة الموت التي تطلقها نساء بغداد في مواكب الجنازات.

وبالنسبة لواجباتنا في الفوج فقد ضاعفنا الحراسات.. ووزعت علينا أوامر خطية عن حالة الإنذار، الدرجة (ج).

لقد كنا نعرف أن حدثًا ما سيقع.. أما كيف سيكون ذلك الحدث..؟ وأين سيكون؟ ومتى..؟ تلك أمور كنا نجهلها.

والإنذار للدرجة (ج) معناه يكون الفوج بكامله على أهبة الاستعداد للمعركة؛ بكامل عدته وسلاحه وأن يكون الكل بملابس الميدان معتمرين الخوذ الحديدية؛ ويوزع عتاد الخط الأول – عتاد المعرك – على الجنود، وكذلك يوزع ضماد الميدان؛ وتتحرك المدرعات الثلاث الموجودة في الفوج لحماية جوانب قصر الرحاب.

على أنه لم تصدر إلينا أوامر حركات؛ أو مناقشة تعبوية لخطط دفاع، أو خطط هجوم؛ أو خطط انسحاب من القصر. كما لم تصدر إلينا أوامر أو تعليمات عن كيفية تصرفنا في حالة وقوع هجوم مباغت على القصر؛ أضف إلى ذلك أنه لم يسبق لنا أن قمنا بتدريبات على تلك الأمور، ولا ناقشنا مناقشة عسكرية متفحصة للمناطق القريبة من القصر التي قد ينشب فيها قتال.

كان موجود قوة قصر الرحاب يوم 14/ تموز/ 58 سرية المشاة الأولى بإمرة النقيب ثابت يونس الذي كان يشغل منصب المرافق العسكري للملك وكالة. واستلم السرية بدلاً عنه معاونه النقيب نشأت ماهر.

وكان آمر الفصيل الأول الملازم عامر خالد الحمدان؛ وآمر الفصيل الثاني الملازم فالح زكي حنظل، وآمر الفصيل الثالث الملازم أمير عليوي.

وقد أضيفت إلينا قوة من فصيلين من السرية الثالثة مسلحين بالبنادق بإمرة ضابط صف برتبة رئيس عرفاء.

وكان ملاك سريتنا كاملاً من حيث العدة والعدد، وبذا يكون مجموع قوة قصر ــ الرحاب حوالي 220 رجلاً يضاف لهم حوالي العشرين نفرًا من الانضباط والحرس والخاص.

وكان يتيسر لنا في مشاجب السرية تسعة رشاشات بون. وثلاثة مدافع هاون 2 عقدة، وقد بلغت نقاط الحراســة في القصر ــ ثماني نقاط.. وعدد الدوريات ثماني دوريات. وانتشرت نقاط الحراسة الجديدة في أرجاء حدائق القصر وأطرافه بحيث غدا ثكنة عسكرية صغيرة.

ومع ازدياد الحراسات والواجبات، كان قلقي يزداد بشأن الوضعية العامة وأنا أتطلع في وجوه الجنود والضــباط الذين التحقوا بنا مؤخرًا، إذ أنه في 1/ تموز/ 58 التحقت بنا وجبة جديدة من ســتة ضــباط أحداث تخرجوا من الكلية العســكرية؛ وكثيرًا ما كنت أسـأل نفسي ـ ترى هل تم انتخاب هؤلاء الضـباط للحرس الملكي.. لطولهم وعرض أكتافهم، كما حدث معنا ومع غيرنا. أم أن الاختيار كان في هذه المرة صائبًا وموفقًا. وكنت على شبه يقين بأن هذه الوجبة الجديدة من الضباط الشبان لا بد أن تكون مشحونة بنواة الثورة التي تم «طبخها» في بقية الأحداث.

إلا أن دهشــتي كانت بالغة.. يوم وقع الانقلاب.. وأنهدَّ صرح الملكية.. وقامت الجمهورية، كان المرافقان العسـكريان اللذان رافقا بطل احتلال بغداد العقيد الركن عبد الســلام محمد عارف هما: النقيب منعم عزيز.. ضــابط مدرعات فوج الحرس الملكي، والملازم أول عبد الله مجيد ضابط مفرزة تصليح آليات لواء الحرس الملكي.

القدر:

وفي يوم 5/ تموز أنقذت من الحالة التي كنت فيها، وزايلتني موجات الحدس والتخمين التي كانت تعتمل في أعماقي.. فكان ترشيحي إلى دورة تدريب مشاة أساسية في مدرسة المشاة في معسكر الوشاش.

وعندما كنت أقدم نفسي- لآمر الدورة النقيب عبد الستار سبع العبوسي، كانت هناك زمرة من حوالي العشرين ضابطًا من مختلف الوحدات قد التحقوا بتلك الدورة. ولم أكر – في تلك اللحظ – أعلم بأنني أقف مع مجموعة للضباط الذين ستشاء إرادة الله تعالى أن تُقتل الأسرة المالكة كلها على أيديهم، وأن يقيموا برشاشاتهم.. صرح الانقلاب وبناء الجمهورية العراقية.

وفي مساء يوم الخميس 10/ تموز كنت قد ارتديت ملابسي العسكرية بغية التوجه إلى مدرسة المشاة عندما طرق باب منزلي صديقي الملازم عبد الرحمن السيد جواد.. وبعد السلام والكلام قال لي: لقد انتهت القضية يا فالح.. فلواء المشاة العشرين الذي سيذهب إلى الأردن، ليقوم بتبديل رتل الهادي الموجود هناك، وحالما سيمر اللواء المذكور في بغداد فسيحتلها.. ويقوم بالانقلاب؛ على أن ينفتح لواء المشاة (19) في منطقة منصورية الجبل ليتقدم إلى بغداد لاستثمار الفوز، أو معالجة الموقف أن هو تطور في غير صالح الثورة ورجاني صاحبي بقوله: أنه جاء قادمًا من معسكره ليقول لي كلمتي تلك، لأبتعد عن الفوج أو آخذ أجازة،

أو أســتريح في البيت، وألاَّ أتورط في المقاومة لأن القضــية منتهية، ولا شــفيع أو صـــديق لنظام الحكم في العراق.. وودعني، وهو يقبلني مكررًا رجاءه: أن أبتعد عن مواطن الخطر.

وعندما تركني صــاحبي.. رحت أســبح في خيال القلق ثانية.. ذلك القلق الذي طالما لازمني طوال السنتين المنصرمتين.

لقد كان خبرًا كبقية الأخبار الســابقة التي ســمعتها والتقطتها من عدة مصــادر.. ستقوم الوحدة الفلانية بالانقلاب يوم.. كذا..

لقد توترت الأنباء والأخبار عن هذه الحركة، وعن هذا الانقلاب، حتى بات الأمر بالنسبة لي كمن يقول لي أن في يدي خمس أصابع أعرفها حق المعرفة.

هكذا كان الانقلاب.. حقيقة واقعة.. وبدهية مسلمًا بها.. ننتظر اليوم الذي تظهر فيه بشكل انفجار.. مسموع.. ومشهود.

وعندما كنت في طريقي إلى معســكر الوشــاش، كنت قد أزمعت الذهاب من فوري لمقابلة الأمير والإدلاء له ما عندي.. وعندما كنت أراجع نفسي ـ باطنًا وظاهرًا.. هل أذهب الآن..؟.. أم.. أتريث قليلاً..؟

ماذا سأقول..؟

لقد قلت مرارًا ومرات مثل هذا الخبر.. للأمير نفســه.. فكان الرد.. على تلك الأخبار تسجيلها في محضر خاص.. حفظها.

ثم ترى ما هي حالة الأمير النفسـية الآن؟ فأنا لم أره منذ أسـبوعين.. كان في آخر مرة رأيته فيها بادي الهم، ظاهر الغم. يعتصر الألم نفسه اعتصارًا. كان مظهره مظهر مريض يعرف أنه لا رجاء بشــفائه؛ وأنت تعرف عنه ذلك أيضًــا. لا تريد أن تطيل الجلوس معه.. لأنك، وأنت تجالسه، فكأنك في حضرة ميت حي أو حي ميت.

وفي المرة الأخيرة.. التي رأيته فيها كان إنســانًا يائسًــا من وجوده. غير راغب في بقائه بل غير مقتنع بصلاحيته للبقاء في العراق.

ودارت في ذهني كلمته الأخيرة.. وهو يتطلع إلى أسـماء كل التشـكيل الانقلابي. أن هؤلاء أنفع للعراق منه. هو يعرفهم ويعرفونه. لذلك فهو يريد مغادرة العراق. ولا داعي للمناقشة أو إطالة المناورة.

وفي الطريق أيضًــا. رحت أضـع تقدير موقف عسـكري عن حركة لواء مشــاة، وقدرت أن لا بد أن يكون القائمون بها مجانين، فبغداد تستطيع أن تبتلع فرقة كاملة. وأن بمستطاع قوات الحرس الملكي مقارعة فرقة أخرى.

وقدرت كذلك أن لا بد أن يكون مثل هذا النبأ بلغ مسامع الأمير الآن عن طريق غيري فإذا أنفذوا بطلبي فسأؤيد سماع مثل هذا الخبر. وكما حدث في المرات السابقة سوف يفتح به ملف خاص. ثم يحفظ الملف وما فيه.

وعندما وصلت إلى باب المعسكر الوشاش حيث تعسكر مدرسة المشاة. تذكرت أن هناك ضابطين معنا من وحدات لواء المشاة العشرين، ولواء المشاة التاسع عشر. فقررت أن أتكلم معهما أولاً.. وعلمت منهما بأن لواء المشاة العشرين قد تأجل سفره إلى الأردن حتى إشعار آخر.. فتنفست الصعداء. وقلت لنفسي: حسن ما فعلته، ولم أذهب رأسًا إلى القصر للإدلاء بهذا الخبر لأنه سيكون كبقية الأخبار التي لم تقع.

وفي مســاء اليوم الثاني كنت أتوجه إلى قصر ـ الرحاب لأســتفسر ـ عن حالة جنود فصيلتي، فوجدتهم مشغولين بتهيئة ملابس حرس الشرف الزرقاء والبيضاء، ذلك أن السرية قد أبلغت بالتهيؤ للقيام بمراسيم حرس الشرف في المطار المدني توديعًا للأسرة المالكة التي ستغادر العراق إلى استانبول لقضاء فصل الصيف هناك، وللاشتراك في اجتماعات رؤساء دول ميثاق حلف بغداد، ولإكمال التهيؤ لعقد قران الملك.

وكان موعد السفر الذي أعطى للسرية لتكون حاضرة على أساسه، هو صبيحة يوم الإثنين الموافق 14/ تموز/ 1958.

الفصل الخامس

انطلاق الثورة . ..
ومقتل العائلة المالكة



مقدمة

في تمام الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم الإثنين الموافق 14/ تموز/ 1985. كان معظم أهالي بغداد ما يزالون يغطون في نومهم على سطوح دورهم مستمتعين بهواء الصـباح العليل من أيام شـهر تموز الملتهب .. وقد شرعت بعض الدكاكين «المحلات» تفتح أبوابها باكراً كدكاكين الخبازين وأصحاب محلات بيع المواد الغذائية.

وبدأ شـــارع الإمام الأعظم الذي يربط ما بين ناحية الأعظمية وبغداد خالياً من المارة .. ما عدا سـيارات باصـات مصـلحة نقل الركاب التي باشرت الحركة من الساعة الخامسة حسب مواعيدها.

وفي منطقة الكسرـة أي منتصـف الطريق بين الأعظمية وبغداد .. كان البلاط الملكي يبدو هادئاً، وجندي حرس الباب النظامي يسـير كعادته متنكباً بندقيته أمام الباب الخارجي، وكذلك كانت الحال في منطقة باب المعظم: أول مدخل مدينة بغداد التي كانت هادئة جداً، إلا من عدد يسير من المارة الذين خرجوا إلى مصالحهم في تلك الساعة المبكرة من الصباح.

احتلال وزارة الدفاع

وعلى مســافة 400 متر من منطقة باب المعظم تقع مباني وزارة الدفاع العراقية، حيث كانت هناك الحركة على أشــدها وعنفوانها .. فقد ربض في الباب النظامي للوزارة صف طويل من سيارات اللوري العسكرية، يقف إلى جانبها جنود بملابس القتال، وبكامل أسلحتهم، وقد طرزت على أكمام قمصانهم العسكرية إشارة فرقة المشاة الثالثة.

وفي داخل الباحة الخارجية لمبنى الوزارة كان عدد من الجنود يهرولون ويركضون في أنحاء مختلفة لإتمام السيطرة على مبنى الوزارة كاملاً، وبالفعل ففي أقل من نصف ساعة تقدم ضباط الفوج الثالث من لواء المشاة العشرين .. وأدوا التحية للعقيد عبد اللطيف الدراجي آمر الفوج، وأخبروه بأنهم أكملوا احتلال مبنى الوزارة كله.

وعلى مســافة 400 متر أخرى من المبنى حيث يقع الباب الجانبي للوزارة .. اصطفت في شارع الرشيد أرتال من سيارات الجيب العسكرية، وقد بدت إشارات وعلامات لواء المشــاة العشرــين من الفرقة الثالثة واضــحة على جوانب تلك السيارات.

ومن الطرف الثاني من الشارع كان رتل سيارات يتقدم بصورة جد سريعة قاصداً وزارة الدفاع، ورغم تلك المظاهرات العسكرية في الشارع إلا أن المدنيين الذين كانوا يسيرون على الأرصفة هنا وهناك لم يستطيعوا أن يميزوا بين معالم الشارات العسكرية للواء المشاة العشرين التي تصول وتجول في الوزارة والشارع، وبين الشارات العسكرية لوحدات المقر العام وموقع بغداد؛ وغالباً ما اعتقدوا بأن ما يرونه من أرتال عسكرية أمامهم هو شيء طبيعي، ومادامت هذه الأرتال تقف في باب وزارة الدفاع.

وإلى مسافة أخرى في الشارع، حيث توجد استدارة تؤدي إلى جسر المأمون الذي يربط ما بين بغداد الرصافة .. وبغداد الكرخ .. كان رأس الجسر قد تم مسكه بفصيل مشاة بإمرة ضباط برتبة ملازم ثان، راح يمنع السيارات العسكرية من العبور إلى جهة جانب الكرخ .. كما يمنع الضباط والمراتب الراجلين من العبور أيضاً ويكتفي بالقول .. إنه أمر عسكري.

وإلى خلف هؤلاء الجنود وقف عدد من الأهالي الذين يشاهدون لأول مرة جنوداً مسلحين ومرتدين ملابس القتال يمنعون الناس من عبور الجسر. وقد وقف رجال الشرطة المحلية يتفرجون على تلك المناظر، وقد شدوا من قاماتهم استعداداً لتحية الضباط الذين قد يمرون من أمامهم ..!

وفي نفس الحالة السابقة تكررت في ثاني جسر في بغداد .. جسر الملك فيصل الثاني .. أما الجسر الثالث .. جسر الملكة عالية .. فقد كان ممسوكاً بفصيل أيضاً بإمرة ضابط صف بدا غاية في اللطف، وهو يعتذر من ضباط وحدات بغداد بعدم عبور الجسر.

إلا أن خلف قوة جسر الملكة عالية .. كانت تقف أعداد أكبر من الناس .. تتفرج .. ولا تدري أي معنى لما تراه أمامها.

القصر يتسلم الإبلاغ الأول عن الانقلاب:

يقول النقيب فاضل حنظل الذي كان يراقب الموقف بصفته من الحرس الملكي الخاص للالتحاق بعمله ذلك اليوم كانت الساعة تناهز السادسة تقريباً .. عندما كنت أرفع سماعة الهاتف الموجودة في فندق سميراميس في قلب شارع الرشيد في بغداد .. وأدير أرقام الهاتف على بدالة القصور الملكية وجاءني صوت موظف البدالة هادئاً ساكناً كعادته .. حيث طلبت منه أن يصلني برئيس خفر الثكنة.

وبعد لحظة جاءني صوت النقيب سالم رشيد: رئيس الخفر الذي بدا صوته طبيعياً جداً وهو يبادلني الكلمات الأولى، وهنا، تيقنت أنهم لم يدروا بشيء، ولم يشعروا بما يحدث في بغداد، حتى تلك الساعة.

وأنبأته أن وحدات لواء المشاة العشرين قد سيطرت على بغداد، وأن انقلاباً حدث، فلم يصدق الضابط كلامي. وأغلقت سماعة الهاتف على أمل أن أقوم باستطلاع كاف لما يحدث في مناطق بغداد الأخرى.. لأتصل بالفوج ثانية.

كانت بغداد قد أخذت في الا ستيقاظ من نومها، إلا أن معظم شوارعها كانت ما تزال خالية، وبدا شـــارع غازي- الكفاح فيما بعد – وبقية مناطق بغداد هادئة تماماً، ولا حركة غير اعتيادية فيها .. وكان السكان ـ ولا خلاف ـ لا يدرون ماذا يحدث في شارع الرشيد الآن.

وفي حوالي الساعة السادسة وعشر دقائق، كنت أطرق باب بيت آمر فوج الحرس العقيد طه البامرني، فعلمت بأن العقيد ينام في الثكنة منتظرًا أهله إلى خارج بغداد.

وأدرت قرص الهاتف على بدالة القصـــور وجاءني صـــوت موظف البدالة هادئاً كالســـابق، فطلبت الاتصـــال بآمر الفوج رأســـاً، فجاءني العقيد طه وأخبرته بأنني موجود في بيته، وشرحت له الو ضعية كلها في بغداد .. وكان العقيد يستمع إلي دون أن يقاطعني .. ولم يستزدني استفساراً عن الموضوع، وأخبرته بأنني سأذهب للتو إلى بيتي لأسـتلم مسـدسي، ولأغير ملابسي- العسـكرية بملابس مدنية، كي أتمكن من التوجه إليهم دون أن توقفني نقاط رؤوس الجسور.

وفي تلك الأثناء كانت شاحنة عسكرية تعود لفوج الحرس الملكي، وتقل النقيب عبد الرحمن محمد صـــالح آمر إحدى سرايا الفوج، والذي كان مكلفاً بأن يكون آمر قطعة حرس الشرف التي ستؤدي التحية وداعاً للملك في المطار.

كانت الشاحنة قد وصلت إلى جسر المأمون لتعبر النهر متجهة إلى جهة القصور الملكية، عندما أوقف الضابط الملازم من لواء العشرين شاحنة الحرس، وأخبر ضابط الحرس بأن لديه أوامر بمنع مرور أية ناقلة عسكرية إلى جانب الكرخ.

و لما كان النقيب عبد الرحمن مسرعاً ليأخذ قطعته مبكراً إلى المطار، فقد قال لضابط لواء العشرين بأن لديه مهمة عسكرية أهم من مهمته، وأنه سيعبر الجسر .. وإذا أردت أن تطلق علي النار .. فأطلقها.

وهكذا .. وبدون أن يستفسر ضابط الحرس عن أسباب منعه من عبور الجسر .. أو يدقق أو يحقق بالموضوع؛ أمر السائق بالحركة .. فتحركت السيارة وعبرت الجسر متجهة إلى قصر الرحاب حيث لم يشاهد النقيب عبد الرحمن أية حركة غير اعتيادية على طول الطريق من الجسر إلى القصر. وبالفعل دخل الضابط إلى قصر الرحاب وأمر جنود تشكيلة حرس الشرف بتهيئة ملابسهم للتفتيش قبل ارتدائها .. وهنا رن جرس الهاتف في مقر سرية قصر الرحاب، وكان المتكلم آمر الفوج من ثكنة قصر الزهور، وطلب من النقيب عبد الرحمن أن يعطيه صورة عن الموقف في بغداد. وعندما كان الاثنان يتحدثان عبر الهاتف، كنت أدير أرقام هاتف القصور الملكية من داري، وجاءني جواب موظف البدالة الذي كان متغيراً هذه المرة، وقال لي بلهجة قلقة يطلب إلي أن أخبره بما يحدث في بغداد إذ وردته إشارة من المقدم جواد الكناوي أحد مرافقي الأمير بأن يبلغ الأمير بأن ثمة إطلاق نار على قصر نوري السعيد،

وعندما كنت أبلغ آمر الفوج بأنني في الدار وســوف أتوجه إليهم في الحال، كان صوت النقيب عبد الرحمن على الجهة الثانية من الخط يؤكد لآمر الفوج بأنه لا يوجد أي شيء غير طبيعي في بغداد.

وسرعان ما انقطعت المحادثة الثلاثية بيننا .. ليأتي على الخط .. صوت الأمير عبد الإله، وبهدوء بالغ وصوت غير منفعل أبداً .. وبكلمات فيها الكثير من الثقة بالنفس .. طلب مني أن أبلغه بما يحدث في بغداد.

وشرحت له التفاصيل بالقدر الذي شاهدته، وأبلغته بأني سأصل إلى القصر في ظرف ربع ساعة .. وأغلقت سماعة الهاتف.

كانت بلدة الأعظمية ما تزال على غير علم بالحركة؛ إلا أن جسر الأئمة الذي يفصل ما بين بلدتي الأعظمية والكاظمية كان قد احتله ضابط صف وعشرة جنود؛ وراح ضابط الصف يحدق في السيارات العابرة، وهو يؤشر للمدنية منها بالعبور بيده التي كانت تحمل رشاشاً.

أما بلدة الكاظمية فكانت خالية الطرق من المارة. والطريق العام المسمى، (طريق الشالجية)، والذي يؤدي إلى المحطة العالمية حيث تقع المحطة المذكورة على بعد حوالي أربعة كيلومترات من قصر الرحاب. كان الطريق أيضاً خالياً.

أما معسكر الو شاش .. الذي يقع مواجهاً لقصر الرحاب تقريباً .. وكان جنوده قد انتهوا من تناول الحساء قبل المباشرة بالذهاب إلى ساحة العرض .. والقيام بالتدريبات العسكرية، ولم يبد أي أثر لحركة غير اعتيادية في المعسكر الهادئ؛ حيث وقف في البوابة النظامية .. الحارس الأول وبندقيته في يده، ووقف إلى جانبه آمر نقطة الحرس يتطلعان معاً إلى الشارع العام، إلا أنه اعتباراً من حافة المعسكر الشرقية .. والمواجهة لقصر الرحاب تقريباً .. وعلى طول الطريق الذاهب إلى منطقة القصور الملكية، وعلى مسافة كيلومتر واحد من مباني الرحاب، وإلى جانب الطريق وقفت ستة لوريات عسكرية انتشر إلى جانبها عدد من الجنود، وسائقي اللوريات، وقد اجتمعوا كل اثنين أو ثلاثة منهم بمجموعة يتحدثون فيما بينهم .. ولم يكن أي من أولئك الجنود مسلحاً.

وبعد اللوريات العسكرية .. وقفت سيارتا جيب، وقد ترجل منهما سائقهما .. ثم وقفت مقطورتان لعتاد المدفعية .. ثم مدفعاً ميدان عيار 25 رطل، وقد كممت أفواههما بالسدود الواقية من التراب، ولم يتخذ المدفعان موضع رمي، بل لبثا إلى جانب الطريق .. مما يدل على أنهما كانا خاليين من العتاد والقنابل تماماً.

وإلى جانب المدفعين وقف ضابطان شابان برتبة ملازم ثان؛ وعلى مسافة بضعة أمتار من المدفعين كانت هناك ثلاثة لوريات عسكرية وسيارة بيك آب. كانت المجموعة كلها تحمل إشارات لواء المشاة العشرين.

أما اعتباراً من أمام حديقة قصر الرحاب، أي من نقطة ابتداء الشارع الفرعي الذي يفصل ما بين قصر عبد الجبار وقصر الرحاب؛ فقد امتدت قوة تقدر بحوالي الأربعين جندياً على طول الرصيف للشارع العام .. وصوبت بنادقها باتجاه سور الحديقة الخارجي للقصر، وعلى مسافة تبعد حوالي خمسين متراً عن السور حيث يفصلهم عن القصر الحديقة العامة .. فالطريق الملكي الخاص؛ ثم الأسوار الخارجية للحديقة. وقد وضعت رشاشة برن واحدة مواجهة للباب النظامي لحديقة القصر، ووقف إلى خلفها النقيب منذر سليم أحد أمراء سرايا فوج المشاة الثاني، من لواء المشاة العشرين.

واعتباراً من النقطة التي وضعت بها رشاشة البرن، إلى حافة القصر اليسرى حيث تقوم مباني ثكنة الرحاب، وأمام مباني الثكنة والحرس نفسها .. فلم يكن أمامها جندي واحد من المهاجمين.

أما الطريق إلى قصر الزهور وإلى مقر وثكنة فوج الحرس الملكي .. فكان مفتوحاً .. حيث لم يقم آمر القوة المهاجمة بوضع قوة لمسك جسر الخر لسد طريق تقدم وحدات فوج الحرس لنجدة وحدات ثكنة الرحاب والقصر.

أما إلى الغرب من القصر، حيث تقع بعض المزارع والطرق والنيا سم التي تؤدي إلى المطار المدني.

وهناك وضع آمر القوة المهاجمة حظيرة مشاة من عشرة جنود، بإمرة عريف لمسك ذلك الطريق المؤدي إلى المطار.

وإلى الساعة السادسة والربع تقريباً كانت القوة المهاجمة لقصر ـ الرحاب من حيث موجودها غير كافية لأن تصمد أكثر من خمس دقائق أمام قوة حراسة قصر الرحاب فقط.

كما أنها بوضعها التعبوي الهجومي .. لم تكن تطوق إلا ثمن القصر ـ فقط .. وتركت بقية القصر ـ مفتوحة. كما أن اتخاذها وضع الرمي بالامتداد على الرصيف موجهة بنادقها إلى أسوار الحديقة الخارجية، بحيث لا تؤثر طلقاتهم إلا في السور الخارجي فقط، كان خطأ كذلك.

بداية الهجوم:

وفي حوالي الساعة السادسة والربع فتحت رشاشة برن المهاجمين نيرانها باتجاه القصر ـ .. وأصابت رشقة الإطلاقات الأولى نوافذ غرفة نوم الأمير عبد الإله في الطابق الأول .. ثم كانت صلية ثانية حطمت زجاج النافذة الكبيرة في شرفة الطابق العلوي. ثم صلية ثالثة .. وكل صلية من أربع أو خمس إطلاقات، وهكذا أصيب حرس الباب النظامي لقصر ـ الرحاب بالذهول وهم يسمعون طلقات الرصاص تفتح عليهم . وخرج الحرس الخمسة، ومعهم آمر نقطة الحرس .. ووقفوا يتطلعون مشدوهين إلى الجنود المهاجمين الذين امتدوا أمامهم على رصيف الشارع يطلقون النار عليهم.

ووقف الحارس الأول للباب النظامي .. وقد شـــد من قامته ليظهر عدم خوفه؛ وسلاحه بيده بالوضع الصحيح، وقد أدار جنبه الأيسر للقوة المهاجمة.

وعلى لعلعة ر شقات الر صاص ا ستفاق أهالي ضاحية الحارثية؛ ووقف بعضهم على سطوح منازلهم، ونزل بعض الصبية إلى الشارع يتطلعون بدهشة إلى الجنود وهم يطلقون النار على قصر الملك.

داخل القصر .. هلع واضطراب:

كان الأمير عبد الإله ما يزال في غرفة نومه .. وهو يكلم العقيد طه البامرني ليستفسر منه عن الموقف .. عندما أصابت الصلية زجاج نافذته فحطمته؛ اضطر أن يطلب من طه أن يحضر على عجل لمقابلته، ووقف الأمير بباب غرفته وخرج الملك وهو ما يزال بملابس النوم، وخرجت الأميرات وتجمعن حول الأمير هلعات خائفات .. ووقف الجميع في البهو الداخلي للطابق العلوي، واتجه الأمير ووقف قرب النافذة يتطلع إلى القوة المهاجمة.

ثم طلب إلى الملك والأميرات .. ألا يبقوا في الحجرات الأمامية، وأن يذهبوا جميعاً إلى غرفة الملكة نفيسة والدته .. وأخذ الملك بيده .. ونزلوا إلى الطابق الأرضي.

استعدادات احترازية ووضع فوج الحرس بالإنذار:

وكـان العقيـد طـه البـامرني .. آمراً للفوج .. وآمراً للواء الحرس الملكي كلـه بالوكالة، وعندما تبلغ بأمر الحركة هاتفياً مني.. أمر مراســله بأن يذهب فوراً إلى المشاجب، ويجلب له مسدسه وجعبة العتاد.

وعندما كان يتمنطق بمسدسه .. أصدر أمره الإنذاري الشفهي إلى رئيس الخفر النقيب سالم رشيد بفتح المشاجب .. وتوزيع السلاح على السرايا .. وتهيئة الفوج .. حيث لم يكن قد وصــل إلى الثكنة أي من الضــباط بعد. وأبلغه أن يبقى إلى جانب الهاتف لاستلام الأوامر التي سيبلغها إياه بعد أن ينتهي من مقابلة الأمير.

باشر النقيب سالم بتنفيذ الأمر، حيث أصدر تعليماته إلى ضابط خفر الثكنة الملازم محمد أمين بفتح المشـاجب وتوزيع السـلاح .. وبالفعل قام الاثنان بفتح المشـاجب، وتم توزيع السـلاح على السرايا، وأخذت كل سرية سـلاحها ولبس الجنود مشـالح العتاد .. وهرولوا إلى جنب وأمام قاعات منامهم، وباشروا تنظيف وتزييت السلاح تحت إشراف ضباط صفهم .. وفيما كان العمل يجري آلياً كان النقيب سالم رشيد قد اطمأن إلى الوضع، وذهب إلى غرفة مساعد آمر الفوج، وجلس قرب الهاتف بانتظار أوامر وتعليمات العقيد طه البامرني.

توجه العقيد طه من الثكنة إلى قصر الرحاب؛ وكان قد سبقه إلى القصر النقيب ثابت يونس المرافق الخفر في الليلة المنصرمة، حيث كان نائماً في قصر المرافقين القريب من ثكنة فوج الحراس. ودلف النقيب ثابت إلى داخل قصر الرحاب .. ليجد الملك والأمير مايزالان بملابس النوم .. وفي غرفة استقبال الأمير، الذي كان يمسك بسماعة الهاتف، ويحاول الاتصال برئيس أركان الجيش الفريق الركن رفيق عارف.

أما العقيد طه وقد توجه إلى ثكنة الرحاب حيث شاهد كلاً من الضابط النقيب عبد الرحمن محمد صالح، والملازم أول محمد رضا الرجيلي .. من ضباط كوكبة حرس الشرف. ثم أمر العقيد الملازم كاظم جبر ضباط خفر القصر بمرافقته، والتوجه معه إلى حيث مباني القصر، فسارا عبر الحديقة الجانبية والاسطبلات فالمرائب، وتوجها إلى مبنى القصر نفسه.

هجوم يعقبه سكون:

وفي خارج القصر .. باشر جنود القوة المهاجمة بإطلاق نيران بنادقهم باتجاه سور القصر الخارجي .. ومن المؤكد أن أولئك الجنود لم يكونوا مسلحين بأكثر من مشط عتاد واحد ذي خمس إطلاقات لكل جندي.

وفجأة توقف إطلاق النار من المهاجمين .. ولبثوا في أماكنهم لا يتحرك أحد منهم إلى محل آخر.

الملازم عبد الله مجيد:

كانت الساعة قد جاوزت السادسة والنصف صباحاً الآن، عندما توقف إطلاق النار في تلك الفترة .. وكان موقف نقطة حرس الباب الخارجي النظامي للرحاب كما هو .. إذ ظل آمر نقطة الحرس النائب عريف عبد فهد حائراً .. لا يدري ماذا يفعل .. ولم يصدر أوامره إلى نقطته بالقيام بالرمي المعاكس .. بل بقى واقفاً؛ ثم انسحب إلى داخل غرفة الربيئة، يحاول أن يتصل هاتفياً بضابط الخفر .. أو آمر الفوج لاستلام الأوامر والتعليمات .. وبقى الحارس الأول للباب واقفاً مكانه .. بالوضع الصحيح للحراسة بدون حركة .. وعلى الشارع العام.. وخلف القوة المهاجمة وقفت سيارة مدنية ترجل منها الملازم أول عبد الله مجيد ضابط مفرزة تصليح آليات الحرس؛ وسار إلى حيث يقف آمر القوة المهاجمة وتكلم معه بضع كلمات، وقد بدا وجهه ضامراً نحيفاً تكسوه صفرة الخوف، وقد وضع يديه في جيبي بنطاله، ولم يكن مسلحاً أو مرتدياً بذلة قتال .. ولم يلبث أن عاد فاستقل سيارته عائداً من حيث أتى .. ولم يدر في خلدي، وأنا أقف وراء القوة المهاجمة لأستطلعها عن كثب، أن يكون عبد الله مجيد هو الذي أوصل السرية المهاجمة إلى مكانها ذاك أمام قصر الرحاب.

تقدير موقف:

وعلى طول الطريق سرت خلف القوة المهاجمة تماماً .. التي كانت قد توقفت عن الرمي .. وبقى جنودها ممتدين في أماكنهم .. بحيث قدرت بأن القوة .. إما أن تقوم بالهجوم على القصر ـ الآن .. فتنتحر حتماً .. وإما أن يصدر آمر القطعة أوامره إلى الجنود بالانسحاب من موضعهم المغلوط هذا .. إلى موضع هجومي .. أو دفاعي صحيح.

وعندما وصلت في مسيري إلى موضع المدفعين الخمسة وعشرين رطلاً .. كانت المدافع ما تزال في مكانها .. ولا زالت مانعة التراب تكمم أفواهها . ومن البديهي أنه لم يكن في مقطورات العتاد وطلقة مدفع واحدة، وكان هناك يقف زميل لي من الضباط يدخن لفافته بقلق ظاهر؛ وعندما شاهدني حياني وحييته .. وطلبت منه إيضاحات عن الموقف .. وعن سبب وجودهم هنا.

فقال وقد بدأ يتكلم بلهجة الواثق من النصر .. ونصحني أن أبقى معهم .. وأن لا أذهب إلى الفوج، فتركته دون أن يحاول أن يوقفني، ومررت بالسائقين الذين وقفوا على شكل مجموعات مع قسم من الجنود الذين بدوا، وكأن الأمر لم يكن يهمهم البتة، إذ كان بعضهم يحدث زملاءه وهم غارقون في الضحك.

الحديث بين عبد الإله والبامرني

والآن لنعد إلى داخل قصر الرحاب .. وصل العقيد طه، وبرفقته الملازم كاظم جبر إلى القصر ودلف رأساً إلى غرفة استقبال الأمير .. حيث كان الملك والأمير بانتظارهما، وكانا ما يزالان بملابس النوم؛ ووقف إلى جانبهما النقيب ثابت يونس ورأس العرفاء كاظم ضاحي من الحرس الخاص للأمير.

وطلب الأمير من العقيد أن يطلعه على الموقف بصورة دقيقة .. فأحاطه العقيد بجلية الموقف حسبما سمعه مني ومن غيري بالهاتف .. كما أخبره عن حجم القوة المهاجمة وكونها أقل من سرية مشاة واحدة، وعن مواضعهم أمام القصر .. وأبلغه بأنه وضع الفوج بالإنذار .. انتظاراً لأوامر وتعليمات الأمير حول الموضوع.

وكان الأمير يصغي إلى العقيد وهو يدخن لفافته؛ ثم قال بأنه علم بأن قصر نوري السعيد يتعرض للرمي كذلك .. وأنه حاول الاتصال به فلم يجب على الهاتف أحد .. وأن هاتف رئيس أركان الجيش لا يجاوب أيضاً .. وأن كافة هواتف وزارة الدفاع والبدالة لا تجاوب، ثم أصدر أمره للعقيد طه بأن يحاول أن يستطلع جلية الموقف بدقة في الخارج .. وأن يتخذ الاحتياطات الضرورية .. وأن يحاول جاهداً الاتصال بضابط القوة المهاجمة ويستقدمه إلى داخل القصر للتفاهم معه.

خرج العقيد والملازم من غرفة استقبال الأمير .. لينفذا الأمر أعلاه، وبارح الملك والأمير غرفة الاستقبال وصعدا إلى الطابق العلوي حيث تجمعت النساء هناك عندما رن جرس الهاتف .. كان المتكلم الشريف حسين أحد أنسباء الملك الساكن في ضاحية المنصور قرب القصر، والذي حاول أن يستفهم جلية الأمر، ليعلم سبب سماعه لعلعة إطلاقات نارية. فأجابه الملك بصورة مملوءة بالثقة بأن لا يخاف .. ولا يوجد شيء مهم، وأخبره بأنه سيرسل قوة إلى قصره للمحافظة عليه.

وفيما كان الأمير يحادث النساء بأن يتمالكن أنفسهم .. وأن الأمر لا يعدو مجرد حركة يقوم بها ضباط صغار، وأنه سينهي الحركة بشكل سلمي، وبدون أن يتعرض أي منهم للخطر، كانت والدته تكلمة باللغة التركية .. وتحثه على أن يستعمل العقل في معالجة الأمر .. وفي الأغلب الأعم كانت نساء الأسرة .. يحثثن عبد الإله .. على مغادرة القصر .. وترك العراق فوراً.

البيان رقم واحد

وبعد دقائق كانت الأسرة المالكة كلها تستمع إلى إذاعة بغداد .. وصوت المذيع الجديد العقيد الركن عبد السلام محمد عارف، وهو يعلن للشعب بشائر الثورة بالبيان (رقم واحد) مبشراً بقيام الجمهورية بقيادة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم.

وهنا .. حاول الأمير ثانية الاتصال برئيس الأركان. فلم يجده، إذ تم اعتقال الفريق الركن رفيق عارف في الساعات المبكرة من الصباح، وتمكن من الاتصال باللواء عبيد المضايفي الذي أبلغه بأنه سيقوم بالإشراف على تنفيذ خطة أمن بغداد بمساعدة قوات الشرطة، واتصل أيضاً بضابط استخباراته الخاص الذي علم بأنه توجه إلى طرفهم.

ورن جرس الهاتف ثانية في البهو الملكي، وكانت الهاتفة عقيلة أحد رؤساء الوزارات في العراق، وقد تكلمت مع الأميرة عابدية، وقالت لها بأن زوجها قد هرب .. وأن قصرهم يهاجم الآن، وأن السفارة البريطانية التي هي أمام قصرهم هدف للهجوم كذلك.

وطلبت إلى الأميرة أن يهربوا وأن يغادروا القصر فوراً، إذ أعلمتها بأن جموعاً غفيرة من الشعب قد ملأت الشوارع في تلك اللحظة.

أوامر بعدم المقاومة ومحاولة للتفهم:

استلم العقيد طه البامرني أوامر عبد الإله .. وأوعز إلى ضابط خفر قصر الرحاب بأن يأمر كافة نقاط الحراسة بعدم الرد على الرمي بالمثل. وهرول الملازم كاظم ضابط الخفر إلى مباني سرية الحراسة .. فالتقى بعريف خفر الثكنة العريف حسن مطشر .. الذي كان قد ارتدى الخوذة الفولاذية وتمنطق بمسدسه. فأمره الملازم أن يتجول على نقاط الحراسة ويبلغهم عدم فتح النار.

وفي هذه الأثناء .. وصل العقيد طه أيضاً إلى مباني ثكنة الرحاب .. فوجد الضابطين عبد الرحمن محمد صالح ومحمد رضا الدجيلي واقفين مع جنود السرية الذين كانوا يهيئون ملابسهم الملونة .. ملابس حرس الشرف على أسرة منامهم لعرضها للتفتيش قبل ارتدائها.

فأوعز إلى النقيب عبد الرحمن أن يذهب إلى خارج الثكنة .. إلى الشارع ويتفاهم مع آمر القوة المهاجمة .. بشكل لطيف .. ويحاول أن يستعجله إلى داخل القصر ليتكلم معه الأمير.

وأوعز إلى الضابطين كاظم جبر ومحمد رضا الدجيلي بأن يشرفا على توزيع السلاح والعتاد على جنود قوة قصر الرحاب؛ وأن يرتدي الكل قيافة المعركة .. ويكونوا جاهزين في ساحة السرية انتظاراً لأوامره.

جمود الموقف:

وهكذا .. ففي حوالي الساعة 6.40 تجمد الموقف العسكري كله على الشكل التالي:

فوج الحرس الملكي .. استلم السلاح والعتاد .. وهو يقف على أهبة الاستعداد للقتال، وينتظر رئيس خفر الفوج – ومعه ضابط الخفر قرب الهاتف ليتلقي الأوامر التي سيصدرها إليهم العقيد آمر الفوج. أما سرية حراسة قصر الرحاب والقوة المرفقة بها فقد فتحت المشاجب وباشرت بتوزيع السلاح على الفصائل.

والقوة المهاجمة .. لاتزال في مكانها، وفي أحسن الأحوال، فإن عتاد جنودها قد نفد كله .. وفي خارج القصر .. كان أحد أفراد الشرطة التابعين لمركز شرطة جسر الخر المواجه لقصر الرحاب يقف متفرجاً على المنظر وقد تجمع معه عدد من الأطفال .. وقسم من المارة وفلاحي المزارع الموجودة هناك، بينما وقف عدد منهم على شرفات سطوح منازلهم يتفرجون على ما يجري أمامهم.

وسألت الشرطي عما يحدث .. فقال لي أن ضابط المركز أخبر أفراد قوة الشرطة بأن ما يجري في قصر الرحاب .. مناورة يقوم بها جنود الحرس بالعتاد الحي. وقد أرسله الضباط إلى هنا ليستطلع جلية الأمر.

وقال طفل كان يقف إلى جانبي بأنه شاهد الأمير والملك يهربان عبر طريق المزارع الخلفية إلى المطار المدني.

وبينما توقف إطلاق النار .. كان الشـــارع العام يبدو اعتيادياً حيث كانت تمر من أمام القصر السيارات الأهلية .. وقد ألصق راكبوها وجوههم بالشبابيك يتطلعون إلى قصر الرحاب إذ لابد أنهم سمعوا بأنباء الانقلاب من المذياع.

وتوقف عدد من الســـيارات المدنية قرب المدفعين .. وترجل راكبوها ووقفوا إلى جانب الجند، وتجرأ قسم منهم فتقدم ماشياً باتجاه القوة المهاجمة.

جئنا لقتل الملك والوصي:

وفي القصرـ .. جاء آمر ربيئة حرس الشرـف التي تقع في مؤخرة القصرـ على الطريق الزراعي المؤدي إلى المطار .. واتجه رأســاً إلى آمر الفوج الذي كان ما يزال في ثكنة الرحاب ليخبره بأن هناك قوة قوامها عشرــة جنود بإمرة عريف قد اتخذت مواضعها على مسافة مئة متر من نقطة ربيئته، وإن عريف القوة المهاجمة أخبره بأنهم جاءوا إلى هنا لقتل الملك والوصي؛ فنصحهم ضابط صف الحرس بألا يقدموا على عمل مجنون كهذا .. فأخبره عريف القوة المهاجمة بأنه وجنوده عطاش جياع .. يطلبون الماء والطعام. ثم طلب ضابط صف الحرس من آمر الفوج تزويده برشاشه وعتاد لجنوده ليتمكن من طرد القوة المهاجمة.

فأجابه آمر الفوج بأن يدخل حظيرته إلى داخل مبنى نقطة الحرس وأن لا يسـمح لأحد بالخروج، وأن لا يفتح النار على المهاجمين.

النقيب عبد الستار سبع العبوسي:

وفي تلك الأثناء كانت ثلاث سيارات لوري عسكرية تتجه مسرعة من قلب مدينة بغداد إلى معسكر الوشاش تقل أولاها النقيب عبد الستار سبع العبوسي أحد ضباط مدرسة المشاة. وتقل بقية السيارات ضباط بقية الوحدات في المعسكر وقسماً من ضباط دورة تدريب المشاة الأساسية في المدرسة، وما إن سمع النقيب العبوسي بنبأ الثورة من المذياع وشاهد الجماهير تملأ الشوارع حتى أمر سائقه بأن يطلق العنان لسيارته متوجهاً إلى المعسكر، وبدلاً من أن يدلف إلى باب المعسكر توجه فوراً تتبعه بقية اللوريات إلى قصر الرحاب حيث استطلع موقف القوة المهاجمة عن كثب، وقدر بأنها غير كافية لمهاجمة القصر والاستيلاء عليه.

واستدار بسيارته من استدارة جسر الخر وتوجه ثانية نحو المعسكر، وفي باب المعسكر شاهد جمعاً من ضباط مدرسة المشاة واقفين وهم حيارى لا يدرون ماذا يفعلون .. فأمرهم بالتوجه نحو المدرسة فوراً.

وهناك في ساحة المدرسة التأم شمل الضباط المعلمين والضباط التلاميذ وكان عدهم يناهز العشرين ضابطاً.

السيطرة على معسكر الوشاش:

وألقى النقيب عبد الستار كلمة في جمع الضباط قال فيها: إن هذه هي الساعة الحاسمة التي كانوا ينتظرونها ويعملون لها. وأمرهم بالمشاركة بالهجوم على قصر الرحاب ومعاونة السرية المهاجمة هناك، فلقى التأييد من جميع الضباط .. إلا أن ضابط خفر المدرسة تردد قليلاً في تسليم مفاتيح المشاجب للنقيب العبوسي الذي اختطفها من يده قائلاً بأنه شخصياً سيتحمل نتائج فعلته. ولم يشأ مقدم خفر المعسكر المقدم عبد يونس أن يوقف أو يكبح جماح اندفاع الضباط الشبان.

وسرعان ما فتحت المشاجب ووزعت غدارات الاستيرلنك الأمريكية الجديدة التي استلمها العراق بموجب المساعدات الأمريكية، ووزعت الغدارات ومخازن عتادها على الضباط. واستلم النقيب عبد الله الحديثي مدفع بازوكا مضاداً للدبابات عيار 75 مليمتر، وعدداً من القذائف الخارقة.

وركب الضباط اللوريات، وبقى ضابط خفر المدرسة، وعدد يسير من الضباط حيث شاهدوا جمعاً من ضباط صف وجنود المدرسة، فوزعوا عليهم البنادق ومشالح العتاد، ورمانتين يدويتين لكل واحد منهم. وسرعان ما انتشر خبر توزيع السلاح والعتاد في بقية وحدات العسكر، حيث باشرت مدرسة المخابرة ومدرسة المدفعية ووحدات مداخر عتاد القاعدة وفوج تدريب بغداد وغيرها من الوحدات الموجودة في المعسكر بفتح مشاجبها وتوزيع السلاح والعتاد على الضباط والجنود فيها.

هجوم من جانب واحد:

غادرت السـيارات التي تقل ضـباط مدرسـة المشـاة، وفي أقل من خمس دقائق توقفت قرب لوريات القوة المهاجمة، وقفز الضباط منها واتجهوا مهرولين وغداراتهم في أيديهم واندسوا بين السرية المهاجمة، واتخذ مدفع البازوكا موضعه قرب رشاشة برن وباشر الضباط بإطلاق نيران رشاشاتهم على جنود حرس الباب النظامي وربيئة الشرق وتقدم قسم منها واتخذوا موضع رمي أقرب إلى القصر متخذين من أشجار الحديقة العامة الأمامية سـتاراً لتقدمهم، وانطلقت النيران بكثافة أشـد على جنود نقطة حرس الباب النظامي.

أما جنود حرس الباب فقد بقي الحارس الأول في مكانه في وضـع الحراسـة الصـحيح، ولم ينسـحب إلى الداخل كما بقى جنود الربيئة يتطلعون إلى القوات التي تطلق عليهم النار. وأصـابت إحدى الطلقات آمر حرس الباب النائب عريف عبد فهد في كف يده، مما اضطره إلى الانسحاب إلى داخل الغرفة لتضميد جرحه.

وفي تلك الأثناء كان عريف خفر ثكنة القصرـ قد أنهى جولته على كافة الربايا لإبلاغهم أمر آمر الفوج بعدم إطلاق النار.

إطلاق قنابل البازوكا على القصر ...

كان النقيب عبد الله الحديثي قد أطلق أول قنبلة بازوكا باتجاه القصر .. فاهتزت المنطقة كلها على دوى الانفجار .. وأصابت الطلقة الشرفة الأمامية للطابق الأول واخترقتها إلى الصالون الواقع في منتصف الطابق العلوي ويتوسط غرف منام الأسرة .. وانفجرت القنبلة هناك، وبعد أقل من دقيقة أطلقت الطلقة الثانية فأصابت أحد الأعمدة الرخامية أمام المدخل الرئيسي للقصر وانفجرت أيضاً.

وطلقة ثالثة هدمت جزءاً من باب الحرس النظامي الخارجي في الحديقة. وبعد أقل من ثلاث دقائق اندلعت سحابة دخان سوداء كثيفة من خلال شرفة الطابق العلوي، و شبت النار في الصالة الفوقية ثم ا ستمر اندلاع سحب الدخان الأ سود، ولم تلبث أن بانت ألسنة اللهب من خلال الشرفة. وبينما كان إطلاق النار على أشده من القوة المهاجمة .. كان المنظر على يمين الشارع قد أصبح مخيفاً .. حيث شوهدت مجموعات من الجنود في داخل معسكر الوشاش، كل مجموعة تتكون من حوالي المائة جندي وقد شهروا بنادقهم عالياً وهم يهزجون أهازيج الحرب بطريقة عشائرية، ويطلقون نيران بنادقهم في الهواء .. ثم يهرولون راكضين عبر الشارع العام باتجاه القصر للانضمام إلى القوة المهاجمة.

وعندما كانت عقارب الساعة تشير إلى حوالي السابعة كانت القوة المهاجمة والمواجهة لقصر الرحاب قد بلغت حوالي المئتي مسلحاً .. وهناك مئات من المسلحين الآخرين من جنود معسكر الوشاش الذين باشروا باستلام أسلحتهم، وتوجهوا راكبين أو راكضين نحو قصر الرحاب.

أما في قصر الرحاب .. فقد كانت أوامر الأمير عبد الإله بعدم إطلاق النار ما تزال سائدة .. وفوج الحرس الملكي يقف برمته متهيئاً للقتال في انتظار الأوامر التي ستصله من آمر الفوج الموجود في قصر الرحاب، بينما كان العقيد طه البامرني ينتظر النقيب عبد الرحمن الذي ذهب بمهمة جلب آمر القوة المهاجمة للتفاهم معه.

الموقف في بقية وحدات الحرس الملكي

لابد أن نتريث هنا لحظة أمام الموقف في قصر الرحاب لنتحدث عن الموقف في بقية وحدات الحرس الملكي.

كانت قوات الثورة قد تمكنت في الصباح الباكر من اعتقال اللواء عبيد العبد الله المضايفي كبير مرافقي الملك، وتم اعتقاله في وزارة الدفاع.

أما العميد الركن محسن محمد علي فقد تم اعتقاله أيضاً في داره في منطقة الحارثية القريبة من الرحاب، وقد تمكن العقيد جميل خليل آمر كتيبة الهاشمي الأولى من مغادرة داره في الأعظمية متوجهاً نحو مقر كتيبته في معسكر الوشاش.

وعندما مر بالقرب من مقر سرية الخيالة الرابعة المخصصة لحراسة البلاط الملكي، دخل السرية وأعطى أوامره الإنذارية الشفهية إلى آمر السرية، وأوصاه بالبقاء في السرية ريثما يصل هو إلى الكتيبة ويبلغه أوامر الحركات من هناك.

وحالما وصل العقيد خليل إلى الكتيبة اتصل هاتفياً بمقر فوج الحرس الملكي. ولم يستطع أن يحصل على العقيد طه البامرني الذي كان موجوداً في القصر ـ في ذلك الحين، وعلم من رئيس خفر الفوج بأن الفوج لم يتسلم أية أوامر بالمقاومة أو الحركة، وأن الفوج موجود بأكمله في الثكنة وأنه (أي رئيس الخفر) حائر في الموقف في قصر الرحاب.

وبسرعة أصدر العقيد خليل أوامره إلى ضابط خفر الكتيبة بوضع الكتيبة بالإنذار. وفي تلك الأثناء كانت قد وصلت إلى مسامعه أصوات المعركة ودوي المدفع.

وأمر أحد ضباطه وهو الملازم رشيد حميد أن يرتدي ملابس مدنية، ويذهب بسرعة إلى جهة قصر ـ الرحاب للاستطلاع هناك، وإبلاغه عن موقف فوج الحرس الملكي.

أما هو .. فقد اصــطحب معه النقيب عامر نور الدين وتوجها خلال المزارع والحقول التي تشكل مؤخرة معسكر الوشاش ليصلا إلى إحدى دور الفلاحين التي تطل من بعيد على قصر الرحاب، وقد شــاهدا الدخان الأســود ينبعث كثيفاً من القصر وطلقات الرصاص ودوي المدافع يشق عنان السماء وبينما هما في موقفهما هذا وإذا بهما يفاجأن بضــابطين من ضــباط الكتيبة، أحدهما النقيب عبد النبي حامد الدهان وقد وقفا أمهامهما، وبسرعة شــهر النقيب عبد النبي مســدســه بوجه آمر الكتيبة وقال له: أنت معتقل .. واصــطحبه معه إلى مقر الكتيبة واعتقله في إحدى الغرف واســتلم قيادة الكتيبة بدلاً منه. ولم يتمكن المقدم حمدون ســعيد معاون آمر الكتيبة من ترك داره والتوجه إلى معســكر الوشــاش نظراً لكون المومأ إليه محكوماً عليه بالإعدام من قبل الحزب الشــيوعي العراقي، وفضــل البقاء في بيته إلى أن تم اعتقاله.

وفي معسكر الوشاش أيضاً تمكن المقدم حسين علي العبيدي آمر بطارية مدفعية لواء الحرس من الوصــول إلى مقر بطاريته. وكان الموقف عنده غامضــاً جداً بحيث تعذر عليه الاتصال بمقر اللواء أو آمرية الفوج. ولم يتخذ سوى الإجراءات الأولية وبقى في مكتبه جنب الهاتف في انتظار الأوامر والتعليمات بشأن المعركة.

ماذا حدث في البلاط الملكي:

أما في البلاط الملكي حيث تعسكر سرية خيالة وسرية مشاة، فقد أفاق ضابط خفر البلاط الملازم غانم عموري من فوج الحرس الملكي على صوت المذياع وأنباء الثورة التي كان الجنود يتحدثون بها، وقد قام فوراً بالاتصال بالفوج فاستلم الأوامر بعدم القيام بأية حركة انتظاراً لأوامر أخرى.

وعندما حضر آمر السرية وبقية ضباط سرية الخيالة، اجتمعوا في غرفة الآمرو، هم ينتظرون الأوامر التي ستصلهم عبر الهاتف فيما سيفعلونه.

وبعد دقائق وصل عريف خفر البلاط ومعه آمر نقطة حرس الباب النظامي الخارجي المواجه للشارع ليخبر الضابط بأن قوة تقدر بدبابتين وسرية مشاة قد أحاطت بالبلاط من جهة شارع الإمام الأعظم، وأن جنود القوة المهاجمة أخذوا في إطلاق النار عليهم. واتصل الملازم ثانية بمقر الفوج .. فكانت الأوامر .. هي .. هي .. أي عدم إطلاق النار .. فأصدر الملازم غانم أوامره إلى آمر حرس الباب النظامي بالانسحاب إلى داخل غرفة الحرس وعدم القيام بأية حركة .. إلا أن نيران المهاجمين اشتدت .. مما أجبر جنود الحرس على الانتشار مهرولين في حديقة البلاط ليستتروا بالأشجار.

وهنا كانت جماهير غفيرة من الشـعب قد خرجت من بيوتها وراحت تشـارك المهاجمين حماسـهم وأخذت هذه الجماهير في النداء بأعلى أصـواتها على جنود حرس البلاط بأن يستسلموا وأن لا يقاوموا وألا يطلقوا النيران على جنود الثورة المهاجمين.

وقطع جنود الثورة نيرانهم .. ووقف الطرفان الواحد تجاه الآخر لا يعرف ماذا يفعل، وإزاء الموقف الغامض جداً في جبهة قصرـ الرحاب .. ومنظر الشـوارع التي تغص بالناس .. ومظاهرات التأييد التي تملأ الشـوارع والأزقة .. أمر آمر سرية الخيالة جنوده بالبقاء في قاعات نوم السرية وعدم القيام بحركة.

وكانت خاتمة المطاف عندما استلمت قوة البلاط كلها .. الأوامر ..

وكانت بالتسـليم النهائي، فدخل جنود وضـباط لواء المشـاة العشرـين ومن يسـاندهم من بقية وحدات بغداد وبأيديهم أسـلحتهم، واحتلوا نقاط الحراسـة في البلاط وجمعوا أسلحة سرية المشاة وأرجعوا الجنود إلى ثكنة الخيالة، ثم دخل ضباط الثورة

وجمعوا كل ضـباط الحرس في بهو الضـباط، وأمروهم بعدم الخروج من أماكنهم ووضعت عليهم الحراسة.

لهيب الثورة ينتشر:

وفي بغداد هاج الناس وماجوا وتقدمت جموع غفيرة منهم، وهم يحملون بأيديهم ما تيسر لهم حمله من السلاح والعصي والهراوات وأغصان الأشجار وسعف النخيل، وركبوا اللوريات والسيارات، وقسم منها سار راجلاً .. تلبية نداء العقيد الركن عبد السلام محمد عارف بدعوة الشعب للمشاركة في الهجوم على قصر الرحاب ودكه دكاً.

وأمام معسكر الوشاش التقت جموع الشعب بجنود المعسكر الذين كانوا قد استلموا أسلحتهم من المشاجب وتوجهوا راكضين بدون نظام أو تشكيل أو قيادة للانضمام إلى القوة التي كانت تهاجم القصر.

وفي تمام الساعة السابعة والمرجع كان تعداد القوة المهاجمة قد تجاوز الـ500 تقريباً .. أمام الطريق العام المؤدي إلى بغداد .. فكان يعج بالألوف من الناس كما أسلفنا.

وجدير بالملاحظة أنه حتى تلك الساعة فإن أحداً من المهاجمين لم يفكر بالالتفاف خلف قصر الرحاب لقطع طريق الرجعة أو الهروب على ساكني القصر.

كما أن أحداً لم يقم بقطع أو مسك جسر الخر لصد أي تقدم يقوم به فوج الحرس باتجاه الرحاب، كما لم توضع أية أسلحة ثقيلة لصد هجوم الفوج إن هو قام بعملية التفاف وعبر نهر الخر وضرب القوة المهاجمة من الخلف.

محاولات يائسة للتفاهم:

الآن .. وفي داخل قصر الرحاب .. كان الطابق العلوي قد غدا كتلة رهيبة من النيران المشتعلة التي انتشرت وراحت تلتهم غرف النوم، وعلى عجل أمر الأمير كافة أفراد الأسرة من النساء بالنزول إلى أقبية وسراديب القصر والاحتماء هناك. أما هو فقد اصطحب معه مرافقه العسكري وصعد إلى الطابق العلوي حيث اجتاز النيران؛ ودلف إلى غرفته وفتح خزانته الخاصة وأخذ مبلغاً من النقود دسه في جيبه وبعض الحاجات الضرورية، ونزل إلى الطابق الأرضي الذي لم تكن النيران قد بلغته بعد، وعندما جاءه العقيد طه البامرني ليخبره بأن الهجوم قد اشتد وتوسع .. وأن أعداداً غفيرة من جنود معسكر الو شاش يشاركون في الهجوم أيضاً، وأنه لم يتمكن من الوصول إلى أحد الضباط المهاجمين وإقناعه بالتوجه إلى القصر للتفاوض معه.

استلم الأمير هذه الأخبار من آمر الفوج .. وسكت برهة .. وحاول الملك أن يقول شيئاً إلا أن صوته ضاع وسط أزيز الرصاص الذي أخذ يخترق خشب الباب الخارجي ويهشم باب قاعة الطعام الزجاجية في غرفة الطعام الوسطى.

ثم تكلم الأمير بعصبية ظاهرة .. وأوعز إلى اثنين من ضباطه الخاص بارتداء الملابس المدنية، وأخذ إحدى سيارات القصر والسير على طول الطريق العام لدراسة الموقف لإعطائه صورة واضحة عن القوة المهاجمة والحالة في بغداد.

وقال للعقيد طه بأنه يجب المحافظة على ضبط النفس، وعدم إطلاق النار بأي حال من الأحوال لئلا يزداد الموقف تعقيداً.

واستدار إلى النقيب ثابت يونس وأمره بالتوجه نحو المهاجمين ومحاولة التكلم معهم بلطف، وجلب أحدهم إلى الدار للتفاوض معه. وبالفعل قام النقيب ثابت بتنفيذ الأمر، وغادر القصر من البوابة الأمامية النظامية وتوجه إلى حيث يقف المهاجمون. وعندما شاهد الضباط المهاجمون النقيب ثابت، وهو يتقدم إليهم صرخ فيه قسم منهم من أصدقائه وأبناء دورته في الكلية العسكرية بالتسليم أو العودة من حيث أتى. ولم يأبه لتحذيراتهم بل استمر في التقدم نحوهم، ولما اقترب منهم أكثر صاح فيه بعضهم بأنهم يريدون من الملك والأمير أن يسلما نفسيهما ويخرجا من قصر الرحاب. فأجابهم النقيب ثابت بأن الملك والأمير غير موجودين حالياً في القصر، وأنه يطلب واحداً منهم أن يدخل القصر للتفاوض على تسليم النساء والأطفال.

فلما لم يجبه أحد .. وكانت النيران تطلق بغزارة من سور القصر الخارجي والداخلي، انسحب النقيب إلى داخل القصر.

وهنا أبلغ الأمير ما شاهده وما تكلم به، فلم يبد على الأمير أنه مكترث جداً للأمر، وأصر على عناده بأن يحاول جميع الضباط الموجودين في القصر التوجه إلى المهاجمين والطلب منهم الكف عن إطلاق النار، والمباشرة في إجراء المفاوضات.

وفي تلك الأثناء، وبينما كان إطلاق النار على أشــده، كان المقدم محمد الشــيخ لطيف ضابط استخبارات لواء الحرس قد وصل إلى مكان المعركة، واستطلع الشارع العام كله، وقدر موقف القوة المهاجمة، ولم يدخل إلى قصرــ الرحاب، بل توجه فوراً إلى ثكنة الفوج فشــاهد هناك رئيس الخفر وضــابط الخفر يقفان جنب الهاتف وسرايا المشاة وقد استلمت أسلحتها والمشاجب مفتوحة والفوج متهيأ للقتال. ولما استفسرـ منهم عن الموقف أخبره الضــابطان بأن الأوامر حتى الآن هي عدم القيام بأية حركة، وحاول المقدم محمد أن يتصل بقصر الرحاب فتعذر عليه ذلك.

فأصدر أوامره إلى المدرعات الثلاث أن تتوجه فوراً إلى قصر الرحاب، وأن تحتل الأطراف والزوايا الخارجية للسور الخارجي، وتبقى في حالة انتظار الأوامر منه.

وبسرعة، أمر أحد راكبي الدراجات البخارية بأن يقله إلى داخل قصر الرحاب.

محاولة إنقاذ جريئة

وعندما كان الرصاص ينهمر بشدة على القصرـ، كانت هناك سيارة صغيرة من نوع أوبل قد شــقت طريقاً لها وســط النيران الشــديدة المنبثة من الشــارع، ودخلت القصرـ، وتوقفت أمام بابه الرئيسيـ، وترجل منها على عجل الملازم أول ثامر خالد الحمدان المرافق العسكري للأمير عبد الإله ودلف إلى داخل القصر.

وفي داخل القصر التقى الضباط جميعاً .. فأبلغهم الملازم ثامر حقيقة الموقف بدقة في الخارج، وأن الهجوم أصبح شديداً .. وأن قوات معسكر الوشاش تساندها جموع غفيرة من الناس، قد أطبقت على القصر من جهة الشارع.

وعندما كانوا يقنعون الأمير بضرورة القيام بهجوم معاكس لطرد قوات الهجوم، لمسافة عن القصر إلى أن يتدبر الأمر .. كان الملازم ثامر يتوسل إلى الأمير بأن يهرب هو وفيصل والعائلة معه بسيارته الخاصة ما دام القصر لم يتم تطويقه بعد. وما دام طريق جسر الخر مفتوحاً ويؤدي بهم إلى الحدود العراقية الغربية حيث تقع المملكة الأردنية الهاشمية.

التفت إليهم الأمير عبد الإله وقد بان الشحوب القاتل في وجهه، وبكلمات بسيطة قال لهم: «لا أريد قتالاً حقناً للدماء ..» وكرر هذه الجملة عدة مرات خلال الحديث معه، وإقناعه بضرورة الهرب أو القتال، وذلك لأنه لا يريد أن يتسبب في قتل أحد، وإنما يود أن يفاوض المهاجمين، وأنه يرغب في مغادرة البلاد.

ولأول مرة سمع الضباط ملء آذانهم الأمير، وهو يقول بصوت كله صدق وإخلاص بأنه يريد مغادرة البلاد. والتفت الأمير إلى جهة الملك الذي كان يقف واجماً، ولم يبد عليه أنه يريد مناقشة خاله الأمير في الأمر الذي اتخذه، وهو عدم التورط بقتال .. وترك البلاد.

وتوجه عبد الإله بالكلام إلى الضباط يأمر النقيب ثابت يونس بأن يتوجه مرة أخرى صوب المهاجمين، ويعلمهم برغبة الأمير طلب التفاوض .. وأمر طه البامرني بأن يذهب صوب جنود الحرس في الثكنة للإشراف على الموقف من هناك.

وبقى مع الأمير كل من الضـــابطين محمد الشـــيخ لطيف، وثامر خالد الحمدان، وأحس الضباط في قلوبهم بأن تعليمات الأمير القاضية بعدم الهرب وعدم القتال إنما ستجر عليهم جميعاً الكارثة إن لم يتداركوا الموقف ويعالجوه بحكمة.

إصرار على التفاوض والرغبة في التنازل عن العرش:

نزل الأمير ومعه الملازم ثامر إلى سراديب القصر.. وكانت الأسرة قد افترشـت الأرض وسرعان ما هبت النســاء واقفات ورحن يســألن الأمير عن الموقف في الخارج، وماذا ســيفعلون .. وطوقت الأميرة عابدية الملك الذي انهارت قواه، وخارت عزيمته، وهو يتطلع بعينين حائرتين زائغتين ويســتمع إلى صــوت المذياع الترانزستور وهو يذيع أنباء الثورة، والتعيينات والمناصب التي شـملت في غالبيتها أسماء أصدقاء مخلصين للأسرة المالكة من ضباط حرسهم السابقين. وانزوت الملكة نفيســة والدة عبد الإله في ركن، وفتحت القرآن الكريم وهي تتلو آية الكرسي بصـوت مرتفع .. وراح الأمير يحاول تهدئة النسـاء .. ولم تفارق اللفافة شـفتيه، وهو ينفث دخانها بشـكل متتابع، وأنبأهم بأنه أوفد رسـلاً إلى القوة المهاجمة يعلمها رغبته بترك العراق .. وكأنما كانت رغبة الأمير بمغادرة العراق هي نفس ما كان يجيش في نفوس الأميرات، إذ بانت الفرحة على وجوههن وهن يقلن للأمير ، وهل ســيفرج عنا..؟ هل سنترك القصر الآن؟

وهنا فتح الباب أحد ســائقي الســيارات الملكية المدعو عمران، وهو يصرــخ ويصيح باكياً متوسلاً الأمير بأن الطريق مايزال مفتوحاً .. وأنه يمكنه أن يهرب بهم أو بالملك وحده بإحدى سيارات الرولز السريعة إلى حيث الحدود الأردنية.

إلا أن الأمير أجابه بقوله: «لقد أرســلنا من يفاوضــهم ولا حاجة لأن نهرب .. ســنترك العراق» والتفت الأمير إلى الملك وقال له: حضرــ ورقة اكتب فيها تنازلك عن العرش .. وأبقها لحين الحاجة.

الهجوم يشتد:

كانت النيران في الطابق العلوي من القصرــ قد امتدت إلى غرفة رياضــة الملك حيث يوجد فيها عدد من بنادق الصـيد وخراطيش الصـيد .. وما إن مسـتها ألسـنة النار حتى راحت تفرقع من أعلى البناء، فظن المهاجمون أن نيران رشـاشـات أخذت تطلق عليهم من الطابق العلوي. فثارت ثائرتهم وفتحوا نيرانهم بشــكل كثيف على القصر .. وحطمت النيران زجاج النوافذ كله .. وراحت الطيور الحبيسة في أقفاصها أمام القصرـ .. تطير فيها فزعة مضـطربة من لعلعة الرصـاص .. وألسـنة النار التي شــبت بالقرب منها. وفي تلك الأثناء وصــلت مدرعات الحرس الملكي الثلاث واخترقت صــف النيران، ووقفت في أركان القصرــ واختبأ الجنود بداخلها وهم مشبكون أجهزة اللاسلكي على مقر الفوج لاستلام الأوامر فيما سيفعلونه،

وهنا كانت ثلاث مدرعات مهاجمة يقودها الملازم عبد الرزاق غصيبة قد وصلت مسرعة من بغداد، وبسرعة انفتحت المدرعات الثلاث أمام القصر واتخذت مواقعها خلف بعض السدود الرابية تهيؤاً للمعركة. ولما شاهد الملازم غصيبة أن مدرعات الحرس تقف ساكنة .. تقدم بمدرعاته تجاه القصر.

أما في ثكنة الرحاب فإن قوة حراسة القصر المكونة من السرية والنصف، وبقية نقاط الحراسة التي انسحبت إلى الداخل .. فكانت تقف بشكل مربع في الساحة أمام غرف النوم ويقف مع الأفراد كل من ضابط الخفر فضلاً عن الضابطين: الدجيلي وعبد الرحمن محمد صالح .. إلا أن الموقف في الخارج، وإزاء خوف جنود الحرس من أن يقتلوا جميعاً، حدا بالنائب عريف جفات راضي من الفصيل الثاني من السرية الأولى أن يغادر الصف، ويتجه نحو المشاجب ويستلم رشاش برن وثلاثة مخازن عتاد ويرتقي سطح منام غرف الانضباط الخاص، واتخذ موضعاً للرمي يشرف على كامل الجناح الأيسر للقوة المهاجمة. وهنا وصل العقيد طه، وأبلغ الضباط بأن الأمير مصمم على عدم القتال .. وهو يرغب في مغادرة البلاد، وصرخ بجندي الحرس النائب عريف جفات بأن ينزل برشاشه عن سطح البناء.

وفي داخل القصر ـ ارتفعت درجة الحرارة واشتدت على أثر اشتعال الطابق العلوي برمته، وراحت ألسنة اللهب تزحف نحو السلالم المؤدية إلى الطابق الأرضي. وزخم الدخان الكثيف الهابط أرجاء الطابق الأرضي، وبدت بقع ملونة تظهر في سقف البناء وارتفعت درجات حرارة الجدران.

أما الأسرة المالكة .. فقد تركت السرداب الذي كانت تختبئ فيه منسحبة إلى المطبخ الذي يقع أيضاً في أقبية القصر .. وفتحت باب المطبخ الذي يؤدي إلى فناء صغير محاط بسياج خشبي أخضر اللون، ينتهي بالحديقة الجانبية للقصر، حيث يوجد ممر صغير من أشجار واطئة الارتفاع .. ثم سياج سلكي عليه باب من السلك يؤدي إلى الإسطبلات والمرائب فثكنة نوم الجنود.

وفي المطبخ اجتمعت الأسرة ثانية، وكانت الملكة الوالدة نفيسة ما تزال ترتل القرآن بصوت مسموع، أما الأميرة عابدية فقد بطت مشعثة الشعر مغرورقة العينين وهي تصرخ في أخيها أن يجد طريقة لإنقاذهم .. بينما جلس الملك على أحد الكراسي .. ووقف إلى جانبه الطباخ وبعض الخدم وهم في أقصى حالات الهلع.

أما النقيب ثابت يونس الذي ذهب بمهمة المفاوضة فقد خرج إلى الحديقة ليواجه حشداً من الضباط قد تسللوا من البوابة النظامية الخارجية إلى داخل حديقة القصر نفسها .. واتخذ بعضهم من حوض الماء المستدير الموجود أمام الباب ستراً يحتمي به. وسرعان ما تعالت أصوات الضباط يطلبون أن يخرج الملك وولي العهد .. وحاول ضابط برتبة ملازم ثان أن يهجم على ثابت يونس والشتائم والسباب تنهال من فمه، فأمسكه ثابت من كتفه صارخاً بوجهه أن يلتزم جانب الأدب والضبط والربط العسكري عندما يتكلم مع ضابط أعلى منه رتبة.

وانهال الرصاص بشدة وتناثرت الطلقات يميناً ويساراً، وهي تصطدم بجدران القصر ـ الداخلية وانفجرت قنبلتان أو ثلاث من مدفع هاون 2 عقدة .. مما اضطر النقيب ثابت أن يتراجع إلى المطبخ، حيث وجد الجمع كله، وأخبر الموجودين بأنه تعذر عليه التكلم مع أحد.

ناقش الضباط الموقف مع الأمير، وأطلعوه على حقيقة الحالة في الخارج .. وبعد دقيقة كان عبد الإله قد اتخذ قراره الأخير.

عبد الإله يتخذ قراره الأخير:

التفت إلى الجميع من الضباط .. ومن معه من أفراد الأسرة وقال:

طيب .. أبلغوا المهاجمين بأنني قررت التسليم .. وأن الملك يتنازل عن العرش .. شرط أن يدعونا نغادر العراق .. وأعطى عهداً بأن لا أعود إليه.

سمع الموجودون كلهم قرار عبد الإله .. بالتسليم .. والتنازل عن العرش .. وغام الوجوم على وجوه الجميع .. وإن بدا واضحاً أن الملك والأميرات قد استحسنوا القرار الذي طالما أرادوه.

وأمر عبد الإله كلاً من الضباط محمد الشيخ لطيف وطه البامرني وثابت يونس .. بأن يذهبوا ليبلغوا هذا القرار الجديد للضباط .. لكي يكفوا عن إطلاق النيران.

وعندما خرج العقيد طه البامرني صحبه المقدم محمد الشيخ لطيف .. شاهدوا أفراداً أخر من الضباط والمراتب قد دخلوا الحديقة واستتروا بالأشجار .. وتقدم عدد من الضباط ور شا شاتهم بأيديهم صوب ضابطي الحرس .. وقال المقدم محمد الشيخ لطيف: إننا لا نريد أن نقاوم .. فقط نريد أن نعرف مصير الموجودين داخل القصر .. وتقدم منه ضابطان، فتوسل إليهما المقدم محمد أن ينزلا إلى المطبخ ويواجها، الأمير، ويسمعا منه قراره بالتسليم والتنازل عن العرش .. وأخذهما بيده ونزل بهما درجات المطبخ، وهناك واجه الضابطان الأمير عبد الإله الذي كان يقف ولفافته بيده يدخنها. وقد بدا وجهه شاحباً تشوبه صفرة الموت .. إلا أنه كان يحاول أن يحافظ على رباطة جأشه .. والذي سرعان ما استعاده .

وهب الملك واقفاً وعلى وجهه شبح ابتسامة ملائكية، ثم توجه ووقف إلى جانب خاله .. وصرحت الملكة نفيسة بكلمات عربية مكسرة تحلف الضابط بالقرآن الكريم أن لا يمسوهم بسوء .. وراحت الأميرة عابدية تبكي وتتشنج، وبجانبها تقف الأميرة هيام التي بدا الهلع والخوف على وجهها.

تكلم الأمير عبد الإله بصوت به نوع من الصرامة والجدية موجهاً كلامه للضابطين قائلاً: «إن كنتم طلاب حق وشهامة فإن هؤلاء الموجودين أمامكم أمانة بأعناقكم .. لقد قرر الملك أن يتنازل عن العرش، وسنغادر العراق إذا سمحتم لنا بذلك».

ولم ينبس الضــابطان ببنت شــفة واســتدارا إلى الخلف، ثم التفت أحدهما قائلاً: سأذهب لأبلغ قراركم هذا إلى الضابط في الخارج.

الحرس الملكي يستسلم:

وفي تلك الأثناء .. وفي ثكنة الرحاب .. تقدم عدد من ضــباط ومراتب الثورة .. وبأيديهم غداراتهم وفاجأوا سرية حرس القصرـ كلها، وتعالى صراخهم بأن يرفعوا أيديهم فوق رؤوســهم علامة التســليم. فرفعت كل قوة قصرـ الرحاب أيديها فوق الرؤوس علامة التســليم .. وأوعز ضــباط الثورة لضــباط وجنود الحراس بأن يقفوا بتشكيل رتل سير.. وجاء بضباط الحرس الثلاثة وأوقفوهم أمام الرتل .. وأعطيت لهم الأوامر بالسير.. فسارت قوة حراسة الرحاب كلها برتل المسير الثلاثي المنتظم، وقد رفع الضباط والجنود أيديهم فوق رؤوسهم .. علامة التسليم.

وأمرت القوة بالســير في الطريق الملكي الخاص .. وشــاهدت القوة المســتســلمة القوة المهاجمة كلها .. وقد غدت مائة ضعف عما كانت عليه قبل ساعة من الزمن .. ومن خلال الأشــجار .. لاح لهم الطريق العام، وقد غص عن آخره بالألوف من الشعب الذي طوق القصر من جميع جوانبه تقريباً.

سـارت القوة الأسـيرة وأوعز لها بالوقوف أمام الباب النظامي لسـور القصرـ الخارجي ثم أمرت القوة بالجلوس أرضـاً مواجهة للقصرـ نفسـه، وأيديهم فوق رؤوسـهم، والضـباط المهاجمون شـاهرون أسـلحتهم بوجوههم .. بحيث أصبحوا بمجلسـهم هذا يواجهون البناء الداخلي للقصرـ الذي كان يحترق في ذلك الوقت. وشـاهـد من كـان موجوداً في الطـابق الأرضي من القصرـ أن قوة الرحـاب قـد استسلمت كلها.

وفي خارج مبنى القصرـ .. توجه العقيد طه البامرني إلى باب الحديقة الخارجية .. حيث يوجد هاتف .. وكان ما يزال متمنطقاً بمسـدسـه .. ومن بعيد شـاهده النقيب عبد الستار سبع العبوسي الذي صرخ به قائلاً: أين أنت ذاهب ..؟

فأجاب العقيد طه .. أريد أن أبلغ كافة وحدات الحرس الملكي بالتسليم.

فطلب إليه النقيب سـبع أن ينزع مسـدسـه ويتقدم .. وبالفعل خلع العقيد طه مسـدسـه وقدمه إلى سـبع. ثم دخل غرفة الحرس من الباب النظامي، وطلب مأمور بدالة القصور الملكية أن يصله بمقر الفوج، حيث كان مساعده النقيب هاشم الحاج كمال يتلقى المكالمة .. والتي كانت بالتسليم وإرجاع السلاح والعتاد إلى المشاجب .. وإدخال الجنود إلى قاعات النوم.

استسلم النقيب هاشم هذا الأمر .. وأعوز فوراً إلى النقيب سالم وضباط الخفر .. ومن تيسر حضوره من الضباط إلى الثكنة في تلك الساعة وباشر الضباط مهمتهم .. وأمروا الجنود بإدخال السـلاح إلى المشـاجب، والدخول إلى قاعات النوم، وبأقل من خمس دقائق عاد كل سـلاح الفوج الملكي الأول إلى المشـاجب .. وأغلقت الأبواب. وختمت بالشـمع الأحمر كالعادة .. وعاد الجنود يسـيرون متخاذلين متباطئين .. وقد انهدت معنوياتهم وهم يتسـاءلون حائرين عن الموقف في قصرـ الرحاب وعن مصـير القوة الموجودة هناك. واجتمع ضـباط فوج الحرس في غرفة المسـاعد يرتشـفون أقداح الشاي ويدخنون السجائر بقلق ظاهر في انتظار ما سيردهم من أحداث بعد تسليمهم.

وفي كتيبة الهاشـمي .. كانت الكتيبة تحت رحمة النقيب عبد النبي حامد .. الذي استلم مكالمة العقيد طه .. وأخبره بزهو وافتخار بأن الكتيبة قد جندت نفسها لخدمة الثورة منذ السـاعة الأولى؛ وحدث نفس الشيـء في البلاط حيث اسـتلم آمر القوة هناك أمر التسليم واستلم آمر بطارية مدفعية الحرس أمر التسليم أيضاً.

وهكذا .. اسـتسـلم لواء الحرس الملكي كله .. وكان الوقت يقارب الثامنة إلا ربعاً صباحاً.

الدقائق الأخيرة:

ولنعد الآن إلى داخل المطبخ في القصر المشتعل .. كانت الأسرة المالكة قد أخذت تشعر بأنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الموت .. كان عبد الإله يقف وهو يعصر فكره ويحاول أن يبدو هادئاً .. ثم لم يلبث أن تكلم فقال: (أعتقد أنهم سيأخذونني أنا فقط .. أما أنتم فلا أعتقد بأن هناك خوفاً عليكم) .. وقال موجهاً كلامه لفيصل:

(أما أنت فتنازل عن العرش بصفة رسمية .. وغادر البلاد).

وفي خارج المطبخ .. وخلف السور الخشبي المشبك الأخضر .. انتشر عدد من الضباط والجنود في الحديقة .. شاهرين أسلحتهم وموجهين فوهاتها تجاه باب المطبخ، ووقفت خلفهم مدرعة تمكنت من التسلل من الطرق الجانبية.

وارتفع صوت النقيب مصطفى عبد الله من المهاجمين .. وهو يصرخ بالموجودين في داخل المطبخ أن يخرجوا .. وانهالت الشتائم من فمه يسبهم ويلعنهم.

ودخل العقيد طه من بين المتجمهرين أمام المطبخ ومعه المقدم محمد الشيخ لطيف .. وأخبرا الأمير بأن أوامر التسليم قد أبلغت إلى كافة وحدات لواء الحرس الملكي .. وأن الأمر أصبح منتهياً .. وأن عليه أن يسلم نفسه وأفراد أسرته للثوار.

وأدرك كل الموجودين أن هذه هي الحقيقة التي لا منجاة منها، وأن عليهم أن يغادروا البناء، ويسلموا أنفسهم إلى هؤلاء الذين يريدونهم في الخارج.

وبسرعة أوعزت الأميرة عايدة إلى إحدى الخادمات أن تذهب إلى فوق وتجلب بعض الحرامات والشرائف لتستر بها النساء أجسادهن وهن بملابس النوم.

وخرج النقيب ثابت للمرة الأخيرة وصاح يجمع الضباط المتجمهرين بالباب بأنهم ليسوا أكثر وطنية منه .. وإذا كان الموقف الوطني يتطلب أن يعتقلوا الملك والأمير، فإن في الداخل نساء وأطفالاً وخدماً لا ذنب لهم، ورجع إلى الداخل .. وفي باب المطبخ كان يقف العقيد طه، وهو يحاول أن يهدئ من ثورة غضب النقيب مصطفى عبد الله .. ويكلمه باللغة الكردية.

مسيرة الموت:

وقبل الساعة الثامنة بقليل .. فتح باب المطبخ .. وخرج منه الملك وإمارات الرعب قد تجمدت على وجهه من هو الموقف .. وبدا مرتدياً ثوباً ذا كمين قصيرين .. وبنطالاً رمادي اللون، وينتعل حذاءً خفيفاً .. وخلفه سار الأمير عبد الإله مرتدياً ثوباً وبنطالاً كذلك، وقد وضع يده اليسرى في جيب بنطاله، أما يده اليمنى فكانت ترفع منديلاً أبيض.

وزاحمت الملكة نفيسة ولدها الأمير عبد الإله على درج المطبخ، ووقفت وراء الملك ورفعت القرآن عالياً بيدها فوق رأسه وهي تصر بأسنانها على أطراف الشراشف الذي يستر جسمها، وخلفها سارت الأميرة عابدية وهي تنتحب وتولول، ثم الأميرة هيام، ثم إحدى خادمات القصر المسماة رازقية، والطباخ التركي وخادم آخر .. واثنان من جنود الحرس تركا بندقيتهما في المطبخ.

وخرج الجميع يتقدمهم المقدم محمد الشـيخ لطيف .. والملازم أول ثامر خالد الحمدان .. وكان يقف في نهاية الرتل النقيب ثابت يونس.

وفي الباب، كان العقيد طه ما يزال يحاول أن يهدئ من ثورة هيجان الضـباط، وخاصـة النقيب مصـطفى عبد الله الذي كان يرفع عقيرته بالصراخ (اخرجوا أيها السـفلة .. أيها الخونة .. أيها العبيد) وخرج الجمع كله ليواجه نصـف حلقة من الضباط وهم كل من:

النقيب مصـطفى عبد الله .. النقيب سـامي مجيد .. النقيب عبد الله الحديثي .. النقيب منذر سـليم، النقيب عبد الحميد السراج، الملازم أول عبد الكريم رفعت، وعدد آخر من الملازمين والمراتب.

ويقف خلف هؤلاء الضـباط عدد آخر من الضـباط والجنود، وقد انتشروا في الحديقة وخلف الأشجار .. وإلى خلف هؤلاء من اليمين واليسار .. كانت الجموع الغفيرة من العساكر والناس تقف متفرجة.

خرج الملك فيصل .. وسرعان ما رفع يده بالتحية العسكرية للضباط الموجودين أمامه .. واغتصب ابتسامة رقيقة تراقصت على شفتيه، وظهرت خلفه جدته .. وهي تحاول أن تجعل الجمع كله يشـاهد القرآن بيدها .. وبعدها سـار عبد الإله .. وهو يتمتم ببضع كلمات غير مسموعة .. ووجهه يكاد أن يكون أبيض ..

وزوى ما بين حاجبيه، وهو يرى لأول مرة الضباط شاهرين ر شا شاتهم بوجهه .. وتلفت يمنة ويسرة .. ليتطلع إلى بقية العساكر المنتشرين بالحديقة .. ثم لم يلبث أن استدار إلى الخلف ليطمئن على زوجته وأخته اللتين جفت الدموع في مآقيهما ولم تعودا يعرفان ماذا يقولان أو يفعلان .. وارتفع همس الملكة العجوز وهي تحاول أن تردد بعض الآيات من القرآن الكريم.

وتقدم النقيب مصطفى عبد الله .. وصرخ فيهم بأن يجتازوا ممراً من الشجيرات ينتهي إلى باحة خضراء صغيرة .. جنب شجرة توت ضخمة وسط الحديقة، وقد تعلق بها نسناس صغير مربوط من رقبته بسلسلة معدنية .. فاجتاز الجمع الممر .. ووقفوا بشكل نسق يتطلعون إلى أفواه رشاشات الضباط الموجهة نحوهم.

النهاية الرهيبة:

وفي هذه الأثناء .. كان النقيب عبد الستار سبع العبوسي داخل قصر الرحاب .. فترك القصر ونزل هابطاً درجات الباب الأمامية ورشاشته بيده .. واستدار إلى اليمين فشاهد الأسرة المالكة كلها تسير في صف تاركة باب المطبخ .. وبعد أقل من نصف دقيقة كان النقيب العبوسي يقف خلف العائلة المالكة تماماً، ويفصله عنهم خط شجيرات صغيرة على الأرض.

وبلمح البصر .. فتح نيران رشاشته من الخلف مستديراً من اليمين إلى اليسار .. فأصـــابت طلقات غدارته الثمانية والعشرـين طلقة ظهر الأمير عبد الإله .. ورأس ورقبة الملك وظهري الملكة والأميرة عابدية .. ثم لم يلبث أن فتح مصــطفى عبد الله نيرانه من الأمام على البشر الموجودين أمامه .. وفتح بقية الضباط المشكلين نصف حلقة نيران رشاشاتهم، وجاءت النيران من الأمام ومن الخلف ومن الجانب .. من كل يد تحمل سلاحاً في تلك اللحظة ..! أصيب الملك بعدة طلقات فتحت جمجمته وسقط في أحضان الأميرة هيام التي تهاوت أرضاً، وقد أصيبت برصاصة في فخذها .. وسقط عبد الإله قتيلاً وانصبت عليه نيران أكثر من فوهة نارية، وهو يتمرغ قتيلاً على الأرض .. ونالت الأميرة عابدية والملكة نفيسة حظهما من رصاص المهاجمين .. فتمرغتا أرضاً وهما تلفظان أنفاسهما الأخيرة .. وأصيب جندي الحرس محمد فقي بعدة طلقات نارية صرعته فوراً .. وجرحت الخادمة رازقية .. وقتل الطباخ التركي، وقتل أحد الخدم في نفس البقعة أيضاً.

التلذذ بالفشل:

وأصـــيب النقيب ثابت يونس بطلقة نارية اخترقت رئته اليمنى ونفذت، فهرب إلى جهة اليمين ومعه ضابطي صف من الانضباط الخاص، وسرعان ما واجهتهم أعداد المسلحين المختفين وراء القصر وأجبروهم على التسليم

. أما المقدم محمد الشـيخ لطيف فقد قفز جانباً حائداً عن منهمر الرصـاص، وا ستطاع الملازم أول ثامر الحمدان أن يلقي بنفسه بين الشجيرات، ويزحف أر ضاً إلى ضفاف نهر الخر ويندس هناك بين جموع المهاجمين ويختفي دون أن يعرف أحد.

وأثار منظر الدماء وأصوات الطلقات النارية جنون ضـابط المدرعة، ففتح نيران رشـاشـته الثقيلة على الأجسـام الملقاة أرضـاً .. فحرثها حرثاً وحاول الطفل جعفر اليتيم الذي كانت تربيه الأميرة عابدية أن يهرب إلى زاوية من زوايا القصرـ، إلا أنه سرعان ما عاجله الجنود برصاص بنادقهم فأردوه قتيلاً.

وعلى أثر هذا الرصـاص المتناثر يمنة ويسرـة أصـيب النقيب مصـطفى عبد الله بطلقة نارية في صـدره. وسـقط أرضـاً والدم ينزف من جرحه .. وتهاوى بين الشـجيرات النقيب عبد الحميد السرـاج، وقد أصـابته طلقة نارية في كعب قدمه .. وسـقط ضـابط صـف برتبة رأس عرفاء قتيلاً من المهاجمين. أما الأميرة هيام فقد تمكنت من الزحف إلى ركن أمين وتقدم منها ضـابط وحملها بيده حيث أخفاها في غرفة حرس الباب النظامي، والدماء تسيل من فخذها.

ثم كفت الإطلاقات النارية .. وكانت الجثث الميتة ملقاة أرضاً.

وتصـايح الضـباط، كل يريد أن يعطي فكرة أو طريقة للتخلص من الجثث. وسرعان ما جلبت سـيارات نقل على أثرها الضـابطان الجريحان من المهاجمين إلى المستشفى.

وفجأة سمع المتجمهرون إطلاقة نارية تأتي من الخلف من بين الأ شجار .. فجن جنون الضباط ثانية وتناولوا رشاشاتهم وراحوا يفرغونها في الأشجار العالية المحيطة بالقصر .. لإتمام عملية التطهير .. ولعلع من جديد رصاص الرشاشات شاقاً السكون الذي ساد المكان أثر عملية القتل .. كأنما هو صرخات الموت الختامية وحشرجته في قصر الرحاب.

ثم جلبت سيارة من نوع بيك آب (فان) تابعة للقصر كانت تستعمل للمشتريات اليومية .. ورفعوا جثة الملك .. وأنزلوها في السيارة .. ووضعت الجثة على جنبها الأيمن مما جعل اليد اليسرى تتدلى خارج الباب .. ثم سحبت الجثة من يدها إلى الداخل.

ثم حملت جثث النساء .. فجثة عبد الإله .. وبقية القتلى .. وإلى هنا كانت جماهير الناس في الشارع قد دخلت حدائق القصر وانتشرت فيها .. وشاهد بعضهم الجثث، وهي تنقل إلى السيارة (الفان)، وتحركت السيارة نحو الطريق الخاص للقصر .. وهجم شاب ضخم الجثة يحمل بيده خنجراً، وانهال بطعنتين على جثة عبد الإله.

وجيء بسيارة ثانية نقلت النقيب ثابت يونس المرافق العسكري الذي بدت عليه علامات الضعف والوهن إلى المستشفى العسكري .. حيث لفظ أنفاسه الأخيرة هناك.

أما الأميرة هيام والخادمة رازقية فقد نقلتا إلى المستشفى الحكومي الملكي حيث أعطيتنا العلاج اللازم وتم إنقاذ حياتهما.

وعندما خرجت السيارة التي كانت تقل القتلى .. وقفت في باب ثكنة الرحاب .. حيث أعيد رفع جثتي الأمير والملك، ووضعتا بسيارة جيب عسكرية ركب معها ضابطان.

أما سيارة البيك آب فقد توجهت بسرعة إلى دائرة الطب العدلي في المستشفى المدني، حيث ووريت جثث النساء في حفرة في مقبرة قريبة.

كانت السيارة التي تقل جثتي الملك والأمير .. تحاول أن تسير مسرعة وسط الزحام الشديد في الشارع، وحاول الضباط ألا يعرف أحد بأن سيارتهم تقل جثتين. إلا أنه سرعان ما فطنت الحشود الهائلة التي راحت تركض وراء السيارة، وقد شهرت المسدسات والخناجر والهراوات. وكانت أعداد من الجنود قد وقفت على جوانب الطريق المكتظ، وهم يطلقون نيارن بنادقهم ابتجاهاً.

وفي قصر الرحاب .. هجمت جموع الجنود والمدنيين إلى داخل القصر المحترق .. وباشرت عمليات السلب والنهب في سباق مع اللهيب والنيران الآكلة .. واستمرت عمليات النهب يومين متتاليين على مرأى ومسمع من الضباط الذين كانوا في الحراسة هناك.

وتمت سرقة دار السـيد عبد الجبار محمود زوج عمة فيصـل .. بتسـهيل من أحد ضباط كتيبة الهاشمي من الحرس الملكي، وتم تهشيم وحرق سيارة الملازم أول ثامر خالد الحمدان التي كانت تقف أمام باب القصر .. وشـاهدت جموع الغوغاء جثة الطباخ التركي .. ملقاة في الحديقة .. فوضعت الحبال في رقبته .. وسحل إلى الطريق العام، وألقيت الجثة أمام باب معسكر الوشاش حيث صبت عليها قوارير البترول من السيارات الواقفة جنب الطريق وأشعلت فيها النار .. وتركت هناك.

وكانت الجماهير خارج القصر .. قد هاجمت سيارة مدنية يركب بها شاب أجنبي .. وانهالوا عليه ضرباً وهشموا وجهه ورأسه وهو يبكي ويصرخ متوسلاً .. أنه لا ذنب له، ولا يعرف عن الموضوع شيئاً.

سـارت السـيارة التي تقل الجثتين، تتبعها الحشـود الذي أخذت تنشـد أهازيج الحماسـة الشـعبية .. وحالما .. وصـلت إلى النقطة المواجهة لمبنى المحطة العالمية .. التفت حولها أعداد أخرى من الناس .. والكل يريد أن يلقي نظرة على الأموات.

موكب السحل:

وإزاء الضغط المخيف من الحشود المتلاطمة من المسلحين بالسيارة من كل جنب .. قام أحد الضـباط برفع جثة الأمير من قدمه .. وسـلم القدم إلى أقرب الموجودين إليه .. وسحبت الجثة من السيارة .. وألقيت أرضاً.

سـقطت الجثة على ظهرها والدماء تلطخ القميص الأبيض الذي كان يرتديه عبد الإله .. وسرعان ما انهالت عليها الركلات بالأقدام .. وتناثر رشـاش البصـاق من أفواه المحيطين بها عليها.

انتهز الضـابطان فرصـة انشـغال الغوغاء بجثة الأمير .. فأطلقا العنان لسـيارتهم التي تحمل جثة فيصـل .. وعبروا بها شـوارع بغداد دون أن يشـعر بهم أحد .. وتوجهوا إلى وزارة الدفاع .. حيث أمروا بالتوجه بها نحو مسـتشـفى الرشـيد العسكري.

وفي المسـتشـفى نقلت الجثة إلى إحدى غرف العمليات .. وسـجي الجثمان على إحدى طاولات العمليات .. حيث قدم عدد من الضباط الأطباء وغيرهم .. ليلقوا نظرة على وجه فيصـل .. وفتح أحد الأطباء جفني العين التي بدت جامدة لا حياة فيها .. وسـأله ضـابطان برتبة نقيب وصـلا لتوهما من وزارة الدفاع .. فيما إذا كان الملك حياً .. أم ميتاً .. فأجابهم .. إنه ميت.

ولم تستطع الممرضات الموجودات في الغرفة أن يغالبن دموعهن وهن يتطلعن إلى وجه فيصل .. وقد خضبت الدماء محياه .. وشعر رأسه .. وتركن الغرفة إلى الخارج وهن ينشجن.

وفي مساء نفس اليوم .. حفرت حفرة قريبة من المستشفى في معسكر الر شيد .. وأنزلت فيها الجثة وأهيل عليها التراب .. ووضـــعت بعض العلامات الفارقة معها لتدل على مكانها فيما بعد .. وا ستمر التراب يغطي الجثة .. حتى تساوي مع الأرض .. ودك بالأقدام .. ولم تعد ثمة علامة في الأرض تدل على مكانها ولا يعرفها إلا الضباط الذين دفنوها ورفعوا بها تقريراً رسمياً إلى المسؤولين في وزارة الدفاع.

أما جثة الأمير عبد الإله .. فسرعان ما انقضت الأيادي على ملابسه وخلعتها .. حتى عري الجسد الذي بدا أصفر مائلاً للبياض من كثرة ما نزف من دماء.

وتصـــايحت الجماهير .. اجلبوا الحبال .. وبسرعة جلبت من الأكواخ المجاورة واللوريات الواقفة وربطت الجثة بحبلين واحد من الرقبة .. ومرر الآخر من تحت الإبطين .. وأمسك بطرفي الحبلين بعض الشباب وباشروا المسير .. والجثة العارية تسحل من ورائهم على الأرض.

وكلما تقدم موكب القتيل المســحول من قلب مدينة بغداد صـــادفتهم الجماهير الهاجئة القادمة لتلقي نظرة أو ضربة أو طعنة في الميت.

وما إن وصلت الجثة إلى قلب منطقة الكرخ وفي أكبر شوارعها إلا وكانت حشود بغداد الر صافة تحاول أن تعبر جسر المأمون الذي غص بمن فيه، وكذلك الشارع .. وأصبح من المتعذر المرور أو السير فيه.

تصايح الغوغاء .. فلنعلق الجثة:

وجلبت الحبال الغليظة .. وربطت بشرفة فندق الكرخ .. وبعد دقائق كانت جثة الأمير ترتفع معلقة في الهواء .. فصعد إليها حملة السكاكين والسواطير فبتر الذكر .. وفصلت الرجلان من الركبتين، وقطع الكفان من الرسغين، وألقيت إلى مجموعات من الفتيان والشــبان الذين سرعان ما تلاقفوها .. وانطلقوا مهرولين بالأجزاء المبتورة عبر الشوارع والأزقة متجهين نحو الرصافة .. في صخب ولعب و ضحك .. كأنهم في ساحة كرة القدم، وتقدم شاب في مقتبل العمر من الجثة المعلقة .. عرف فيما بعد أنه ابن أحد القواد العســكريين الذين أعدموا بعد حوادث 1941 وناولته الجماهير مســدســاً ليطلق منه النار على الميت. إلا أن الشــاب امتنع عن القيام بعمل كهذا.

وبقيت الجثة معلقة في مكانها زهاء العشرــين دقيقة .. وتعالت الصرــخات .. أنزلوها ولنكمل ســحلها عبر الشــوارع، وأنزلت الجثة .. وبوشر بالســحل ثانية، وعبروا بها جسرــ المأمون متجهين نحو شــارع الرشــيد الذي كان يغص بالناس وبالمتفرجين من الشرــفات والنوافذ. وفي شــارع الرشــيد أصــبحت الجثة هدفاً للحجارة .. وبدت طلائع الموكب الوحشي- المرعب وهي تســير على لحن نشــيد الله أكبر .. الذي كان يملأ الأسماع من الراديوات المنتشرة في مقاهي وأماكن الشارع.

كان الوجه قد تهشم تماماً، وقد مر أحد الحبال من بين الأسنان وشق الفم والوجهة اليمنى، وانكسر الفك وتدلى على جانب الوجه، وارتفع الوجه الأعلى فبانت الأسنان البيضاء في الوجه المشقوق. وبدت العينان مفتوحتين وهما تنظران نظرة الميت الجامدة .. ولم يبق من ملامح عبد الإله إلا الجبين الواسع وبعض الشعر الأسود الذي تعفر بتراب الشارع.

وبالقرب من وزارة الدفاع .. كانت جمهرة الساحلين أربعة فتيان .. لا يتجاوز عمر الواحد منهم الخمسة عشر عاماً، يبدو عليهم كأنهم تلاميذ مدرسة متوسطة يتبعهم صبية صغار .. حفاة الأقدام .. قذرو الملابس .. كلما تعب واحد من السحل، سلم الحبل لبديل من هؤلاء الأطفال والفتيان.

وعلى مسافة أربعة أمتار من الجهة المسحولة .. كان يسير موكب غوغاء بغداد .. وأوباشها .. وأغلقت النساء الشبابيك، وهن يبعدن أطفالهن عن التطلع إلى هذا المنظر الذي تجمد الأطراف لهول بشاعته.

وأخيراً وصل الموكب أمام مبنى البوابة الخارجية لوزارة الدفاع .. حيث وقف حشد كبير من الضباط والمراتب من مختلف وحدات بغداد لتقديم التهنئة والتأييد للثورة وللعقيد عبد اللطيف الدراجي الذي احتل وزارة الدفاع.

ولم يتحرك أي من الضباط أو الجنود من أماكنهم للتطلع إلى ذلك المنظر المقزز للميت المقطع الأوصال، بل لبثوا في أماكنهم، وقد ارتفعت أبصارهم وهم يحاولون النظر من بعيد.

وصــلت الجثة الممزقة أمام وزارة الدفاع حيث يوجد قبالته مقهى كبير، وإلى جانب المقهى يقوم بناء قديم من طابقين .. وصعد أحدهم متسلقاً العمود الكهربائي المجاور للبناء، وعلق حبلاً في شرفة الطابق الأول حيث وقفت في تلك الشرــفة بعض النســوة والأطفال يتفرجن على الشــارع .. وأدليت الحبال وربطت بها حبال الجثة .. وتصايح الواقفون .. ارفعوها .. وبعد لحظات كانت الجثة ترتفع ثانية معلقة في الهواء وقد اندلقت أمعاؤها، وتسلق عمود النور المجاور شاب يحمل سكيناً بيده، وطعن الجثة بالظهر عدة طعنات .. ثم أعمل ســكينه في الدبر وراح يقطع اللحم صاعداً إلى فوق باتجاه الرأس .. ومن الشارع جلبت عصا طويلة بيضاء، أدخلت في الجثة ودفعت بها دفعاً .. والضــباط والمراتب ينظرون إليها دون أن يتحركوا من أماكنهم، رغم أن علامات الامتعاض من هذه المناظر الوحشــية كانت ترتســم على وجوههم جميعاً.

وكانت خاتمة المطاف لجثة الأمير عبد الإله أن تناوب عليها الغوغاء والأوباش .. وطافت أجزاؤها معظم شــوارع بغداد .. أما ما تبقى منها إلى مســاء ذلك اليوم .. فقد صبت عليها صـفائح البترول، ثم حملت البقايا المحترقة .. وألقيت في نهر دجلة كما ابتلع نهر دجلة .. الأطراف التي كانت مبعثرة هنا وهناك في مســاء وليل ذلك اليوم أيضاً.

وفي صباح اليوم التالي . كان قصر الرحاب ما يزال ينبعث من شرفاته ونوافذه دخان الحريق. وكانت عمليات نهب ما يحتوي تجري على قدم وساق .. تخرج منه أعداد كبيرة من الجنود والأهالي، وهم يحملون ما استطاعوا جمعه من متاع وأثاث.

نهاية الحرس الملكي:

أبدل اسم لواء الحرس الملكي باسم لواء المشاة الخامس والعشرين. وأنيطت قيادته بالعقيد نوري الراوي، أحد ضباط الحرس الملكي القدامى.

وقام الملازم أول عبد الله مجيد – آمر مفرزة التصليح في لواء الحرس الملكي (مرافق العقيد عبد السلام عارف فيما بعد) بمهمة تصفية لواء الحرس الملكي من الضباط والمراتب والموالين للعهد السابق، أو الذين لا ترغب الثورة ببقائهم في صفوفها.

وتقدم هو وضباط الوحدات المهاجمة، فجمعوا كل ضباط الحرس الملكي في قاعة البهو لقصر الرحاب، ووضعوا عليهم الحراسة، وأمروا الجنود بعدم مغادرة الثكنة، ووضعت على مشاجب السلاح نقاط حراسة بقيادة ضباط مدرسة المشاة لإحباط أية محاولة قد يقوم بها أحد منتسبي الحرس الملكي:

وأحيل إلى التقاعد، واعتقل، وأخرج من الجيش، من ضــباط الحرس الملكي كل من:

اللواء عبيد عبد الله المضايفي، العميد الركن محسن محمد علي، العقيد عبد القادر محمود، العقيد جميل خليل، المقدم جواد كناوي، المقدم حســين علي العبيدي، المقدم محمد الشيخ لطيف، المقدم حمدون سعيد، الرائد ماجد عبد الستار، النقيب الشهيد ثابت يونس (رحمه الله)، النقيب ســالم رشــيد، النقيب إبراهيم الطالبي، الملازم أول فاروق عبد الرحمن آل ياســين، الملازم أول ســالم عبد الكريم النوري، الملازم فالح زكي حنظل.

أما العقيد طه مصــطفى البامرني فقد عين مديراً لدائرة العقود والمبايعات في الجيش .. ثم لم يلبث أن عين بمنصــب القائد العام لقوات المقاومة الشــعبية التي حرست نظام عبد الكريم قاسم إبان المد الشيوعي في العراق، وانتهى بأن أحيل إلى التقاعد بعد ثورة 14 رمضــان 1963، حيث صــار بعدها أحد قادة وحدات «البيشمركة» التابعة لثورة الملا مصطفى البارزاني في شمال العراق.

هذا ومن المفيد أن نذكر أنه في يوم 14 تموز 1958 كانت المحاولة الوحيدة التي قامت في الجيش لنصرــة الأسرة المالكة في بغداد، هي في مقر قيادة الفرقة الأولى . حيث اجتمع اللواء الركن عمر علي بالضباط والجنود في مقر الفرقة

ووضــع الوحدات كلها في الإنذار تمهيداً للزحف على بغداد، واجتمع بشــيوخ ورؤســاء القبائل، وكان أول من لبى النداء هو الشــيخ علي الشــعلان زعيم قبيلة الخزاعل. إلا أن المحاولة سحقت في ساعاتها الأولى ولم يكتب لها النجاح.

وثبت بعد جرد عتاد فوج الحرس الملكي الأول بعد تسـليمه، بأن الفوج لم يطلق رصــاصــة واحدة، وللتاريخ يجب أن نســجل هنا أن رجال الحرس الملكي (جنوداً وضـباطاً) لم يترك أحد منهم موضـعه رغم هجوم وحدة النيران الموجهة إليهم، وقد حافظت الوحدة على ضـبطها العالي إبان المعركة على الرغم من أن الأوامر كانت قد صدرت إليهم بعدم القتال، ورغم شدة الهجوم من الطرف المهاجم، إلا أن أياً منهم لم تنهر عزيمتـه أو يحـاول الفرار أو الهروب من المعركـة .. إلى أن أبلغوا بوجوب التسليم للثورة!..

قيادة عبد الإله :

لقد كان عبد الإله (رحمه الله) يدق المســامير في نعشــه، ويهيئ هذا النعش (وقد مات بدونه) قبل ثمانية عشر سنة من مقتله. وفي يوم 14 تموز 58 دق آخر مسمار في نعشـه عندما تسـلم قيادة قوات حرسـه بنفسـه .. وأصـدر أمره الأول .. وكان عدم القتال حقناً للدماء .. ثم لم يلبث أن أصدر أمره النهائي والأخير وهو الاستسلام.

قد يجيب القارئ بأن من الممكن أن يكون عبد الإله قد أراد أن يدبر مكيدة أو ينصـب كميناً للقوات المهاجمة، أو يحاور ويناور لكسـب الوقت تمهيداً للقيام بهجوم معاكس لسحق الثورة؟

إن أي تلميذ عسكري مستجد يستطيع أن يدرك أن تعداد القوة المهاجمة للقصر في النصف الأول من الساعة الأولى من الهجوم .. كان بالإمكان صده وتدميره بواسطة أي فصيل من فصائل الحرس الملكي، وفي نصف الساعة الثانية لم يكن يحتاج للسيطرة على أبواب ومخارج معسكر الوشاش لقوة تتجاوز القوة الموجودة في قصر الرحاب فقط.

وفي الدقائق التي تلتها كان بإمكان فوج الحرس الملكي أن يطهر منطقة الحارثية كلها، ويسيطر سيطرة كاملة على معسكر الوشاش .. وفي أسوأ الاحتمالات كان بإمكان الفوج اتخاذ موضع دفاعي وراء نهر الخر .. وإمساك جسر الخر بحيث يمنع عبور الآليات والمدرعات، ويظل يقاتل في معركة دفاعية إلى أن يشاء الله أمراً.

أما لو تدخل لواء الحرس بكامله في المعركة وسيطر على جانب الكرخ والإذاعة وقطع الجسور الحديدية الممتدة على نهر دجلة ما بين جانبي بغداد «الكرخ والرصافة» .. لأصبح للمعركة حكم آخر، وفي أسوأ الاحتمالات أيضاً فقد كانت الفترة الممتدة من الساعة السادسة إلى الساعة السابعة صباحاً الفرصة السانحة المتوفرة لعبد الإله كي يهرب والملك معه وبقية أفراد الأسرة المالكة حيث ينجو بجلده خارج العراق، إلا أن عبد الإله كان مدركاً تمام الإدراك بأنه قد انتهى، وأن لا مفر من الاستسلام للقدر. وهو في الغالب قد أراد أن يقلد والده المرحوم الملك علي عندما كان ملكاً على الحجاز عندما استسلم هو وقوته البالغة أربعة آلاف مقاتل أمام عدد يسير من المهاجمين السعوديين. وفضل أن يكسب من الغنيمة حياته على حساب عرشه.

لقد كان عبد الإله مدركاً بألا فائدة من المعركة هجوم أو معركة دفاع أو معركة انسحاب .. لقد أراد الاستسلام .. وفكر بالاستسلام منذ زمن بعيد .. ووجد في الرصاصات التي هشمت زجاج غرفة نومه أحسن فرصة يعلن فيها استسلامه ورغبته في مغادرة العراق إلى حيث لا رجعة له، وارتكب غلطة مميتة عندما اعتقد بأنه سيخرج من أرض العراق كما خرج قبله ملوك وزعماء منفيون من بلادهم، ولم يكسبوا من ملكهم وزعامتهم .. إلا حياتهم.

وحسناً فعل عندما أمر بعدم القتال .. حقنا للدماء .. لأنه وعلى الأقل في آخر لحظة من حياته كان يدافع عن مبدأ يعتقد به .. وهو أنه يقاتل في معركة سيخسرها حتماً، فأبقى بذلك على دماء الألوف ممن كان مقدراً لهم أن يقتلوا ويموتوا بنيرانه .. وفدى دماءهم بدمه .. ودم فيصل وأفراد أسرته معه .. وهكذا، فما النصر إلا من عند الله .. وما الخير إلا فيما اختاره الله.

رواية ثانية عن مقتل الملك فيصل الثاني والعائلة

لم يدر في خلد عبد الرزاق حميد حاجم ضابط الصف في الجيش العراقي أنه سيكون أحد شهود العيان القليلين على حادثة مقتل الملك فيصل الثاني في قصر ـ الرحاب ببغداد صبيحة يوم 14 تموز (يوليو) 1958 التي أنهت العهد الملكي في البلاد، وسجاناً فيما بعد لعدد من الشخصيات السياسية أبرزها أحمد حسن البكر الرئيس الذي حكم العراق 11 عاماً بعد انقلاب عسكري جرى في سنة 1968.

أصبح ضابط الصف عبد الرزاق، المتخرج في مدرسة الأسلحة الخفيفة (مدرسة المشاة) قبيل الثورة، من الشواهد الحية على اللحظات الأخيرة في حياة آخر ملك حكم العراق من العائلة الهاشمية وبداية انقلاب عسكري عرف في الأدبيات السياسية العراقية بـ «ثورة 14 تموز» التي قادت العراق إلى نظام الحكم الجمهوري للمرة الأولى في تاريخه.

وروى عبد الرزاق الذي يكنيه معارفه وأصدقاؤه في محافظة واسط حيث يسكن بـ (أبو ربيع) ذكرياته عن واقعة قصر ـ الرحاب بادئاً بالقول «سأسرد لكم القصة بأكملها وأنا مسؤول أمام الله وأمام التاريخ وأمام الناس بأني سأسرد الحقيقة ولا شيء غيرها».

وقال أبو ربيع الذي يشارف عمره الآن على السبعين عاماً ومازال يعمل في استعلامات مبنى محافظة واسط أنه «في ليلة الرابع عشر من تموز عام 1958 كنت حينها عريفاً مهذبا (ضابط صف) في مدرسة الأسلحة الخفيفة الكائنة مقابل قصر الرحاب الملكي ضمن مجموعة معلمين في تلك المدرسة العسكرية بإمرة الرئيس الثاني (أي النقيب) عبد الستار سبع العبوسي وهو شاب وسيم على خده الأيمن شامة كبيرة، عصبي المزاج ومتهور أحياناً، ويتسم بالتسلط».

وأضاف وهو يسترجع ذكرياته وقد غزت التجاعيد وجهه وإن لم تؤثر السنين في جسمه المربوع «قبل أن يبدأ فجر يوم الرابع عشر من تموز أيقظنا النقيب ستار من نومنا نحن مجموعة ضباط الصف وقرر أن نكسر باب مخزن السلاح ونأخذ إطلاقتي مدفع عيار 106 ملم حيث كان هذا السلاح ينصب على سيارة عسكرية مكشوفة، وتوجهنا صوب القصر الملكي حيث الدبابات التي أحاطت بالمنطقة وعلى امتداد الشارع المؤدي إلى القصر مكونة طوقاً عسكرياً حوله». وأضاف «عند وصولنا وجه النقيب ستار المدفع صوب القصر ورمى إحدى الإطلاقتين، وكانت هذه أول إطلاقه مدفع في تلك الليلة دون أن يكون هناك رد من قبل حرس القصر سوى بإطلاقات من رشاشات خفيفة، وبعدها بلحظات بدأ إطلاق النار صوب القصر حتى بدأت ألسنة النار والدخان تخرج من نوافذ القصر الملكي».

وأردف ضابط الصف الذي يبدو بشعر رأسه وشاربه المصبوغين باللون الأسود أقل من عمره الحقيقي «دخلنا إلى حدائق القصر- وخرج أحد الحرس الملكي، يدعى الرائد ثابت، وهو يصرخ على الثوار بقوله: ألا تخجلون .. إنكم تنتهكون حرمة ملك البلاد وهذا غير مسموح به! فجاءته إطلاقة فأردته قتيلاً ليكون أول ضابط يقتل في تلك الثورة وبعدها بدأ خروج موظفي القصر- وهم يلوحون بمناديلهم البيض دلالة على استسلامهم فتم حجز الموظفين في إحدى حدائق القصر».

وتابع سرد قصته بطلاقة بحيث يبدو أنه رواها للكثيرين حتى أصبحت راسخة التفاصيل في ذهنه «في هذه اللحظات بدأ ضوء الصباح يشق طريقه معلناً بداية يوم جديد تخلله خروج الملك فيصل الثاني ملك العراق وعلى جانبه خاله الوصي عبد الإله وعلى جانبه الآخر جدته الملكة عالية والدة الوصي وهم يحملون المصاحف، وعند نزولهم درجات السلم باتجاهنا وكانت الفوضى عارمة، خرج من بيننا النقيب عبد الستار العبوسي وهو يوجه سلاحه سترلنك أمريكي الصنع صوب العائلة وهو يصرخ ويقول بأعلى صوته وبهستيريا: لا تدعوهم يخدعونكم مطلقاً».

ويمضي بقوله ليصل إلى المفصل الأساسي «ثم بدأت إطلاقات سلاح العبوسي تتوجه صوب العائلة فسقطوا على الأرض وقضوا نحبهم، فكانت هولاً عظيماً بالنسبة لي فتوجهت ساعتها صوب الملك الشاب فإذا قطرات دمع تنزل من عينيه».

وأضـــاف بنبرة حزينة «في تلك اللحظات عم الهرج ودخل الجنود إلى داخل القصر ــ فوجدوا طباخ الملك وبعض خدمه مقتولين داخل مطبخ القصر ــ من جراء القصـف، فتوجه أحد الضـباط وأخذ جثة الوصي عبد الإله إلى جهة وأخذ ضـابط آخر جثتي الملكة والملك إلى المقبرة الملكية».

وتابع «جاء للقصر ــ آمر لواء الحرس الملكي العقيد طه البامرني وأمر جماعته أن يلقوا السلاح وينضموا تحت لواء الثوار وبدأ يهتف بحياة الزعيم عبد الكريم قاسم حيث كان الزعيم يقود الثورة من مقر وزارة الدفاع، وبدأ أفراد لواء الحرس الملكي بتسـليم أسـلحتهم، وجاءت الأوامر أن نشـيع الخبر بين الناس بأن الوصي هو الذي قتل الملك لأنه حاول أن يسـلم نفسـه للثوار وذلك كي لا تتسـم الثورة بسـمة الثورة الدموية».

ويســتذكر أبو ربيع أحد المواقف التي مرت به قائلاً «كنت أتفحص الحديقة المجاورة للقصر ــ الملكي برفقة أحد المعلمين وكان اســمه العريف مول، وهو من سكنة محافظة أربيل، فانتبهنا إلى أن هناك امرأة شابة تزحف بين الأشجار والأزهار فحملنا المرأة وأخبرنا أحد ضباطنا من الذين يوصفون بطيبة القلب فأخذ تلك المرأة وأوصلها إلى أحد أقاربه ومن ثم إلى عشيرتها، وتبين أن تلك المرأة هي زوجة الوصي عبد الإله خال الملك».

ومضى يقول : «قرر النقيب ستار أن نرافقه في مهمته التي لم يفصح عنها فكانت جولتنا إلى مقر الإذاعة حيث كانت الشوارع تكتظ بالمتظاهرين والمحتفلين بالثورة، وعمت الإشاعة (الي تقرر ترويجها) وسمعنا من المتظاهرين أن الوصي قتل الملك، ووصلنا إلى مقر الإذاعة فأمرني النقيب ستار أن أبقى خارج الإذاعة في انتظاره في وقت كان عبد السلام عارف يلقي خطابات الثورة من داخل مقر الإذاعة التي كانت مقراً لكبار الدبلوماسيين والرتب العسكرية العالية المتخذين كرهائن داخل الإذاعة».

ويستمر في حديثه قائلاً : «وبعد لحظات من دخول النقيب ستار إلى الإذاعة خرج عبد السلام عارف وبدأ بتعريف نفسه للمتظاهرين، وبين للناس أن قائد الثورة هو الزعيم عبد الكريم قاسم وقد انتهى الحكم الملكي معلناً بداية حكومة جمهورية».

وعبد السلام عارف أحد أبرز المشاركين في إنهاء العهد الملكي في العراق فيما عرف بثورة 14 تموز 1958، وسجن بعد أشهر من الثورة على إثر خلاف نشب مع زعيم الثورة عبد الكريم قاسم، لكنه أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية بعد انقلاب عسكري أودى بحياة قاسم، جرى يوم 8 شباط فبراير 1963 بشراكة لم تدم طويلاً من حزب البعث العربي الاشتراكي (المنحل الآن).

ويردف ضابط الصف قائلاً : «كان ذلك حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة من صباح يوم الثورة، ثم توجهت مع النقيب ستار إلى بيت رئيس الوزراء نوري سعيد حيث كان مسكنه يطل على نهر دجلة فدخلنا البيت فوجدناه قد نهب و سلب ما في داخله وتوجهنا إلى ممر طويل في داخل البيت يؤدي إلى ميناء صغير يحتوي على زوارق».

وأضاف «تبين أن نوري سعيد استطاع الهرب من هذا الميناء الصغير بواسطة أحد زوارقه متجهاً إلى منطقة الكاظمية إلى بيت صديقه التاجر الحاج أحمد الاسترابادي الذي اعتقل لفترة دامت حوالي أسبوع بسبب علاقته بنوري سعيد، وكان رجلاً مسناً».

ويعبر أبو ربيع عن خيبة أمله وزملائه وهو يتطلع إلى صورة له غير واضحة المعالم قال : إنها التقطت في معرض للآليات المشاركة بالثورة جرى تنظيمه في العام 1959 «عدنا إلى القصر الملكي وتم توزيع الواجبات علينا بحرا سة القصر و شاع خبر بأن مجموعة النقيب ستار سينالهم تكريم الزعيم عبد الكريم قاسم بمنح رتبة ملازم لكل عريف وذلك تقديراً للبطولة التي قام بها النقيب ستار بقتله الملك وعائلته».

واستدرك «كانت المفاجئة أكبر من أمنياتنا وخاب أملنا عندما غضب الزعيم بسبب مقتل الملك وعائلته، وأمر بتجريد النقيب ستار من جميع صلاحياته، ونقلنا مع النقيب ستار للعمل في سجن الموقف في باب المعظم (و سط بغداد حالياً) مقابل وزارة الخارجية حيث اصبح النقيب ستار معاوناً لآمر السجن أنور عبد القادر الحديثي».

لم تكن هذه الانتقالة غير السارة لضابط الصف عبد الرازق خاتمة لقصته مع شخصيات قدر لها أن تسهم في صنع التاريخ السياسي للعراق المعاصر، فقد أصبح في موقعه الجديد سجاناً لعدد من الشخصيات السياسية أبرزها أحمد حسن البكر الرئيس الذي حكم العراق 11 عاماً بعد انقلاب عسكري قام به حزب البعث العربي الاشتراكي (المنحل الآن) سنة 1968 ضد الرئيس عبد الرحمن عارف شقيق عبد السلام عارف الذي قتل في حادثة تحطم طائرة سنة 1966.

ويقول شاهد العيان عن هذه الفترة أن «العمل في المعتقل له شواهد تاريخية أخرى فقد كان المعتقل يضم كلاً من العقيد أحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش، وكان البكر يرسلني لشراء التبغ الخاص به وبسعر باهظ الثمن (آنذاك) حيث كانت العبوة الواحدة من التبغ سعرها 300 فلساً (الدينار العراقي يساوي ألف فلس) ويسمى تبغه الخاص تتن أبو الريحة، وأصبحت علاقة حميمة بيننا». وعن ذكرياته مع البكر يضيف أنه «كان متهماً بالاتصال مع ضباط في إيطاليا للحصول على أسلحة للإطاحة بنظام عبد الكريم قاسم بعد الانشقاق الذي حصل بين عبد السلام عارف والزعيم، وتكونت علاقة حميمة بين آمر المعتقل أنور الحديثي الذي كان يملك أفكاراً قومية وأصبح فيما بعد سكرتير مجلس قيادة الثورة في حكومة البعث فيما بعد».

ويضـيف أبو ربيع «كان في ضـيافة المعتقل أيضـاً كل من مالك سـيف مسـؤول الحزب الشـيوعي ومجموعة من الإعلاميين الإذاعيين، هم كل من كاظم الحيدري ونـاظم بطرس ومحمد علي كريم وهـادي النورس ورئيس تحرير جريدة الحوادث عادل عوني، ومجموعة من شيوخ العشائر منهم الشيخ عبد الرزاق علي سليمان شيخ الدليم والشيخ غازي على كريم شيخ من سامراء ونائب برلمان وهو أحد أصـدقاء الوصي، كذلك الشـيخ أحمد عجيل الياور الذي منحني فراشـه الأسـفنجي عند خروجه من المعتقل، والشيخ محمد العريبي وآخرون أنساني الدهر أسماءهم».

وتابع «الذين تم حكم الإعدام بحقهم هم كل من وزير الداخلية سـعيد قزاز ومدير الأمن العام بهجت العطية ومتصرف بغداد عبد الجبار فهمي ومدير أمن بغداد عبد الجبار أيوب الذين أدينوا بتهمة تعذيب السـجناء وإطلاق العيارات النارية على سجناء معتقلي بغداد والكوت في عام 1952».

«دارت الأيام وأصبح أحمد حسن البكر في منصب رئيس الجمهورية وأصبحت في حينها حرساً في استعلامات القصر الجمهوري، وصادف أن شاهدني أحمد حسن البكر في الاستعلامات فأمر بنقلي من ذلك المكان».

ويضيف أن «النقيب ستار أصبح من رجال الحكومة البعثية وتم إرساله إلى دورة في روسـيا ومن ثم انتقل للعمل في البحرية في محافظة البصرـة، ولكن القدر لم يدعه فكتب رسـالة انتحار يوصي فيها بأهله وعياله من بعده موضـحاً خلال الوثيقة أن أهم شيء دفعه لعملية الانتحار هو تأنيب الضمير من جراء مقتل الملك وعائلته التي لا تفارق مخيلته».

ويختم ضابط الصف كلامه واصفاً الحادثة التي شكلت المفصل الأهم في حياته كلها بقوله «هذه الحادثة بقيت في ذاكرتي أعيشـها كل لحظة، وتبدأ دموعي بالتسـاقط عندما أتذكر طريقة مقتل الملك فيصل».

الخاتمة

كانت الميتة المؤلمة للأسرة الهاشمية المالكة في العراق .. والمصير الشنيع لجثة الأمير عبد الإله (رحمه الله) التي تلاشت سحلاً في شوارع بغداد .. فاتحة لميتات وقتل أشنع وأبشع منها.

فنوري السعيد رئيس الوزراء (رحمه الله) قد اضطر إلى الانتحار بعد أن حاصرته (الثورة) تعقبته في كل مكان آوى إليه .. وانتهت جثته سحقاً بالأقدام، وتحت إطارات السيارات، وسحلاً في شوارع بغداد . ولم ينج رئيس وزراء الأردن والوفد السياسي الأردني القادم إلى بغداد من قتلة وميتة ونهاية أليمة مماثلة .. وشمل القتل والسحل وتمزيق الجثث بعض الأجانب والأوربيين الذين قدموا إلى بغداد للتجارة أو الاستشارة أو كموظفين في الحكومة أو لدى الشركات.

وكان لتشغيل طاحون الموت في العراق، صبيحة يوم 14 تموز 1958 على الشكل الذي تم فيه تشغيل هذا الطاحون .. أن التهم طاحون الموت لا المغامرين الطامحين في الحكم والسيطرة والنفوذ وحسب ..

وإنما التهم أبناء الشعب العراقي من أقصاه إلى أدناه .. وشهد العراق مجازر رهيبة لم يعهدها تاريخه بكل ما بهذا التاريخ من مآسي القتل والفوضى ..

ففي الموصـــل وكركوك (عام 1959) حدثت مجازر دموية يندي لها الجبين الإنساني خزياً وعاراً، وسفكت دماء المواطنين وسالت أنهاراً وصار سحل الناس لبعضهم عادة مستحبة! وعلق الأموات من النساء والرجال دون ما تمييز على أعمدة الكهرباء في الشوارع ..

وتجاوز عدد الذين قتلهم «الشيوعيون» في مدهم، على عهد عبد الكريم قاسم زعيم ثورة 14 تموز المئات من الأبرياء، فضلاً عن التصفيات الجماعية للخصوم السياسيين!.

وتدور الدنيا، وينتقل العراق من حال إلى حال؛ ومن عهد إلى عهد .. ويجيء دور «الثوار» أنفســـهم .. ويبدأ طاحون الموت يلتهم الواحد بعد الآخر. فيلتهم أول ما يلتهم الزعيم عبد الكريم قاسم بطل ثورة 14 تموز 1958.

ففي 9 شـــباط 1963 (ثورة 14 رمضـــان) يقاد الزعيم وبطانته إلى مبنى الإذاعة في بغداد، فيقتلهم زملاؤهم. ويواري عبد الكريم قاســـم التراب في إحدى المزارع القريبة من بغداد سراً. إلا أن حارس المزرعة قد اكتشف أن عدداً من الكلاب قد نبشت حفرة وراحت تنهش في جثة إنســـان وتأكل من لحمها .. وذهل الحارس عندما تعرف على الجثة التي هي جثة عبد الكريم قاســـم نفســـه، فأخبر الفلاحين في القرية المجاورة الذين سرعان ما اختطفوا الجثة المنهوشة من الكلاب وأخفوها في تابوت لكي تدفن.

واكتشــفت المخابرات أمر التابوت .. وفتح ثانية، وألقى ببقية الجثة في نهر دجلة حيث ابتلعتها الأسماك!!

وتدور الدنيا دورة أخرى .. فيحترق العقيد عبد الســلام عارف – الزعيم المنفذ للثورة، بطائرة هليكوبتر (ما بين القرنة والبصرـة في جنوبي العراق) ويحترق معه كل من العقيد عبد اللطيف الدراجي والملازم أول عبد الله مجيد.

وفي فترة مصرـع زعيمي ثورة 14 تموز .. يســحل النقيب جواد حميد الصــايغ في الموصـل .. ويعدم أبو الضـباط الأحرار العقيد رفعت الحاج سري رمياً بالرصـاص، ويلقي النقيب فاضل مهدي البياتي والنقيب عباس الدجيلي المصير ذاته ..

وينتحر النقيب «العقيد» عبد الستار سبع العبوسي في البصرة في ظروف غامضة.

وتأكل «الثورة» أبناءها الواحد تلو الآخر.

ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

الفهرس